رسائل ومقامات أندلسية

دكتور
زى سعد عيسى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

رسائل ومقامات أندلسية

تحقيق

دكتور

فوزي سعد عيسى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

مقدمة

هذه مجموعة نادرة من الرسائل والمقامات الأندلسية ، ننشرها عن نسخة خطية وحيدة بدار الكتب المصرية ، وتضم ستاً وثلاثين رسالة ، أغلبها لم ينشر من قبل فضلاً عن مقامتين تنشران أيضاً لأول مرة بعد أن ظلّتا مجهولتين أمداً طويلاً ، وهما « المقامة القرطبية » و « المقامة الشّلبية » .

وتتوزع رسائل هذه المجموعة ما بين رسائل ديوانية تكشف عن جوانب سياسية وتاريخية مهمة فى عصرى الطوائف والمرابطين ، وبين رسائل إخوانية تكشف عن صلات جديدة بين أدباء الأندلس ، وتتناول موضوعات طريفة ، كموضوع الزرزوريّات ، ووصف الغيث ، ووصف مسجدقرطبة الجامع ، وما كتبه أحد الفقهاء فى نكاح ابنته ، وغير ذلك من رسائل مهمة تعمّق جوانب عديدة فى مجال النثر الفنى فى الأندلس .

كما تحتوى هذه المجموعة على رسالتين تمثلان أهمية واضحة فى ميدان الدراسات النقدية وهما رسالتا أبى عبد الله بن أبى الخصال وأبى محمد بن القاسم فى الترجيح بين بديع الزمان الهمذانى وأبى إسحاق الصّابى .

ومن أهم ما تمتاز به هذه المجموعة أيضاً أنها تضمُّ نتاجاً نثرياً جديداً لمجموعة من كتاب الأندلس فى القرن السادس الهجرى ، ومنهم من يُصنَّفون فى الطبقة الأولى من كُتَّاب النثر فى الأندلس على شاكلة أبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وعبد المجيد بن عبدون وأبى بكر بن عبد العزيز المعروف بابن المرخى فضلاً عن مجموعة أخرى من الكتّاب المقلّين ينفرد هذا المجموع برسائل عديدة لهم مثل ابن صاحب الصلاة (أربع رسائل) ، وابن سيدة اللغوى (أربع رسائل) ، وأبى مروان بن زكريا ، وغيرهم .

ولا شك أن اكتشاف هذه النصوص يسهم فى تجلية المكانة الأدبية لهؤلاء الكتّاب ، كما يسهم فى سدّ ثغرات واضحة فى مجال النثر الأندلسى يعرفها الباحثون والمتخصصون .

وصف المخطوطة ومنهج التحقيق :

اعتمدنا فى تحقيق هذه المجموعة من الرسائل على نسخة خطّية وحيدة بدار الكتب المصرية هى المجموع رقم ٤٦٥٠ أدب طلعت ، وتقع فى سبع وأربعين ورقة ، ومسطرتها ١٨ × ٢٣ ، وعدد سطور الصفحة ٢١ سطراً ، ومتوسط عدد الكلمات فى السطر الواحد عشر كلمات ، وقد كتب على صدره بخط حديث « قطعة من كتاب فى الرسائل » .

والنسخة مكتوبة بخط النسخ المنقوط ، وقد كُتبت بخط واضح إلى حد ما ولكنَّها لم تسلم من أخطاء كثيرة فى التصحيف والإملاء واللغة مِمَّا يرجع إلى جهل الناسخ أو الناقل .

وعلى صفحة الغلاف من الوجه الأوَّل كلمات مبتسرة ، متفرقة ، مطموسة ، لايمكن قراءتها أو استجلاؤها من أثر الرطوبة . أما غلاف الصفحة من الجهة المقابلة فعليه رسالة كتب بها الشيخ الفقيه المفتى أبو محمد عبد الحميد بن أبى الدُّنيا إلى الفقيه الإمام العلاَّمة الشيخ عز الدِّين أبى محمَّد عبد العزيز بن عبد السَّلام ، وهذه الرسالة تتضمن أسئلة فقهية عمَّن يسوغ له الفُتيا ، وعليها ردُّ الشيخ عز الدين بن عبد السَّلام ، وقد ذيَّله بفائدة فى الموضوع نفسه .

وعلى الورقة الثانية إجازة للبيضاوى فى كتابه المسمَّى بـ « الغاية القصوى فى الفقه » ، وفيها ثبت بشيوخه الذين أخذ عنهم الفقه ، ويستغرق ذلك كله ورقتين من أوراق المجموعة التى تبلغ ٤٧ ورقة .

وفى صدر الورقة [٤/أ] نجد عبارة مكتوبة بخط حديث وهى « قطعة من كتاب فى الرسائل » ، ونطالع فى الورقة [٣/ب] أول رسالة فى هذا

المجموع ، وهى رسالة الفقيه المشاور أبى محمد عبد القوى فى نكاح ابنته الى أحد الفقهاء ، وفى أعلى الصفحة عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم ، صلّى الله على سيدنا محمد نبيِّه الكريم ، وعلى آله وسلِّم تسليما » ، مِمَّا يؤكد أنَّ هذه هى بداية المجموع ، فضلاً عن أنَّ رسالة ابن أبى الدنيا وردّ الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وإجازة البيضاوى ، كُتبت بخط مخالف لبقية الرسائل ، ونمضى مع بقية رسائل المجموع ليصل عددها إلى ٣٦ رسالة ، آخرها رسالة أبى عبد الله بن أبى الخصال فى الردّ على رسالة أبى محمد بن القاسم ، وتنتهى رسالة ابن أبى الخصال بنهاية الورقة [٤٢/ب] ، وقد كُتب فى آخر الورقة :

« آخره صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله »

« وحسبنا الله ونعم الوكيل »

أمَّا بقيَّة صفحات المجموع ، وعددها (خمس) فهى كالآتى :

ــ الورقة [٤٣/أ] وفى أعلاها عنوان « فصل فى الرسائل » وتضمُّ هذه الورقة رسالة قصيرة مجهولة الهويّة ، تحتوى على اثنى عشرة سطراً ، وتستغرق نصف الصفحة ، وفى نصف الصفحة الآخر « مطلع رسالة لأبى العلاء المعرى » .

ــ وفى الورقة [٤٣/ب] فصل من رسالة يحتوى على خمسة أسطر ، وبقية الورقة بياض ، وكذلك الورقة [٤٤/أ] فهى بيضاء .

ونجد فى الورقة [٤٤/ب] بعض الآيات القرآنية .

وفى الورقة [٤٥/أ / رسالة إلى قاضى القضاة بدمشق يشكو فيها صاحبها (وهو مجهول الهوية) من الفاقة ، وينهيها بقصيدة ضعيفة فى المدح والاستجداء ، ويدل أسلوبها وصياغتها على أنها نظمت فى فترة متأخرة .

ــ وفى الورقة [٤٦/أ] بياض ، وفى الورقة [٤٦/ب] مظلمة محشوة بالألفاظ العامية ، مما يدل على أنها نظمت فى عهد متأخر .

ـــ وفى الورقة [٤٧/أ] بياض ، وعنده تنتهى أوراق المخطوطة .

ومن هذا الوصف يتبين أن الرسائل الأندلسية فى هذه المخطوطة تبدأ من الورقة [٣/أ] وتنتهى بنهاية الورقة [٤٢/ب] وهو ما تأكد لنا من عبارة الختام فى نهاية الورقة التى أشرنا إليها من قبل .

وتخلو أوراق هذه المخطوطة من أيّة معلومات أو إشارات تميط اللثام عن صاحبها أو جامعها ، كما لانظفر بأية إشارة تدل على ناسخها أو متملكها أو تاريخ كتابتها .

كما أنَّ وجود فصول ونماذج قصيرة من الرسائل بعد نهاية عبارة الختام فى [الورقة ٤٢/ب] تقوى لدينا الظنّ بوجود أحد احتمالين : فإمّا أن تكون الرسائل الأندلسية فى هذا المجموع قد تداخلت مع رسائل أخرى من كتاب آخر ، وإمًّا أنَّ هذه الرسائل كلها مجموعة واحدة ، وتمثل قطعة من كتاب كبير مفقود فى فن الترسل .

منهج التحقيـق

أمَّا عن منهجنا فى التحقيق ، فقد اتبعنا الخطوات التالية :

أولا : قابلنا بين بعض الرسائل الواردة فى هذا المجموع ، وبين ماورد منها فى بعض المصادر الأخرى ـــ مطبوعة ومخطوطة ـــ فمثلاً رسالة ابن صاحب الصلاة فى وصف جامع قرطبة (رقم ٤) ، قابلناها على مثيلتها فى نفح الطيب ، وأكملناها منه حيث وردت ناقصة فى نسخة الأصل ، كما قابلنا رسالة أخرى لابن صاحب الصلاة (رقم ٣) على نظيرتها فى كتاب (رسائل أندلسية) الذى نُشر عن نُسخة الأسكوريال بتحقيقنا أيضاً .

كما أفدنا من مخطوطة ترسل الفقيه الكاتب ابن أبى الخصال (نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية عن نسخة الأسكوريال) ، وقابلنا عليها ثلاث رسائل فى هذا المجموع وهى الرسائل رقم (٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦) .

ثانياً : وضعت أرقاماً مسلسلة لكل رسالة من الرسائل الواردة فى هذا المجموع حتى يسهل الرجوع اليها .

ثالثاً : قدَّمت الإضاءة المناسبة لبعض الرسائل .

رابعاً : شرحت الألفاظ اللغوية التى يستغلق فهمها لإظهار المعنى ، وكشف مايكتنفه من غموض ، واعتمدت فى ذلك بصفة خاصة على « لسان العرب » و « الصحاح » .

خامساً : عَرَّفت بالأعلام الوارد ذكرها فى الرسائل ، واستعنت فى ذلك بكتب التراجم ومصادر الأدب المختلفة .

سادساً : خرَّجت كثيراً من أبيات الشعر المتمثل بها فى الرسائل فنسبتها إلى قائليها ومصادرها ، كما قوَّمت المعوجّ منها عروضياً ،وأثبت ذلك فى مواضعه .

سابعاً : خرَّجت ما وشّح به الكتّاب رسائلهم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والإشارات التاريخية .

ثامناً : ضبطت الكلمات بالشكل ، ونبَّهت على الأخطاء المختلفة فى اللغة والإملاء والتصحيف .

تاسعاً : أثبتُّ الرسائل الأربع التى تشكَّكتُ فى أنها خارجة عن رسائل المجموع فى ملحق خاص ــ فى آخر الكتاب ــ إكمالاً للفائدة .

عاشراً : ذيَّلت الكتاب بفهارس للآيات القرآنية والأحاديث والشعر والأمثال والأعلام والقبائل والبلدان .

أهميــة الكتاب وقيمته الأدبية :

يضم هذا الكتاب مجموعة نادرة من الرسائل التى تصل فى جملتها إلى (٣٦ رسالة) ، منها أكثر من ثلاثين رسالة لم تنشر من قبل ، وهذا فى حد ذاته يمثل قيمة أدبية واضحة لأن نشر مثل هذه النصوص يضيف أبعاداً جديدة

إلى موضوعات النثر الأندلسى ، ويسهم فى دراسته على نحو أكثر وضوحاً

وهذه الرسائل تتوزع بين اثنى عشر كاتباً ، يأتى فى طليعتهم — من حيث الكثرة — الوزير الكاتب أبو بكر بن عبد العزيز المعروف بابن المرخى (ثمانى رسائل) والوزير الكاتب أبو مروان بن أبى الخصال (ثمانى رسائل) وهذان الكاتبان — على مالهما من شهرة — لم يصلنا من رسائلهما إلا القليل ، ومن هنا تبدو أهمية هذه الرسائل التى يحتفظ بها المجموع لهما فى التعرف على مكانتهما النثرية على نحو أكثر وضوحاً .

ويأتى فى الترتيب بعد هذين الكاتبين — من حيث الكثرة أيضا — أبو بكر بن صاحب الصلاة (أربع رسائل) ، ابن سيدةَ اللغوى (أربع رسائل) ، أبو عبد الله بن أبى الخصال (ثلاث رسائل) ، الفقيه أبو محمد عبد القوى (رسالتان) ثم رسالة واحدة لكل من : عبد المجيد بن عبدون ، أبى مروان بن زكرياء ، أبى جعفر بن أحمد ، أبى محمد بن القاسم .

كما يضمُّ الكتاب مقامتين مجهولتين تنشران لأول مرة ، إحداهما تُسمى (المقامة القرطبية) وتتناول بالهجاء قضاة قرطبة وأدباءها وأعيانها فى القرن السادس الهجرى ، وقد ظل أمر هذه المقامة مجهولاً لدى كثير من الباحثين ، ولم يعرفوا منها غير اسمها حتّى أدى ذلك ببعضهم إلى الخلط بينها وبين مقامات أخرى ، وقد نبَّهنا إلى ذلك فى موضعه . ويحتفظ هذا المجموع بردٍّ على المقامة القرطبية كتبه الأديب أبو جعفر بن أحمد ، ينتصر فيه لأهل قرطبة ، ويعيب على كاتب المقامة نهجه فى الإزراء بالعلماء والأدباء .

أما المقامة الثانية ، فتُعرف بالمقامة « الشّلبية » وهى تحذو حذو المقامة « القرطبية » فى هجاء قضاة « شلب » وأدبائها وأعيانها ، ولا شك أن نشر هاتين المقامتين يمثل إضافة جديدة فى دراسة المقامات الأندلسية من ناحيتى المضمون والشكل .

وتتنوع الرسائل التى يضمُّها هذا المجموع ، ونستطيع أن نصنّفها فى الموضوعات التالية :

(١) الرسائل الديوانية :

يضمُّ هذا المجموع مجموعة من الرسائل الديوانية والسياسية ، التى تنتمى إلى عهد المرابطين ، وأغلبها صادر عن ديوان الإنشاء الرسمى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين الذى تولى إمرة المسلمين فى المغرب والأندلس بعد وفاة أبيه يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ ودام حكمه حتى سنة ٥٣٧ هـ ، وقد ازدهر ديوان الإنشاء فى عهده ازدهاراً لم تشهده الدولة المرابطية ، واجتمع له عدد كبير من الكتاب البارزين ، وفى ذلك يقول عبد الواحد المراكشى[١] : « ولم يزل أمير المسلمين (على بن يوسف) من أول إمارته يستدعى أعيان الكُتَّاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ؛ حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك كأبى القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، أحد رجال البلاغة ، وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطُرنة ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون ... فى جماعة يكثر ذكرهم » .

ويستأثر أبو مروان بن أبى الخصال بأغلب الرسائل الديوانية الواردة فى هذا المجموع إذ يحتفظ له صاحبه بست منها بالإضافة إلى رسالتين أخريين فى الإخوانيات .

وكان أبو مروان وأخوه عبد الله من أعظم كُتَّاب الدولة المرابطية ، وقد ولد أبو مروان (عبد الملك بن مسعود) فى قرية فرغليط من جهة شقورة ثم استقر مع أخيه الأكبر أبى عبد الله فى قرطبة ، وروى بها عن أعلام أهل العلم حتى نبغ فى الكتابة وصار كما يصفه عبد الملك المراكشى « من أهل الأدب والتقدم

---

(١) المعجب : ٢٣٧

فى الكتابة والبلاغة والفصاحة ، ذا حظ من قرض الشعر[1] » .

وقد استدعى أبو مروان مع أخيه عبد الله للخدمة السلطانية فى عهد على ابن يوسف ، وصارا من أنبه الكتاب عنده ، وأكبرهم مكانة لديه ، ولم يزالا كاتبين له إلى أن أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين هزمهم ابن رذمير (ألفونسو المحارب) هزيمة قبيحة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فكتب أبو عبد الله رسالة وبّخ فيها هؤلاء الجند توبيخاً شديداً ، وهى الرسالة رقم (٢١) فى هذا المجموع ، كما كتب أبو مروان رسالة أخرى فى الغرض نفسه أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة[3] ، فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخّره عن كتابته ، فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعدما مات أخوه أبو مروان بمراكش سنة ٥٣٩ هـ وهو ابن نحو ستين سنة ولم يلبث أبو عبد الله أن مات مقتولاً بعد وفاة أخيه بعام واحد وذلك فى سنة ٥٤٠ هـ فى أول الفتنة الكائنة على المرابطين[4] .

وتشير الروايات إلى أن أبا مروان اعتزل الحياة السياسية بعد هذه الحادثة وانقطع للعبادة وأقبل على مايعنيه من أمر معاده حتى وفاته[5] .

ومن رسائله الديوانية فى هذا المجموع رسالة كتب بها عن على بن يوسف إلى يحيى بن على بن غانية يكلفه بولاية بلنسية[6] ، وكان علىٌّ من القواد الذين اضطلعوا بدور بارز فى خدمة المرابطين ، وقد وصفه عبد الواحد المراكشى بأنه « كان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس ، فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله — عز وجل — والتعظيم له والاحترام للصالحين ، هذا مع علوّ قدم فى الفقه واتساع رواية

(٢) الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٧ ، وأنظر ترجمته فى : التكملة رقم ١٧٠٦ ، بغية الملتمس : ٣٨٢ رقم ١٧٠٦ . لمغرب ٢ : ٦٨

(٣) وردت فى كتاب « رسائل أندلسية » بتحقيقنا ص : ٦١

(٤) المعجب ٢٤٠ - ٢٤١

(٥) الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٧ .

(٦) أنظر الرسالة رقم (٢٦)

للحديث ؛ وكان مع هذا شجاعاً فارساً ، إذا ركب عدّ وحده بخمسمائة فارس ، وكان علىّ بن يوسف يعده للعظائم ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم »[٧] ، وقد ذكر المراكشى أنَّ أمير المسلمين على بن يوسف ولاه مدينة بلنسية ثم عزله عنها وولاه قرطبة ، فلم يزل بها والياً إلى أن مات أول الفتنة الكائنة على المرابطين[٨] .

أمّا رسالة أبى مروان فهى صادرة عن ديوان الإنشاء بمراكش ، ومؤرخة بأربع خلون لجمادى الأولى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وتشير الرسالة إلى أن علىّ بن يوسف أمر بتقليده ولاية بلنسية إضافة إلى ولايته على شاطبة حسب ما ورد بالرسالة[٩] .

وهذا يدل على ثقة أمير المسلمين فى ولائه وكفاءته . يقول أبو مروان بن أبى الخصال على لسان على بن يوسف[١٠] : « وإنّا بما نعرفه من صفو ولائك ، وصدق غنائك ، وظاهر استقلالك واكتفائك ، نرى أن نرفعك بمقتضى حقّك فى الأحوال ، ونوسع لك فى الأعمال ، ونعقد بطوقك منها ما نعلم أنك به ناهضٌ مضطلع ، ونُضيف إليك من جسيمها ما أنت بشروطه والقيام بحقوقه رحبُ الصّدر مُتَّسع ، ولضبط جوانبه ومراعاة لوازمه مُنتظم الأمر مجتمع ، فقلّدناك — بعد استخارة الله تعالى — والابتهال إليه فى اطّلاعنا على مواقع السّداد ، وإمدادنا بحُسن التوفيق والإرشاد ، ولاية بلنسية وأعمالها — حماها الله — تقليداً جمعنا لك به بين الولايتين ، وملّكناك به أمر كريمتين ، وزمام جحفلين ، فتقلّد ما قلّدناك على الطائر السعيد ، وتظاهر التأييد » .

ولا يفوت أمير المسلمين أن يوصى على بن يحيى خيراً بأهل بلنسية ، وأن

---

(٧) المعجب ٣٤٢ - ٣٤٣

(٨) نفسه : ٣٤٣

(٩) أشارت الرسالة إلى ذلك . أنظر ص : ١٣٢

(١٠) ص : ١٣١

يعشر بينهم الأمن والعدل فيقول له[11] : « فاجزهم الآن بودادهم ، وحظّهم فى أنفسهم وأموالهم وبلادهم ، وعمّ جميع الأحوال بتصفُّحك ، ومتّع الجميع بتأمُّلك ، واعط كّلاً حقه من نصفتك وحسن رعايتك ، وأذقهم حلاوة الأمن والعدل فى ولايتك » .

ونجد فى الرسالة بعض التفصيلات الدقيقة كاختيار مكان إقامة على بن يحيى « وموضع إقامتك هناك أنت تختاره حيث تهوى لنفسك ، فتبوأ مكاناً يصلح لأمرك ، ولا تبعد به كلّ البعد عن قاصية ثغرك ، فترجّح ما بين شاطبة وبلنسية أو منزلة بينهما » كما يقترح عليه أمير المسلمين أن يستعين بأخيه محمد بن غانية إن احتاج إليه على أن يستنيب مكانه بميورقة من يراه كفوًا لهذا المنصب .

وأردف أبو مروان رسالته برسالة أخرى (رقم ٢٧) كتبها عن على ابن يوسف إلى أهل بلنسية يعلمهم فيها بما استقر عليه عزمه من اختيار على ابن يحيىَ والياً عليهم وقد أُرّخت بالتاريخ ذاته الذى كتبت به الرسالة السابقة ، وتشيد الرسالة بسيرة علىّ وصفاته على النحو الذى ذكره المراكشي عنه ، وممّا جاء فيها :[12] « فقد رأينا بعد استخارة الله التى يتوصّل إلى المراشد من بابها ، وتُدرك المناجح من أسبابها ، أن تولى عليكم أبا زكريا يحيى بن على ــ أعزه الله بتقواه ــ فقد قلّدناه أعمالكم ، ووصلنا به حبالكم ، نظراً منّا لكم بمكانه ، وإلقاء بأزمّتكم إلى حازم وقته وأوانه ، فإنه ــ والله ينُجده ويُسعده ــ بحيث علمتم : حسن سيرة وعدل ، ومتانة دين وفضل ، وتمسكاً من التقوى بأقوى حبل ، مع صالح مشهد وبلاء ، وصادق حفاظ وغناء ، ونفاذ عزيمة ومضاء » .

وإذا كانت هذه الرسالة قد أوقفتنا على هذا التقليد الذى جرت عليه الدولة المرابطية من إعلام أهل الأندلس بمن يقع عليهم الاختيار من الولاة ،

(١١) ص : ١٣٢

(١٢) ص : ١٣٣

فإن الرسالة رقم (٢٨) توقفنا على تقليد مشابه له وهو إعلام العسكرية المرابطية بهذه القرارات ، فقد وجّه أبو مروان رسالة مماثلة إلى العسكرية المرابطية ببلنسية فى الغرض ذاته ، يخبرهم فيها بتولية يحيى بن على قائداً عليهم ويدعوهم إلى طاعته والامتثال لأوامره مما يتضح فى قوله :(١٣) « وقد ولّينا أمركم أبا زكريا يحيى بن على ــ أعزّه الله بتقواه ــ وقلّدناه تصريف أعنّتكم ، وأرخينا إليه بأزمّتكم ، ومكانه حيث لم تجهلوه خيراً وخيماً ، ونصاباً كريماً ، وهدياً قويماً ، وإقداماً وتصميماً .. وأنتم مع ذلك بحكمه مُصرّفون ، وبالتزام طاعته مكلّفون ، وإلى رايته مجتمعون ، وتحتها متألفون ، فإذا أمر فأتمروا ، وإذا رمى بكم جانباً فابتدروا ، وإذا أوردكم فردوا ، وإذا أصدركم فاصدروا ... » .

ويحتفظ هذا المجموع بوثيقة نادرة كتبها أبو مروان بن أبى الخصال عن أبى يعقوب ينتان بن على وهو الإبن الأصغر لأمير المسلمين على بن يوسف ، وكان قائداً مشهوراً شارك فى معركة قشتالة سنة ٥١٤ هـ حين كان قائداً على مرسية ، كما خرج بقواته غازياً فى أراضى أراجون وهزم النصارى ، وقتل الكونت جاستون دى بيارن وسيقت رأسه إلى أمير المسلمين بمراكش (١٤) .

والوثيقة التى نعنيها جاءت فى صورة عهد كتبه الأمير أبو يعقوب ينتان ابن علىّ عن نفسه وأسقط فيه نصف أملاكه وأمواله بمرسية لتنفق فى وجوه البّر وقد جاء فى هذا العهد (الرسالة رقم ٢٤) : « كتاب برٍّ منشور ، وإجمال موفور ، واهتبال موصول بالدوام مشكور ، أمر به الرئيس الأجلّ أبو يعقوب ينتان ــ أيده الله ــ لذى الوزارتين أبى الحسن بن طاهر (١٥) ... أسقط به عنه نصف جميع مايلزمه من أملاكه بمرسية وماله من المعادن

---

(١٣) ص : ١٣٥

(١٤) عصر المرابطين والموحدين ، عنان (١ : ١٣٤)

(١٥) من أعيان مرسية ورؤسائها .

على اختلافها ، والتكاليف على أصنافها ... ويتقضّى منه على أجمل الوجوه ، وعلى سنن من البّر ... » .

وفى المجموع رسالة أخرى لأبى مروان بن أبى الخصال كتبها عن تاشفين ابن على إلى صاحب فاس (الرسالة رقم ٢٢) ، وهى تقفنا على بعض ماكانت تعانيه الدولة المرابطية من مؤامرات وفتن داخلية ؛ إذ نرى الرسالة تشير إلى نجاح صاحب فاس فى إخماد نيران فتنة أشعلها محمد بن تميم الذى وصف فى الرسالة بـ « الخائن الشقىّ ، والسفيه الغوىّ ، الذى لم تُحمد منه شيمة ، ولا استقلّت به فطرة سليمة ، ولا فارقته فى المبدإ وتدرجه فى المنشإ صفات ممقوتة ذميمة » . وتثنى الرسالة على صنيع صاحب فاس حين اعتقل ابن تميم قبل أن يفعل فعلته الآثمة : « وقد كان ــ أدام الله عزك ــ خليقاً بما فعلته به قبل أن يصنع ما صنعه ، حقيقاً بذلك السطو الحازم وبأمثاله معه » .

وتعدُّ الرسالة رقم (١٣) من الوثائق التاريخية الهامة ، وقد كتبها الوزير الكاتب أبو بكر بن عبد العزيز المعروف بابن المرخى عن أهل قرطبة إلى أمير المسلمين علىّ بن يوسف ، وفيها وصف دقيق لإحدى الغزوات المباغتة التى شنّها النصارى عليهم ، ونجم عنها خسائر فادحة فى صفوف المسلمين ، وتسجّل الرسالة أحداث هذه الغارة تسجيلاً دقيقاً فتذكر أنَّ ميرة قلعة رباح وموره نفدت وأوعب العسكر فى نقلها ، ونهضوا بما تحملوا من ثقلها ومعهم واليهم أبو محمد (؟) ، واغتنم النصارى فرصة انشغال العسكر فى جلب الميرة وابتعادهم عن المدينة ليباغتوا أهل قرطبة العزل ، وتصف الرسالة ماأصاب الناس من فزع حين علموا بدخول النصارى ديارهم فتقول : « فأخذ بنا الروع فى كل طريق ، وخفنا على كل جانب من جوانب المسلمين وفريق ، وتوجه من بقى فى البلد من أهل الفلاحة وغيرهم للإنذار وتبليغ الأقطار وإعلام أهل البوادى بنبأ هذا العسكر الجرّار » وتذكر الرسالة أن أهل قرطبة استنجدوا بالأمير أبى زكريا يحيى بن إسحق ،

ولكنَّ النصارى سبقوه إليهم ، وتتبع الرسالة مسيرة النصارى ، حيث « أغاروا من الوادى الكبير إلى القليعة إلى لورة إلى فرنجولش واجتازوا الوادى إلى يلمّة وبعض نواحي استجة » ، وتضيف الرسالة أنّ أهل هذه النواحى « لم يطيعوا النذير ولا صدقوا التحذير بل غلبهم ضعف المقدرة عن الانتقال ، وكثرة العيال والأطفال ، فامتلأت بالسبى الحبال ، وأسلمت من فيها السهول ولم تعصمهم الجبال ، وأخذوا من النهاب والأمتاع ، والحافر والكراع ما لا يدركه الإحصاء ، ولا يملكه الاستقصاء ، وبقوا فى ذلك يومين لا يجدون من يردُّ امتدادهم ولا من يرمى سوادهم ، حتى غلب أكفهم الانتهاب ، وضاق بهم المشى والذهاب » .

وتضيف الرسالة أنَّ الخبر اتصل بالوالى أبى محمد وهو فى (كركى) فقفل على الفور من سفره وأخذ الأهبة لقتال النصارى ، كما خفّ لنجدته والى إشبيلية بعد أن اتصل به خبر العدو ، واجتمع الواليان ونفر المسلمون من كل مكان خفافاً وثقالا ، وأخذوا يتعقبون النصارى حتى أدركوهم ، والتقى الجمعان ، ولكنَّ الغلبة كانت للأعداء « فيالله وياللأمير المسلمين من دماء سفكت ، وحرمات هتكت ، وأنفة فى دين الله وضعت وتُركت ، وجماعة من المسلمين غلبت بيد الباطل وملكت » ، وتسجل الرسالة المشهد الأخير للمعركة حين قوّض الكافر مجمعه على أعين الناس وأسرى ، ومعه الدواب والأسرى ، وقد أهملهم أهل الإسلام ، ولم ترع فيهم ذمّة محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتُركت البقر والغنم سدى ، واغتالتها يدُ الرّدى ، وانتهبتها أهل الحصون كما ينتهب المغنم المباح .. وكان للأسرى عند رحيلهم عجّة فى الأصفاد ، وضجّة فى الأغلال والأقياد ، تصرع الجماد ، وتفجّر الأحجار الصلاد ... » .

ويشكو أهل قرطبة فى رسالتهم من الموقف السلبى لأهل أشبيلية « فإنهم أظهروا المباعدة ، وأقلّوا المساعدة . » .

والرسالة — كما نرى — وثيقة بالغة الأهمية لأنها ترصد أحداثاً تاريخية

صممت عنها المصادر ، ويفهم من مراجعة أمير المسلمين على بن يوسف على هذه الرسالة أن الأحداث المشار إليها جرت فى جمادى الآخرة سنة ٥٣٥ هـ [١٦] .

وقد أكّد أمير المسلمين فى مراجعته لهم على ماتركته هذه الأخبار فى نفسه من حزن وألم « فإنَّ كتابكم الأثير وافانا مضّمنا من سوائر العدو ـــ قصمه الله ـــ فى المسلمين ـــ عصمهم الله ـــ ما أغصّ وأشرق ، وأمضّ وأرّق ، وجمع علينا من هومكم وعمومكم ماانتشر وافترق » .

ويعنى أمير المسلمين فى ردّه لأهل قرطبة بمواساتهم والتخفيف عنهم معتمداً ڤ ذلك على الموروث الدينى ، فما أصابهم مقدّر عليهم ، ويعدهم بالانتقام من الأعداء « وحقَّ علينا وقد استصرختم بنا أن نلّبى بمشيئة الله نداءكم ، ونجيب على الصعبة والذلول دعاءكم ، ونلقى دونكم بالأموال والأنفس أعداءكم » .

وهذه لرسائل ـــ كما ذكرت من قبل ـــ ذات قيمة تاريخية كبرى ؛ فهى تضيف إلى التاريخ المرابطى أبعاداً جديدة ، وتقفنا على أحداث وأخبار نفتقدها فى المصادر التاريخية .

أما من الناحية الأدبية فهى تؤكد التقاليد التى كانت تسير عليها الكتابة الديوانية فى عصر المرابطين ، ومن حيث بناء الرسالة فهى تبدأ بقوله : « كتابنا » تتبعها بعض الأدعية القصيرة للمخاطَب يتلوها ذكر المكان الذى كُتبت منه وتاريخ كتابتها ، وإن كانت بعض الرسائل تخلو من ذكر التاريخ ، ونمثل لهذه المراسم بما ورد فى رسالة أبى مروان بن أبى الخصال التى كتبها عن على بن يوسف إلى أهل بلنسية ، وقد استهلّها بقوله [١٧] : « كتابنا ـــ كتب الله لكم تمهُّد الأحوال والجهات ، وأمدّكم بسوابغ

(١٦) أنظر الرسالة رقم (١٤) ص ٩٤ وقد راجعت أحداث هذه السنة فى البيان المغرب فلم أجد أية إشارات إليها .

(١٧) الرسالة رقم (٢٧)

الأجمال والهبات ، ويّسركم للأعمال الصالحات والمساعى المُرضيات ، من حضرة مراكش ــ حرسها الله ــ لأربع خلون لجمادى الأولى سنة أربع وعشرين وخمسمائة » .

وينتقل الكاتب من هذه الديباجة إلى موضوعه فيعرضه عرضاً مباشراً ثم ينهى رسالته كما بدأها ببعض الأدعية ويردفها بتحية قصيرة كقول أبى مروان ابن أبى الخصال فى الرسالة ذاتها : « عرَّفنا الله وإياكم ميامين هذا التقليد ، وجعله كافلاً بالأمر السعيد ، والصُّنع الحميد ، إنه المنعم الكريم ، والسلام » .

أما من حيث الأسلوب فهو يجمع بين الوضوح والتركيز ، ويعتمد على الجمل المسجوعة كقول أبى الخصال فى رسالته التى كتبها إلى العسكرية ببلنسية يعلمهم بولاية يحيى بن غانية : [١٨] « وأنتم مع ذلك بحكمه مصرّفون ، وبالتزام طاعته مكلّفون ، وإلى رايته مجتمعون ، وتحتها متألفون ، فإذا أمر فأتمروا ، وإذا رمى بكم جانباً فابتدروا ، وإذا أوردكم فردوا ، وإذا أصدركم فاصدروا » .

ولا نجد فى هذه الرسائل جنوحاً إلى التصنُّع ، أو ميلاً إلى التأنق اللفظى وتلك سمة تنتظم الرسالة الديوانية المرابطية وتميزها عن مثيلتها فى المشرق بل وفى العصورالتى تلتها فى المغرب « وفى ذلك مظهر لبساطة الدولة المرابطية بالنسبة للموحدّية وما تلاها من الدول المغربية والأندلسية التى نجد فيها كثيراً من التكلف فى الأسلوب ، وإسهاباً فى ذكر ألقاب السلطان الموجه للرسالة أو المتلقى لها » [١٩] .

ومن ناحية أخرى فإن هذه الرسائل تؤكد ازدهار النثر الديوانى فى عصر المرابطين حيث حرص ملوكهم على استدعاء كُتّاب الأندلس البارزين « وقد

(١٨) الرسالة رقم (٢٨)

(١٩) وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، د . محمود على مكى فصلة من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ــ المجلدان السابع والثامن ــ مدريد ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ص ١٢١

كانت استعانة المرابطين بهؤلاء الكُتّاب من أجلى مظاهر توثق الصلات بين الأندلس والمغرب والتقريب بين ثقافتى البلدين » [٢٠] .

وهناك خاصية أخرى تنتظم هذه الرسائل وهى هيمنة الجو الدينى عليها ؛ فالكتاب يوشون أسلوبهم بآيات القرآن الكريم ، ويصدرون فى أفكارهم ومعانيهم عن تصور دينى واضح ، وهم — فى ذلك — يعكسون الأساس الدينى الذى ارتكزت عليه الدولة المرابطية فى قيامها ، وحرصت على أن تلتزم به فى سياستها ونهجها .

الرسـائل الإخــوانية :

ويحتفظ المجموع بجملة من الرسائل الإخوانية المتبادلة بين الكُتَّاب ، وتمتاز هذه الرسائل بتنوع موضوعاتها ، كإظهار المودة والتشوق والتهنئة والعتاب وغير ذلك .

ومن أمثلتها رسالة أبى مروان بن أبى الخصال التى كتبها إلى القاضى أبى مروان بن عبد الملك (رقم ٢٩) ، وهى مراجعة لرسالة كتبها القاضى أبو مروان يعاتبه فيها على إغباب المراسلة ، ويعتذر أبو مروان بن أبى الخصال لصاحبه القاضى عن ذلك متعللاً بانشغاله وما يتعرض له من أحداث جسام وأحوال مضطربة مما يتضح فى قوله[٢١] : « إنَّ السيد الأعزَّ — أعزّه الله — ينبغى له إذا ملك أن يسجح فى القول ، ويبسط فى التجاوز يد الطول ، ويتناول فى إغبابنا مايرانا به من أحوال لا تضبط ، وتقلُّبنا فيها بين مزار يشحط ، وأمور لاتدخل تحت مايشترط ، فنحن ننجذب فى أعنّة الأقدار ، ونتصرَّف كيفما تصرَّفت بنا غُربات الدّار ، ثم إذا نحن ألممنا يوماً بالخيام ، وحططنا للمقام ، ووصلنا شدَّة الأيام ، وردْنا على مزدحمات الأشغال ،

---

(٢٠) المرجع نفسه : ١٢١

(٢١) ص ١٣٨

ورمينا عن مجاشم العمل بفادحات الأثقال ، والعوائق عن اللوازم لاخفاء بمكانها ، ولا افتقار بنا — مع وضوحها — إلى بيانها » .

وتدور الرسالة رقم (٦) حول إظهار المودة ويكثر كاتبها من الثناء على صاحبه لما أسداه إليه من صنيع ، وما طبع عليه من وفاء وبرٍّ ومودّة مما يتمثل فى قوله : « لاجرم — أعزّ الله السيّدَ الأمجد ، منجدى ويدى ، ومقيم أودى ، أن أعمر بشكره الزمان ، وأحدّ ذلك اللسان والبيان ، وأضاهى به صوحان وسحبان ، وقد جلى لى ودُّه عروساً ، وأوضح سبلَ السّيادة بعد أن عفت دروساً ، ومنح درُّه البرّ وقد حشكت الأخلاف ، ووصل سببُ التأنيس حتى أوحشت الأخلاف ، واتفق مع نفسه على الوفاء بحديث العهد لمّا عمّ قديمه الإخلاف ، فوفى وقد خان الزّمان ، ووفّى وقد نقص الميزان .. » .

ويحتفظ المجموع كذلك برسالتين من أشهر الرسائل الإخوانية فى النثر الأندلسى ، وهما الرسالتان المتبادلتان بين عبد المجيد بن عبدون [رقم ٣٣] وأبى عبد الله بن أبى الخصال [رقم ٣٤]. وهما من أبرز أعلام النثر فى عصرهما بل وفى الأندلس عامة ، وقد حرص كلاهما على أن يجعل رسالته معرضاً لإظهار ثقافته ومهارته فى الكتابة ، وكان ابن عبدون هو البادىء بالخطاب ، وممّا جاء فى رسالته[٢٢] : « وأنا ما قصدت فيما خطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتداء ، وإنّما سلكتُ سبيل الاقتداء ، واتّبعتُ دليلَ الاهتداء ، وأردت أن أستنير بأضوائك ، وأستثير من سمائك ، نجوماً تهدينى فى غسق الظلام ، أو رجوماً تعدينى على مُسترق سمع الكلام ، فإن سمح عمادى بالجواب ورجعه ، غالطت فيما حصل منه لدىّ ، ووصل إلىّ : الحمامَ فى سجعه ، والأنصار فى حسّانها ، والإعصار فى نيسانها ، وطيّئاً فى وليدها وحبيبها ، وسعداً فى خالدها وشبيبها ، وخرقتُ بما أعار من

(٢٢) ص ١٧٣

مراح ، وأثار من ارتياح ، جيب مخارق طرباً ، ولم أدع لأبى العتاهية فى ثقيله المغرب ، ولا فى خفيفه المطرب ، أرباً ، وطويت كشحاً عن أغاريد عبيد ، وأضربت صفحاً عن أناشيد لبيد ... » .

وقد راجعه أبو عبد الله بن أبى الخصال برسالة تُسمّى « الحولية »[٢٣] ، وقد وصفها عبد الواحد المراكشى بأنها « لم يكتب مثلها فى بابها »[٢٤] وأن كاتبها « أبدع فيها غاية الإبداع »[٢٥] .

وإذا كان ابن عبدون قد جنح فى رسالته إلى التصنُّع ، فإنَّ ابن أبى الخصال قطع شوطاً بعيداً فى ذلك ؛ فعمد إلى التعقيد اللفظى ، والتأنق البديعى ، وأكثر فيها من نثر الشعر ، وتضمين الأمثال ، والتورية بالأسماء ممّا أضفى عليها قدراً كبيراً من الغموض ، وقد لاحظ عبد الواحد المراكشى ذلك فقد وهو فى معرض الثناء عليها : « إنَّ فيها بعض تكلُّف »[٢٦] .

وممّا جاء فيها[٢٧] : « وأنّى لى بمن شُيِّع بنانه بجنان أمّار ، وشُعشع بيانه بلسان ابن عمّار ، ومنطق كوشى اليمنة ، ومنتطق بما شاء من أيدٍ ومُنّة ، فإن أبى ــ وحاشاه ــ إلاّ اعتداء ، وشفت منه ــ وما أراه مسائلنى داء ، وتسدّى لدخيلة ريث ، وتصدّى نحو مخيلة غيث ، فسأتقدّم خطاً وخطلاً ، وأقدم مكرهاً لا بطلاً ، وما كل ماشية برحلِ شملال ، ولا كل ناشئة محلِ انسكابٌ وانهلال ، وأخلف من سحابة ممحل ، صبابةُ منتحل ، غيّر من لبوسها ، وكلّف نفسه ماليس من سوسها ... فإن مطلت فعن عُسْر ، وإن أطلت ففى غير يسر ، وربّ كريم فى الأعزّة مطلول ، وغريمٍ كغريم عزّة ممطول »[٢٨] .

(٢٣) المعجب : ٢٣٤

(٢٤) نفسه : ٢٣٤

(٢٥) نفسه : ٢٣٤

(٢٦) المعجب : ٢٣٤

(٢٧) ص ١٨٢

(٢٨) إشارة إلى قول كثّير عزّة (ديوانه : ١٤٣)

قضى كل ذى دين فوفّى غريمه ... وعزه ممطولٌ معنّى غريمها

وتبدأ الرسائل الإخوانية بمقدمة قصيرة يخلع فيها الكاتب على من يخاطبه من أصحابه بعض الألقاب مثل : « السيد الأمجد » أو « السيد الأوحد » أو « ملاذى الأعصم » أو « عمادى الأعظم » ، يتلوها بعض الأدعية القصيرة ، فإذا كانت الرسالة مراجعة أشار الكاتب إلى ذلك ، وأثنى على كتاب صاحبه وأشاد ببلاغته وفصاحته كقول أبى مروان بن أبى الخصال فى ردّه على القاضى أبى مروان بن عبد الملك(٢٩) : « وقد وردنى كتابه العزيز الذى عذل به فى الإغباب ، وأدار فيه ملح العتاب ، وكساه من رائق الكلام ما أخذ بالمسامع والألباب .... فبورك فى مخبرة السّيد الأجلّ من خطيب صائب البيان ، رقيق حاشية اللسان ، فلقد انتظم المحاسن واللُّمع ، وحاز فى البلاغة المدى الأوسع » . وتُختم الرسالة كذلك ببعض الأدعية مقرونة بالسلام كقوله فى الرسالة ذاتها : « والله يهنئه النُّعمى ، ويبوّئه الجانب الأحمى ، بعزّته ، والسلام » .

وتُمثّل هذه الرسائل الطريقة الفنية المعتمدة فى عصرها ، من حيث الالتزام بالسّجع فى أواخر الفقر والفواصل ، وتوشيتها بالشعر والأمثال ، والتورية بالأسماء ، وتضمين القرآن والحديث ، وكانت هذه العناصر مطلباً يسعى كل كاتب إلى تحقيقها فى رسائله ، إذ كانت مهارته تقاس بمدى أخذه من هذه العناصر وتوظيفه لها ، وتعدُّ رسالتا ابن عبدون [رقم ٣٣] وأبى عبد الله بن أبى الخصال [٣٤] مثالين واضحين لذلك ، كما نجد فى الرسالة [رقم ٦] مثالاً واضحاً كذلك لهذه الطريق ولاسيما التلويح بأسماء الأشخاص من شعراء وغيرهم ؛ فمن ذلك قول كاتبها(٣٠) : « قد وجب — أعزّك الله — أن أشكر شكر الرياض للوابل الفيّاض ، لا بل شكر بارض النبات ، تعارض البيات ، تالله لأقومنّ بكلّ ناد ، مقام قسٍّ فى إياد ، ولأثنينَّ ثناء زهو الوهاد، على مطر العهاد ، لا بل ثناء حسّان على آل

(٢٩) ص ١٣٧
(٣٠) ص ٧٢

غسّان ، وشاعر ودّان على سليمان ، وذبيان على النعمان ، ولأعارض بأمداحه إحسان ابن أبى سليمان ، ما اختلف الملوان ، وتعاقب الحديدان ، **ولأجزينّ هذا الندب الكريم بوجهٍ أنضر من الروض الباسم ، حين أجزى** الملِم جزاء عدىّ بن حاتم » .

الرسـائل الوصفيـة :

وفى المجموع خمس رسائل تدور حول موضوعات وصفية[٣١] فمن ذلك رسالة ابن صاحب الصلاة فى وصف جامع قرطبة [رقم ٤] ، وهى تنمّ عن قدرة عالية على الوصف ومهارة فى استقصاء الجزئيات ، وبراعة فى التشبيه والتصوير ، وقد كتبها حين شخص إلى قرطبة لحضور ليلة القدر والجامع « قد كسى بردة الازدهاء ، وجلى فى معرض البهاء ، وكأنّ شرفاته فلول فى سنان ، أو أشر فى أسنان ، وكأنمّا على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حُلل .... وللذبال تألُّق كنضنضة الحيّات ، أو إشارة السبّابات فى التحيّات » ويعنى ابن صاحب الصلاة بوصف أجواء المسجد حيث « الطّيب تفغم أفواحه ، وتتنسّم أرواحه ، وقتار الألنجوج والنّد ، يسترجع من روْح الحياة ماندّ » كما يعنى بتصوير حركة الناس داخل المسجد فى تلك الليلة المباركة ، فهم « بين ركّع وسُجّد ، وأيقاظٍ وهُجّد ، ومزدحم على الرّقاب يتخطّاها ، ومقتحمٍ على الظهور يتمطّاها » ويتتبعهم بعد أن انتهت الصلاة حيث « تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا بالأثواب ، وتساقوا بالأكواب » ، كما يرصد ابن صاحب الصلاة صوراً أخرى ، بعضها للعلماء وهم يتدارسون حيث « تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق » ، وينقل صورة أخرى للقومة وهم « يجهدون فى دفع الضرر ، ويعمدون الى قرع العمد بالدّرر » .

وعلى هدا النحو من الوصف والاستقصاء يمضى ابن صاحب الصلاة فى

---

(٣١) [illegible] رقم (٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٥ ، ٢٣)

رسالته حتى لتبدو أشبه بلوحة تصويرية تعجُّ بالحركة والحياة .

وهناك ثلاث رسائل تدور حول موضوع واحد هو « وصف الغيث » [٣٢] وقد جعله الكتّاب مجالاً لإظهار براعتهم فى الوصف ، وقدرتهم على التصوير والإبداع ، فمن ذلك رسالة أبى بكر بن عبد العزيز [رقم ١٥] التى يصف فيها غيثاً إثر جدب حيث استهلّت مع الصباح غمامة محمّلة بالمطر « تمشى من الثقل هوناً ، وتستدعى من الريح عوناً » وطفقت الغمامة تدرُّ رويداً رويداً حتّى « انخرق جيبها ، وانبعق سيبها ، فصار الطّلّ وبلاً ، وعاد الخيط حبلاً » ، ويتأنق الكتاب فى رسم صوره وهو يصف انهمار المطر ، « فالسحاب يتعلّق ، والبرق يتألّق ، والرعد يرتجس ، والقطر ينبجس ، من غروب هامعة ، وجفون دامعة ، تبكى بلا حزن ، وتجرى على وزن ، والنُّقطُ تتوافى طباقاً ، وتتبارى سباقاً ، فيرتدف السابق بالمصلّى ، ويتصل التابع بالمولى » .

ويأتى المشهد الأخير فى تلك اللوحة التصويرية حيث نشاهد الأرض بعد أن أخذت ريَّها من الغيث ، وقضت منه وطرها « وقد أخرجت زخارفها ، ونشرت مطارفها ، وتجلّت رباها للعيان ، وتزيّنت بزىّ القيان » ويصف أثر هذا الغيث الذى جاء إثر جدب فبعث الحياة فى المخلوقات « وبسط الشحيح يده بالإنفاق ، وبعث صفوة الإرفاق ، وهان على المُملق طوْل السنين ، وعول البنين ، وأصبح الزمان جديداً ، ورأى الزارع سروراً لتمام أمله ، ونجاح عمله ، وربعت الشاء ، وكثرت النّعم والآلاء ، وزادت الوحش فى عددها ، وعادت الطّير إلى شَدْوها » .

ويتناول الكاتب أبو مروان بن زكريا أيضاً موضوع وصف المطر ولكن في إطار قصصى ، وذلك فى الرسالة رقم [٧] التى وجهها فى الغالب إلى أبى مروان بن أبى الخصال لأننا نراه يراجعه برسالة مشابهة (الرسالة رقم ٢٣) ، ويمهِّد أبو مروان بن زكريا لموضوعه حيث فارق صاحبه تلك الليلة

(٣٢) انظر الرسائل رقم (رقم ٧ ، ١٥ ، ٢٣)

« والجوّ أكلف ، والسحاب أوطف ، ومخايل المطر بادية ، ورعود الغمام حادية » ، ويصف كيف جدَّ فى السير حتى قطع وادى القلعة « وقد أترع كل مسيل وتلعة » ، وحين عجزت المطىّ عن السير والمطر ينهمر بغزارة طرق منزلاً فاستقبله فتى « محض البشر ، طلق المحيّا ، عليه زى البوادى وعزّتها ، وكرم نفوسها وسجيّتها » ، وأخذ الكاتب يواصل طريقه بعد أن هدأ الغيث ، ولكن السماء أخذت تمطر مرة أخرى ، فطفق يغذّ السير إلى أن وصل إلى وادى المليحة « وقد تَدانت جباله السود ، واشتبكت حباله القود ، ومزاق الودق تنسرب ، وشجاع البرق يضطرب ، ومدافع السّيل تختطب ، وقد بلغ الزُّبى ، وصيّر من كثبانه الرُّبى » ولا يجد الكاتب أمامه من مخرج إلا أن يأوى إلى ركن الجبل ، ويعتصم بكهف ضيّق إلى أن أجنّه ورفاقه المساء ، وظلوا كذلك دون طعام إلى أن أقلع المطر بعد أنّ مضى من الليل هزيع ، وحان للقمر طلوع ، وباتوا ليلتهم بوادٍ « قد أوشمت ثمره ، والتفت شجره » فلما أصبح الصباح واصل رحلته حتّى بلغ منزله .

ويراجعه أبو مروان بن أبى الخصال برسالة مماثلة (رقم ٢٣) يصف فيها هطول المطر بعد أن عانت الأرض من الجدب ، وبعد أن لبست الأرض حللها القشيبة وفاح عرارها ونمت أزهارها ، أصابها سيل جارف وافى عبابه يلتطم ، « وأقبلت غوارب الموج ترتكم ، وتدارك حتّى مجّته الأشراج ، وضاقت عن تدافعه الفجاج ، ومارٰاعنا إلّا السّرج طافياً فى آذيّه ، والعصم غرق فى آتيّه » ، ويصف ماأحدثه السّيل من أضرار بالغة فى المدينة حيث تهدّمت البيوت على سكانها ، وغرقت الأرض فيما يشبه الطوفان ، « فأنت إن أطّلعت لم تر إلّا رسوماً ، وربْعا بالخراب موسوماً ، تنكره بعد العرفان ، وتستعظم فيه حادثة الزّمان ، فكم شهيد تحت ذلك الهدم ، وملحود بين ذلك الردم ، قد ذاق الموت قبل ذوقه ، وخرَّ عليه السّقف من فوقه ، ففى كلّ دار رنّة ، وعند كل جدار زفرة وأنّة ، ونحن ننتظر الفرج بالصّبر ، ونستدفع بالدّعاء أذى القطر » .

ويمكن أن نلحق بهذا الضرب من الرسائل الوصفية الرسالة [رقم ٣] التى كتبها ابن صاحب الصلاة إلى بعض إخوانه يوصيه بالتحفظ بكتبه من الفأر ؛ فالرسالة كلها تقريباً تدور حول وصف قط يتمنى الكاتب أن يكون عند صاحبه ليمنع الفأر عن قرض كتبه والعيث فيها ، وهو وصف طريف أضفى فيه الكاتب الأوصاف المثالية على القط ، وحرص على أن يتتبع كل جزئية ، ويقف عند كل عضو من أعضائه ، فهو له رأس كجمع الكفّ ، وأذنان قد قامتا على صفّ ، ذواتا لطافة ودقّة ، وسباطة ورقة ... ومقلة كأنها مقتطعة من الزجاج المجزّع ، وكأنّه ناظرها من عيون الباقلاء منتزع ، قد استطال الشعر حول أشداقه ، وفوق أحداقه .. له ناب كحدِّ المطرد ، ولسان كظهر المبرد ، وأنف أحنس ، وعنق أوقص ... يقعى إقعاء الأسد إذا جلس ، وثيب وثبة النمر إذا اختلس ... » [٣٣] .

ويمضى الكاتب فى خلع أوصافه المثالية على القط كوصفه بالفراسة وحدة النظر وقوّة الشمّ والذكاء فى تتبع مواطن الفئران ومخابئها ، « فإذا تشوّفت الفارة من حجرها ، وأشرفت بصدرها ونحرها ، دبّ إليها دبيب الصّل ، وامتدَّ نحوها امتداد الظّل ، ووثب فى الحين عليها ، وجلب الحين إليها » .

والرسالة كما نرى جديدة فى موضوعها ، طريفة فى أوصافها ، يغلب عليها الهزل والدعابة ، وهى تؤكد قدرة كاتبها على التفنُّن فى الوصف ، ويبدو أن الرسالة حظيت بإعجاب أصحاب المجاميع لأننا نجد صاحب مجموعة « رسائل أندلسية » [٣٤] قد أثبتها كذلك فى مجموعه .

ونلاحظ أنَّ أغلب هذه الرسائل الوصفية لم تأت مستقلة بذاتها ، وإنّما جاءت فى إطار الرسائل الإخوانية ، ولذلك حرص أصحابها على أن يجعلوها مجالاً لإظهار براعتهم فى الوصف ، وتفنُّنهم فى الكتابة ، وقد سلكوا فى ذلك طريقاً مغايرة لتلك التى سلكوها فى رسائلهم الإخوانية ، فلم يجنحوا فيها

---

(٣٣) ص ٦٠ — ٦١

(٣٤) رسائل أندلسية : ٧١

إلى التصنُّع ، ولم يهتموا بتوشية أسلوبهم بالشعر أو بتضمين الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأمثال أو بالتلويح بالأسماء والحوادث والإشارات ، وإنما قامت طريقتهم على التصوير والتفنُّن فى الوصف ، والبحث عن الصور الطريفة ، وكان « التشبيه » هو العنصر الأساسى الذى اعتمدوا عليه فى تركيب صورهم وتشكيلها ، فجاءت هذه الرسائل أشبه بلوحات فنية بسيطة الألوان ، خالية من الأصباغ ، لا غموض فيها ولا تعقيد .

الرسائل الاجتماعية :

يضم المجموع بعض الرسائل التى تتناول بعض الظواهر الاجتماعية ، فمن ذلك الرسالة رقم (١) التى كتبها الفقية المشاور أبو محمد عبد القوى فى نكاح ابنته إلى أحد الفقهاء ، وهى رسالة طريفة فى موضوعها ومضمونها ؛ وهى تنطلق من فكرة اجتماعية مؤداها أن المبادرة بتزويج البنات إحصان لهنَّ ، وصيانة لأعراضهنَّ ، ويعرض الكاتب لوضع المرأة فى الجاهلية حيث كان الآباء يدسون بناتهن فى التراب خوف الفتنة ، وقد جاء الإسلام فأعلى من شأن المرأة ، ويرى الكاتب أن إقدامه على أن يخطب لابنته إنما هو اقتداء بالسلف الصالح ، فقد « خطب الصالحون لبناتهم ، وتكلّفوا ذلك ليلاتهم ، ولم يروا فيه من نقص ولاشين » ويضرب أمثلة لذلك ، فقد عرض شُعيب على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه ، وعرض عمر بن الخطاب على أبى بكر أن يزوجه حفصة ، ويختم رسالته بدعوة من خطبه لابنته إلى زيارته لإتمام الخطبة .

ويتصل بهذا الضرب من الرسائل ماكتبه صاحب الرسالة السابقة يدعو أصدقاءه إلى المشاركة فى الاحتفال بإعذار بنيه [الرسالة رقم ٢] « فقد شرعت لهم كرامة ، وتركها — من غير عذر — يقدح فى الشهادة والإمامة ، وقد أمر رسول الله — ﷺ — أن يُندب لذلك ويُدعى ، وتعيّن

ذلك أدباً وشرعاً ، وقد دعا لذلك أفاضل السلف ، وجلّة الصحابة » [٣٥] .

ويلحق بهذا الضرب كذلك الرسالة [رقم ١٦] التى كتبها الوزير الكاتب أبو بكر بن عبد العزيز إلى صاحب مدينة مالقة ، وهى تشير إلى تفشى آفة اللواط فى بعض فئات المجتمع الأندلسى ، ومما يؤكد ذلك قوله : « ولاشك أنّ بذلك القطر ـــ حماه الله ـــ من يدين بقوم لوط ، ويركب من أسافل التين أعالى البلّوط ، ويريد أن يرتشف لماه ، ويستبيح حماه ، ويملأ الفارغ من جلده ، ويسميه باسم جدّه ، ويفضّله على ذات الشّنف والقرط ، ويبدأ به قبل ربّه النّصيف والمرط »[٣٦] .

موضوعـات أخـرى :

وفى المجموع رسائل تتناول موضوعات أخرى ، فمن ذلك زرزوريتان لأبى بكر بن عبد العزيز المعروف بابن المرخى (١١ ـــ ١٢) والزرزوريات لون طريف من الرسائل نشأ فى عصر المرابطين وكان أول من أثاره أبو الحسين بن سراج ، وقد قلّده بعض معاصريه أمثال ابن الجد وابن عبد الغفور وأبى عامر الأصيلى وأبى عبد الله بن أبى الخصال وغيرهم[٣٧] .

وكان ابن المرخى (ت ٥٣٦ هـ) أحد من اجتذبهم هذا الموضوع ، وقد عالجه بأسلوبه ، وأضفى عليه من روحه ، وغلبت عليه روح الدعابة والهزل وهو يصف ذلك الشخص الملقب بالزرزور ويشاكل بينه وبين الطائر المعروف بهذا الاسم ، ويقارن بينهما فيقول : « وهذا صنف من الطير تقنعه البذور ، ويكفيه المطعم المنزور ، وهذا المتسمّى باسمه لا تشبعه الجزور ، ولاينفع غلّته سيل مهزور » [٣٨].

(٣٥) ص ٥٨

(٣٦) ص ١٠٠

(٣٧) انظر كتابنا عن : الزرزوريات ـــ نشأتها وتطورها ـــ ص ١٥ ومابعدها

(٣٨) ص ٨٦

وشخصية الزرزور عند ابن المرخى تشبه فى أوصافها شخصية بطل المقامات من حيث اصطناع الأدب حرفة للتكسب ، وهو فى زرزوريتيه يميل إلى الوضوح فى الفكرة والأسلوب ويبدو أقل استخداماً للرمز ممن سبقوه [٣٩] .

ويحتفظ المجموع بأربع رسائل للعالم اللغوى المعروف أبى الحسن بن سيدة صاحب « المحكم » و « المخصّص » وكان قد انقطع إلى الأمير مجاهد العامرى صاحب دانية (ت ٤٣٦ هـ) وكان كلاهما شعوبياً يفضّل العجم على العرب [٤٠] ، ولكنَّ رتبته تأخّرت فى عهد إقبال الدولة الذى تولى حكم دانية بعد وفاة أبيه الأمير مجاهد ، وساءت العلاقة بينهما حتى أنّ إقبال الدولة أهدر دمه ولم تشر المصادر إلى الملابسات التى دفعته إلى ذلك لأن أخباره نزرة ولا تتناسب مع شهرته اللغوية ، وإن كان فى سلوكه ما يدفع إلى ذلك ، فقد كان شديد الإعجاب بنفسه ، سيء الظن بالناس ، حادّ اللسان ، سريع الغضب ، وكان يرى أنه يعيش « بين أناس لولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية ، ولولا الحس ما حكمت عليهم بالحيوانية » [٤١].

ومهما يكن من أمر ، فقد اضطر ابن سيدة إلى الفرار من دانية والاختفاء ببعض الأعمال المجاورة ، وقد كتب الرسالة الأولى (رقم ١٧) يستعطف فيها إقبال الدولة [٤٢] ، ويظهر ولاءه وإخلاصه ، ويؤكد له أن اتهامه لا يعدو أن يكون ضرباً من البهتان . ومما جاء فى رسالته :[٤٣] « وكيف يقبل إقبال الدولة قولاً وقد وضح إليه وجه بهتانه ، ولم يثبت بين يديه قديم بُرهانه ، فقد علم ــ أبقاه الله ــ أنّى لم أزل محسوباً فى أُسرته ، ومحسوباً فى ذلك الأوان إلى موالاته ونصرته » ، ويدعوه إلى التأسى بأبيه

(٣٩) الزرزوريات ــ نشأتها وتطورها ٠ ٢٢

(٤٠) لسان الميزان ٤ : ٢٠٥

(٤١) المحكم : ١ : ١٦ ، الحركة اللغوية فى الأندلس : ٣٥٥

(٤٢) وله شعر فى استعطافه أيضاً (أنظر : مطمح الأنفس : ٦٠)

(٤٣) ص ١٠٤

الأمير مجاهد الذى ماأراق دماً إلّا فى حق « وقد أبت الطبيعة كلّ الإباء ، أن تجرى للأبناء إلّا على طريق الآباء » .

أما الرسالة الثانية (رقم ١٨) فيبدو من مضمونها أنها سابقة على الرسالة الأولى ، إذ نراه يهنىء فيها إقبال الدولة بالولاية ، ويعزيه بوفاة أبيه ، ومما جاء فيها : « غير خفّى ـــ أبقاك الله ـــ أنّ التهانى لا تحتمل التلوّم والتوانى ، فإن ذلك مما يذهب غضارتها ، ويذيب نضارتها ، ويسلب رونقها ، ويشيب أوان شبابها مفرقها ، إلا أن يجرى على مذهبك فى الجمع بين حالتين ، وإراحة نفسك من تعيين فيصل بين شيئين : بين تهنئة بإرادة الملك ، وتعزية بحلول دارة الهُلْك » .

ويؤكد فى الرسالة (رقم ١٩) ولاءه لأستاذه ويخاطبه بمثل قوله :(٤٤) « ومهما كان الدّهر يرضى أو يغضب ، والدار تنأى أو تصقب ، فأنا كما عهدت ، وسيّان غبت أو شهدت ، أجنيك غرس الإخاء غضّاً ، وأسقيك كأس الثناء محضاً » .

ويصدر فى رسالته الرابعة عن إحساس بالخوف من الزمان ، والخشية من عدم بلوغ آماله ممّا يتمثل فى قوله (٤٥) : « وقلتُ : حسن صبرٍ أياعليّ ، فقد أنال بعد السُّرى النّعيّ ، ومتى قابلك الزمن إلّا بحبور مشوب ، وسرور مكذوب .. أيها السّارى لا تفرحك الدّلجة حتى تُصبح ، ولا تغرّك البلجة حتّى تسفر عن غرّتها وتفصح ، فإنّ الهلال قد يخدع السراة ، والآمال قد تطْمع الألبّاء السّراة ، وهل أعلم بالزّمن ممّن شقى من كربه بالصّرف ، ورمى من خطوبه بالصرف بعد الصّرف » .

وعلى أية حال فإن فى أخباره ما يشير إلى عفو إقبال الدولة عنه (٤٦) .

وإذا كانت رسائل ابن سيدة تستمد أهميتها من كونها تلقى بعض الأضواء

(٤٤) ص ١٠٦

(٤٥) ص ١١١

(٤٦) مطمح الأنفس : ٦٠

على جوانب غامضة من حياته ، فإنّ أهميتها تتمثل أيضاً فى كونها تقدّم ابن سيدة فى صورة الكاتب المترسّل ــ لا العالم اللغوى الشهير ــ ولعل هذا ماأغرى صاحب المجموع بإثباتها بالرغم من أنها تكاد تكون المثال الوحيد الذى شذّ زمنياً عن الرسائل الأخرى التى تنتسب كلها إلى عصر المرابطين .

واللافت حقاً أنّ ابن سيدة كتب رسائله بأسلوب الأديب المتمكّن الذى يمتلك أدوات الكتابة ، ويصرفها كيفما شاء ، ولذلك جاء أسلوبه واضحاً جليّا لا أثر فيه لتقعُّر لغوى أو تعقيد لفظى ، كما عكست لغته وصورة روح الفنان لا اللغوّى .

ويبقى من رسائل المجموع الجديرة بالإشارة رسالتان هامتان ، وهما آخر رسالتين فى المجموع (رقم ٣٥ ، ٣٦) وترجع أهميتهما إلى كونهما تتناولان بعض القضايا النقدية المتصلة بالأسلوب من خلال الموازنة بين كاتبين مشرقيين من كُتّاب القرن الرابع الهجرى هما بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ هـ) ، وأبى إسحاق الصّابى (ت ٣٨٤ هـ) . أما صاحب الرسالة الأولى (رقم ٣٥) فهو الوزير الكاتب أبو محمد بن القاسم الفهرى ، ويتضح من العبارة التى صُدِّرت بها الرسالة أنها كُتبت استجابة لرغبة بعض من سأله فى ذلك ، مما يدل على أن موضوعها كان من القضايا المثارة فى الأوساط الأدبية آنذاك ، وقد أكّد كاتبها على أن بديع الزمان والصّابى هما « فارسا الحلبة بالإجماع ، وإماما القوم فى حسن الاختراع » ولكنه مال إلى تفضيل بديع الزمان وأقام حكمه على أساس أنّ « البديع إذا وصف رصف ، والصّابى إذا رام مرامه دلف فى خطوه إليه ورسف ، وشتّان بين الكلام المطبوع ، والمنمّق المصنوع » ، ومن ثم فهو يقدّم بديع الزمان على الصابى لأن مبانى كلامه سلمت من التكلف ، ولأنه يمتاز بـ « سماحة الطبع » و « رجاحة الوضع » .

وقد ردَّ أبو عبد الله بن أبى الخصال على رسالة ابن القاسم القصيرة برسالة طويلة [رقم ٣٦] خالفه فيها الرأى ، ومال إلى ترجيح أبى إسحاق الصّابى لأنه يرى أنه لم يحد عن طريقة العرب فى الكتابة على نحو ما صنع بديع الزمان الذى كلف بالبديع ، وجنح إلى التصنُّع .

وما من ريب فى أنَّ هاتين الرسالتين تمثلان أهمية كبيرة فى التأريخ للنثر والنقد فى الأندلس .

مقامتـان مجهولتـان :

وفى هذا المجموع مقامتان تنشران لأول مرّة بعد أن ظلّتا مجهولتين أمداً طويلاً . أمّا المقامة الأولى فهى المقامة القرطبية وعنوانها « ميزان الأعيان بحكم الزمان » وهى مجهولة المؤلف ، واكتفى صاحبها بأن يوقّعها بهذه العبارة : « إنشاء فلان بن فلان » ، وتدور أحداث هذه المقامة فى مدينة قرطبة فى القرن السادس الهجرى وتتناول قضاتها وعلماءها وأدباءها بالسّب والطعن والتجريح ، وتبدأ بحديث للراوية « فلان بن فلان » يذكر فيه أنه قابل فى أثناء سفره « فتى حديث السنّ فى أطمار ، ينقدُ وسامة ، ويتّقد شهامة » ويدور بينهما حوار يسأل الراوية فيه الفتى عن أخبار قرطبة « بعد أن طال بها عهدى ، وحدثت بها الحوادث بعدى » فيقول له الفتى : « أنا ابن بجدتها ، فسل عمّا شئت فيها » ويسأله الراوية عن « قاضيها » ، فيجيبه بقوله : « حوّل القضاء رياسة ، ووسّع الأمور سياسة ، فتألّف الدّهماء ، وكفّ العدد والأعداء ، من رجلٍ له صبابة بالشّر ، لا يصحو عن المطالبة فواقاً ، ولا يُرسل السّاق إلّا ممسكاً ساقاً .. » وعلى هذا النحو تمضى المقامة ، فالراوية يسأل والفتى يجيب إجابات تطعن أهل قرطبة فى أخلاقهم وسيرتهم ، ولم يدع أحداً من كبار علمائها وشيوخها المعاصرين إلّا وتناوله بالتجريح كالشيخ ابن عتّاب ، وأبى الوليد بن طريف والفقيه أبى

عبد الله بن الحاج وأبى الوليد بن عواد وأبى الحسن بن سراج وأبى عبد الله الحضرمى وأبى القاسم بن النخّاس ، وكلهم من علماء قرطبة المشهورين بالقضاء والإقراء والفتيا .

وقد ذكر صاحب المجموع أنّ هذه المقامة نسبت لأبى عبد الله بن أبى الخصال فتبرأ منها ، وفى « ترسله » رسالة كتبها إلى صديقه الوزير الكاتب أبى الحسين بن سراج — وهو أحد من تناولتهم المقامة بالطعن ينفى عن نفسه هذه المقامة ويقول إنها مدسوسة عليه من أحد الحاقدين[٤٧] ، ويقول عنها :[٤٨] « ماهذه المقامة إلا قيامة حشرت الكرام وحاشت ، وماستثنت ولا حاشت . أصابت وأشوت ، وصابت وأخوت ، وعمّت لتخصّ ، وناجت لتعلن وتقص » .

وقد أورد صاحب المجموع رسالة فى نقض هذه المقامة للوزير أبى جعفر ابن أحمد سمّاها « رسالة الانتصار فى الردّ على صاحب المقامة القرطبية »[٤٩] وقد اتهم كاتبها بالكذب والبهتان وتزييف الحقائق والتطاول على العلماء والفقهاء .

وقد وردت رسالة الوزير أبى جعفر فى كتاب « رسائل أندلسية » ولكن ليس بعد المقامة القرطبية وإنّما بعد مقامة أخرى للفتح بن خاقان فى ذمّ شيخه البطليوس ، ممّا جعل بعض الباحثين يظنّون أنّها ردٌّ على مقامة الفتح ، ولكن وجودها فى هذا المجموع بعد المقامة القرطبية يؤكد أنّها ردٌّ عليها فضلاً عن أنّ مضمونها وسياقها يؤكدان ذلك أيضاً إذ نراه يدافع فيها عن القضاة والعلماء والفقهاء ، مما يتضح فى قوله : [٥٠] « إن ذكر العلماء أفحش ، أو وصف الفقهاء أوحش ، أو جلى الأخبار ثلب ، أو تلا الأخبار قلب ؛ فالقضاة عنده خدمة سدنة ، والولاة ظلمة خونة » .

(٤٧) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٤/أ
(٤٨) نفسه : ٧٤/أ
(٤٩) الرسالة رقم ٣١
(٥٠) ص ١٥٨

وهذا الكلام ينصرف إلى المقامة القرطبية لا إلى مقامة الفتح التى تقتصر على هجاء البطليوس وحده .

وقد أسقط صاحب مجموع « رسائل أندلسية » المقامة القرطبية من مجموعه ولم يثبتها لما فيها من فحش على حد تعبيره [٥١] ، ولم يتنبه بعض الباحثين لذلك ، فتصوّروا أنّ مقامة الفتح هى المقامة القرطبية [٥٢] .

أمّا المقامة الثانية التى يحتفظ بها هذا المجموع فهى « المقامة الشلبية » وقد نسبها صاحب المجموع لأبى الوليد بن سيد أمير ، ولكنّ عبارته فى تصدير المقامة توحى بأنه يتشكّك فى هذه النسبة ، وقد أورد ابن الأبار ترجمة لمن يُسمى عبد الله بن سيّد أمير اللخمى ، ذكر فيها أنه من أهل شلب ، وأنه برع فى الحديث والنحو ، وكانت له مشاركة فى علم الطب عرف بها [٥٣] ، ولعله هو صاحب هذه المقامة .

وقد سار فى مقامته على نهج صاحب المقامة القرطبية ، فوقفها على هجاء أعيان شلب وقضاتها وأدبائها ، وأشار فى مقدمتها إلى عنوان المقامة القرطبية فقال : « حدّث سمان بن زمان ، أو أبان بن شيبان ، عن حيّان بن عيّان ، وليس يُعرف ابن من كان ، صاحب فلان بن فلان ، الذى أنشأ « ميزان الأعيان بحكم الزمان .. » .

وتتشابه المقامتان فى بنائهما وأسلوبهما تشابهاً كبيراً وإن كان يبقى للمقامة القرطبية فضل السبق ، وليس بين أيدينا ما يشير إلى أن المقامة الشلبية أحدثت ردود فعل كتلك التى أحدثتها المقامة القرطبية .

---

(٥١) رسائل أندلسية ص ١٠١

(٥٢) أنظر : تاريخ الأدب الأندلسى ــ عصر الطوائف والمرابطين ــ د . إحسان عباس : ٣١٤

(٥٣) التكملة رقم ٢٠٧٥

منهج صاحب المجموع فى اختياراته :

حرص صاحب المجموع على أن تكون اختياراته متنوعة ، فلم يقتصر على لون واحد من الرسائل بل جمع بين ألوان مختلفة ، فهناك الرسائل الديوانية والإخوانية والوصفية والاجتماعية . ولم يقتصر على الرسائل وحدها بل أضاف إليها جنساً نثرياً آخر هو المقامات .

ومن السمات البارزة فى اختياراته سمة « الانتقاء » ، فقد حرص على أن ينتخب رسائل جديدة فى موضوعاتها ، متميزة عن اختيارات الكُتّاب الآخرين ؛ ولذلك لا نجد شيئاً من هذه الرسائل فى المصادر الأندلسية المعروفة كالذخيرة والمغرب والقلائد والنفح وغيرها (باستثناء رسالة ابن صاحب الصلاة فى وصف مسجد قرطبة التى نجدها أيضاً فى نفح الطيب) ، كما يشترك مع صاحب مجموع « رسائل أندلسية » فى رسالتين ، إحداهما رسالة ابن صاحب الصلاة إلى بعض إخوانه يوصيه بالتحفظ بكتبه من الفأر ، والأخرى رسالة الانتصار فى الردّ على المقامة القرطبية للوزير أبى جعفر بن أحمد .

وارتكز صاحب المجموع فى اختياراته على عنصرى « الطرافة » و« الإغراب » ، وهما يتحققان فى كثير من رسائله ، كرسالة الفقيه المشاور أبى محمد عبد القوى فى نكاح ابنته ، وهى رسالة جديدة فى موضوعها ، ورسالة ابن صاحب الصلاة التى يصف فيها القط ، وهى تجمع بين « الطرافة » و « الإغراب » ، وكذلك رسالة أبى مروان بن أبى الخصال فى وصف السّيل وغيرها .

كما كان صاحب المجموع جريئاً فى اختياراته ؛ فقد أثبتت « المقامة القرطبية » التى تورّع صاحب مجموع « رسائل أندلسية » عن إثباتها لما تنطوى عليه من فحش ، وأورد كذلك « المقامة الشلبية » االتى تنحو منحاها فى الطعن والتجريح . كما أثبتت رسالة أبى عبد الله بن أبى الخصال فى

هجاء جند المرابطين ، ومثل هذه الرسائل — فضلاً عن المقامتين — لا نظفر بهما فى أى مصدر آخر .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن أغلب الرسائل الواردة فى هذا المجموع تنتسب إلى عصر المرابطين ، وذلك باستثناء رسائل ابن سيدة ، وهذا يرجّح أن صاحب المجموع ينتمى إلى عصر المرابطين . ولكننا لا نظفر بأية إشارات تميط اللثام عن شخصيته ، وتقوم طريقته على أساس التقديم لكل رسالة بمقدمة قصيرة يذكر فيها اسم منشىء الرسالة ، ويشير إلى غرضها .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ تحليلنا لرسائل هذا المجموع ، ودراستنا لمحتواه ، ورصدنا لما يتضمنه من رسائل تنشر لأول مرة ، كل ذلك يؤكد ما ينطوى عليه من قيمة أدبية وتاريخية ، وما يمثله من أهمية فى مجال النثر الأندلسى .

الورقة الأولى وفيها رسالة الفقيه الفتى أبي محمد عبد الحميد بن أبي الدنيا إلى الشيخ عمر الفتى بن عبد السلام

قال البيضاوي في كتابه المسمى بالغاية القصوى في الفقه بعد ان
منه وقبيل كتاب الطهارة اعلم انني اخذت الفقه عن والدي
عمر وشيوخي ... قاضي القضاة فخر الدين محمد بن الامام صدر الدين
ابي الحسن علي البيضاوي عن الامام مجير الدين محمود بن ابي المبارك
البغدادي عن الامام ابي سعيد منصور بن عمر البزاز عن الامام
حجة الاسلام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي عن امام الحرمين
ابي المعالي عبد الملك بن الشيخ ابي محمد عبد الله بن يوسف الجويني وهو
عن والده عن امام الدنيا ابي بكر بن عبد الله بن احمد القفال
المروزي عن الامام ابي زيد بن احمد المروزي عن الشيخ ابي اسحق
المروزي عن القاضي ابي العباس احمد بن عمر بن سريج عن الامام ابي
القاسم عثمان بن سعيد الانماطي عن الامامين اسمعيل بن يحيى
المزني والربيع بن سليمان المرادي كلاهما عن الشافعي والشافعي
رضي الله عنه عن مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن
عباس وعن امام حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك عن نافع عن
ابن عمر كلاهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

اذا بعدت دياركم وشطت وحال البعد بيننا وبينكم
كتبت لكم سوادا في بياض لانظركم بشيء مثل عيني

نهدي من السلام اتمه ومن الثنا اعمه لحضرة
الولد الصالح سلمه الله تعالى وابقاه وحرسه
وتولاه وجمع الشمل برؤياه في خير
وعافية والفضل منك كذا وكذا

رسالة الغائب من الاولاد

السلام التام والحمد ... لاحقر ... للاهل ...
وان المقصود من احسانكم ...

الورقة الثانية وكتب على صدرها بخط حديث « قطعة من كتاب في الرسائل » .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد عبده الكريم وعلى آله وسلم

كتب الفقيه المشاور أبو محمد عبد الله البوني في نكاح ابنته إلى أحد الفقهاء

أطال الله بقاء الفقيه الأجل الذي أتمتع بإخائه وأنتمي إلى علائه كاملا للأمانة موفيا في نصيحة حق الديانة وإن الإنسان دام الله عزك وأركان الله في عينه حسنة وفي فؤاده رتبة تمتعها ابتلاء به ومحنة لا شك أنه إن عاش فتنه وإن مات أحزنه وربما شغله وألهاه وأوقفه عما حدثه الله عنه ونهاه. وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله. والبنات أدام الله عزك بلاء في بعض الإناث من ابتلي منها وأتى البنات بشيء فصبر كن له جنة من النار. وأنه تعالى ألزمنا بهن حقوقا ولأنه وهب لها رزقها وهيأ لها طريقها لكانت النفوس تأنفها وأكثر الخلق لا يتكلفها منها أنه شرع الإحصان وأمر بحفظ الحرم وكتمان. وقد كانت الجاهلية خوف هذه الكلفة تدسها في التراب وتئد وتأبى من ذلك القطيع الموئد. وقتلها غيرة وشفقا وخوفا لها في الأرض تبقيها تجري من ذلك على عظيم وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم.

وقال الأول

لكنت سيفي من حال وشاحها وقد أمسى يجري على خديها

فبعضهم حكى أنها قتلت باطلا على غير ذنب أتى كان وبعضهم حكى أنها وقعها بعد الأيام في حيث هذا مهلهل نما شيبه فلما وجعلن خباء أدبها يشغلن عما كان عليه ما كان منهم من الإباء لا نسبهن إلى الدنيا وقد أمر بالكلاءة بعض الأغنياء الذل. وليس لنا خيار في بنات أوليائنا

وإنما نا هدها أعطيناه وخلق على ملك من خلع وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهن أربع. وهن كما قال عمر لحمر على وضمه ولولا أنهم لم تجزع من العزم. وإنما هن عوامل في أيدينا كما قال عليه السلام وهن إلى الممات ودفنهن من المكرمات. وكما قال عليه السلام يسلبن الحلم لبه ويردن في الحياة حبه لا يبين في الخصام ولا لهن بغير الدمع اعتصام ولم تكتب عليهن تعالى فيها الأولا غزوا وفيهن نزلت أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين. وقد شبهن بالدواجن والنوادر وقال عليه السلام بالحنفية رفقا بالقوارير ولا يحضرن في صلاة ولا دعاء. وقد قيل لا تنسخ حتى يصعد الدعاء لأكثر من الكبد فطمه. وكانت فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة منه وإن أحيي قلوبا وأجري الدمع عيونا ومنهن نوادب ونوائح ومنهن لا تكذب لسانا صوالح. وقد غلب في الإسلام اللبس والحرير وحدع الحلال إلى الغيرة خطب الصالحون لبناتهم وتكلفوا ذلك لبناتهم ولم يروا فيه من نقص ولا شين. وقال شعيب لموسى إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين. وهذا عمر على ما علم من الغيرة في أمره. ومن أحبها النبي عليه السلام في الجنة عن قصره من المتصل. ذلك وابنه. وقال لأبي بكر إن شئت أنكحتك حفصة ابنة عمر. وكم قاصد له كفؤ غيره وأطاع في ذلك ربه وذل العدو شامسا. وقال ما بعد ذلك من باس فاقتديت بأفعالهم واحتذيت على مثالهم وعندي لهذا المعنى اجتماع فإن تفضلت بالوصول صبيحة غد إلى منزلي ووصلت جناح أملي وتشفعت أبا دلك فبلي وحازت ودادي وشرفت المحفل والنادي لا زالت معالمك مأثورة وأيا دلك مستقلة ومشاهد الفضل بك معمورة وأهدي إلى الفقيه الأجل السلام موفى منتشرا وكان الدهر منه مسرورا وكان للرشد منه نورا

أول رسالة من رسائل المجموع

الحصون وسواهم من اغنام المسلمين فلا فرق بينهم في ذلك وبين المنسر كبير ولو
كان لذلك البشر جامع يضم تعاريفه وحابط المسلمين يرى الحرج ويخشى ضيعه
اوامر معروف اوناه عن منكر يونس الحق ويسلك طريقه لحفظ تلك البقيه على اربابها
وحال بين المسلمين وبين انتهابها لاكنهم استوا من معنها وطلابها ومامنعه خوم لمن
يحضرهم من اهل الرضى حاضر ولم تشهد منهم ناصر والله على نصر المنقصين نادر
نوكل الله للمسلمين ناصرا اجرولا وكلهم الى مضيع ولا عاجز وجعل بينهم وبين
الاعدا كل حجر مانع وحاجز منه والسلام

وكتب يصف غيثا اغاث اثر جدب عاث

استهلت ادام الله عزك كما وصل المكارم اختيارك مع الصباح غمامة نبهت
الندامي الى الاصطباح فكانها ساطع مغبوب او طبق على الارض مكبوب
تمشي من الثقل هونا وتستند من الريح عونا ومخايلها تتفوق وعارضها
يتلوي فاذا اذن الله لها بالانحدار وانزل منها بمقدار سلت الريح خيوط القطر
من تلك السحايب واسبلتها اسبال الذوايب فلو ان السما فرخلف مصرور
ونثرت ظلما نثر الزرور ثم انخرق جيبها وانبعق سيبها فصار الطل وبلا
وعاد الخيط حبلا وتبينت في الثرى مواضع القطر وتضوعت منه روايح
العطر وارسلت السما على الارض محادثها فالسحاب يتعلق والبرق يتألق
والرعد يرنجس والنفط يتحير من غروب هامعه وحفرن دابغه
تبكي بلاحزن وتجري على وزن والنفط تتوالى طيافا وتتبارى سيبافا
فيتزاوج السابق بالمصلي ويتصل التالي بالمولي ونبع كما نبع من المقل
السهر وينتثر من النظام الدر فجيوب السحاب تنشقه واكف الغدران تلتقطه
فكانا جاد جفونها ودام ذنوبها كانت لعلها الشوق انبثق او في حبه القلب وقع

والارض قد فتحت للسما افواها وجرعت منها امواها ولبد القطر ثراها وأجش
ثراها وسقاها على الصدا فشفاها من الردى حتى اخذت ريها من الطيب
وبلغت منه غاية الوطر ثم خفي من الرعد نصيحه وطفيت من الارض مصابيحه
وحسرت السما نقابها وولت السحايب اعقابها وحكت في ترها طلة السابق
وطرب الافق وخلص شعاع الشمس الى الارض فعرضها على النظار احسن
عرض وتناخرت زخارفها ونشرت مطارفها وتحلت رباها للعيان
وتزينت بزي القيان وتحلت بمثل اللجين والعقيان والتقى فيها الزبان
بدر نجمها وبحرها وتربها وحجرها فتنتزه العيون في صفاتها وتبتهج
النفس لقيانها والناس في الارض منتشرون يستخبرون عن ترو العيش
ويكثرون ترابين وحيث [illegible] الداير اهله بالمرعى الخصيب
واخذ من رغد العيش اوفى نصيب وبسط الشحيح يده بالانفاق ونفق
صنف الارزاق وهان على الملوط طول السنين وهول البين واصبح الزمان
جديدا ورأى الزارع مسرورا ثم امله ونجاح بيده وترجعت النسا
وكثرت الالا والنعم وزادت الوحش في عدوها وعادت الطير الى شدوها
فاثنت على رحمته التي انزلها ونعمته التي اجزلها وهب الله لنا من الاعمال ابرها
ومن الارزاق ادرها ولا اخلانا من الهام ذكره وتمام بشكره بمنه ورحمته

وكتب ايضا الى صاحب فاز بنيه مالقه

كتبت اعزك الله وما الود بسلسال وكلم الحمد والهزل ارسال والنفس المنقبضه
عند ذكرك انبساط واسترسال وموده محدثه حبيب الجزا وحمله الله
[illegible] من سا الظن بما لديه من عبره ووقع من لا يعلم [illegible] امره [illegible] فقد [illegible]
[illegible] اهليه ولا [illegible] الا [illegible]

الورقة ١٥ من المخطوط وفيها الرسالتان رقم ١٥ ، ١٦ للوزير الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز

به تقدم السابق في مضماره وقد ورد في كتابه العزيز الذي عذل به في
الاشباب واداد فيه ملح العتاب وكسا من رايق الكلام ما اخذ بالمسامع
والالباب فكدت اعيا عن الجواب ومن ذا الذي يطيق يراعه الكتاب وانه
اعزه الله لمجدود في اصحابه محسود في كتابه بما يصطفي منهم الاكل مبرز
في ميدانه ان في حلبة السباق ثانيا من عنانه فسبورك في محبره السيد
المحيل من خطيب صايب البيان رقيق حاشيه اللسان فلقد انتظم المحاسن
والتمح وحاز في البلاغة الذي الاوسع واطلع من ادابه وجوه هازها الحسن
ان تقنع ثم نرجع فنصل ما انقطع ونا بي الحسب كما وقع ۝ فنقول ان السيد
الاعز اعزه الله ينبغي له اذا امله ان يتحرى في القول ويبسط في التجاوز بذل الطول
۝ ويتأول في اعتابنا ما يرانا به من احوال لا تنضبط وتقلبنا فيها بين متراض
يشحط وامور لا تدخل تحت ما يشترط فنحن نتحدث في اعنته الاقدار ونتصرف
كيف ما تصرفت بنا غربات الدار ثم اذا اخذ المستابو ما الحما مر وحططنا
للمقام ووصلنا شمل الايام ووردنا على مزدحمات الاشتغال وربتنا
عن مجاشم العمل بنادحات الاثقال والعوايق عن اللوازم لا اختفا بكلانها
ولا افتقار بنا مع وضوحها الى بيانها ۝ وعلى ذلك فلا قدمت من هذه
الحضرة مخاطبه على يد طالب من عمله سمي يحيى بن الغافية تذ بابسمت
وسيكون وابدي عن جانب مصون وظني به ان يصدق المخيله فيورد
الامانه موردها ويؤديها مصونه كما تقلدها وعلينا الكتاب وعلى
الله البلاغ وما انا ممن يحول عن عهده ولا من يقبل الدنيا عوضا عن وده
ولا ممن ينتقل عن تنوله حالتي السيد المعظم من رقبته فيما اورهن فاني
في شد الاتيان . . . . زنه وشد احسن ظنونه لادمي فتا ولا املك
افتاعبر الى الملك ذكرا جميلا وثنا وما احتاج جانبه العزيز ان يدحم
ولا اخفنا على ركنه العظيم ان يرحم فمكانه والحمد لله مكين وما اليسر له
معين والله يهنيه النعما ويسويه الجانب الاحمى بعزته وفضله

المقامة القرطبية

وتنسب الى ابي عبد الله بن ابي الخصال قبر امنا رحمه الله
عنوانها ميزان الاعيان وحلم الزمان انشا فلان بن فلان
قال فلان بن فلان لما اخللت في سفري بهذه مدينة حضرتي لا تتنبى
باسباب انشائها وشؤون هياتها وحين اذن الله بالانفصال عنها الى البعد
كثيرا منها حتى لقيت وقد مسح النهار حديث السن في اطمار يتفد اثاثها
وسامه ويتقد شنها منه فقلت في نفسي رمل منه خبرة وخبر ويشهد له عبر
واثر فسلمت فاحسن الرد واثنى الحذف فانشد
نجمة لا لاؤه ولو ذعيته عن ان يقال بمن او ممن الرجل
فقال اللهم غفرا بذادة الدوا تمنع من الاعتزا فاستجمعت وحرصت
على ما كان قبله ولم ازل اجذبه في اساليب الحديث حتى اعلن بعد الجهد
فاذا به قرطبي الدار يقضي له النبل بكرم النجار فقلت طال بالحضرة
عهدي وحدث بها الحوادث بعدي فما عندك من اخبارها فقال انا ابن
نجدتها فسل عما شيت منها فقلت قاضيها فقال اجل القضاة رياسة
واوسع الامور سياسة فيالف الرهبا وكف العدو والاعدا من رجل له
صبابة بالشر لا تصحو اضرت المطالب غوانا ولا برسل السابق فيها الا مسيكا
سا نا يفزع من ذا الى ذلك ويضرب هنا وهنالك وهنيه . . . ستطلع . . .
ابعلم كيف تكون الفقي وانشد . . . . ما اوطيت . . .

الورقة (٢٧) وفيها « المقامة القرطبية »

لا يعدونه ويغضب لهم خوض على قدر الاحسان يردونه لورد ابو اسحق اول
وارد واخذ تامع البديع عصى الزايد وضرب صاحب الحوض بينه وبينه سورا
وقال ارجعوا وراكم فالتمسوا نورا اليس كلا منكم من البلاغة طرف ولا ينقص
لهم بني الاعراب عرف هذه جعاجع رحمان وتعاقع شنان وهذا ابن الحكم
وانه متكلم وحكيم متيم القريبة السهلة وجهل ملكيس بين الجهلة وبلاديته
فاسألوه وخذوه فاعتلوه والحقوا به من استبصر فاشرع وتجاوز واعمى اقتصر
وشرع ٥ واما المخزل له بالنثر الذي لا يسوغه الشرع ولا يجهله الاصل
والشرع فهو الى ان يكون على اسار اقرب منه الى ان يكون طرف نضارا او
ندمانا خاتم الانبياء عن اشنع الاسما وقال الله عز وجل في محكم الكتاب
ولا تنابزوا بالالقاب وما قصر الحيد بابن هلال ولقد وسم اباه الميم جمال
سيره واشاعه والقى عليه رداه وشعاعه ولله در ابي منصور لقد نص
في مواطن كثيرة وافرده بالمنزلة الانبهة لانه قال ان الله هداه الى محاسن
الكلام ولم يهده الى الاسلام وقال فيه وفي الصاحب وكيف جرى الامر
بهما هما ولقد وقف فلك البلاغة بعدهما ورابا من مناقب ابي الطيب
المتنبي ومحره ما نثراه في رسايلهما وتمثلا به من شعره وهذا على تقديمه
نص وانه بالفضيلة مختص ولبس على ابي الفضل في كماله نقص لانه
لا يكن صاحب رضوان فهو تابع باحسان والى عز كل الله وان اومات
الى خلافك لمن اصفياك واصلا انك لاكن يستدعي الرفق فيبسم بما فوق
القدر ويستوعي الحق فيرد الما الى الجدر والسلام ٥

اخره ٥

تم [illegible] رسالة [illegible] صح الرسائل للوالد

فصل في الرسايل

وصل اطال الله بقا فلان وادام علاه ومد على سواد ولطوله بكرمه وفضله
كتابه الشريف وخطابه اللطيف الذي هو احسن من البعض غب المزن
والطيب من الفرح بعد الحزن واحلى من جنا النحل لغايب النحل واشهى للسمع
من الغنا وسط الروضة الغنا والامر عبد الشبيلب في والسنة الذباب بل من
السلم صبيحة الظام بل من نيل المنى ومن نومة الضحى ومن قبله على عجل ومن امن
بعد وجل بل من مواصلة الحبيب مع غيبة الرقيب فلما حللت عقده ونثرت
عقده ودعت شمله وقنت ونعمت بغراره وزنده نسيت الرطب
الجني عنده وسلوت من همومي وغمومي وهمت نسيبا حروري وسموي
وعاد ما ذبل من عيشي نضيرا وما نكد من عيشي الهنا فحمدت الله تعالى
على ذلك كثيرا واما حالي فلو خضت في وصف ما بي من الحنين السوالشتاق
وما اعاني من الحرق مثل يوم الفراق لطال الكتاب واهتد الخطاب
لكني اثرت الاختصار في المقال لما دل عليه شاهد الحال والسلام

لابي العلا المعري مطلع رسالة

ها حمامة ذات طوق يضرب بها المثل في السوق تالف من انا جانبيها ابدا
وسرا سلالان تغريدا اخرجت الى الاعصر المحرمه وهي جد مفرمة صادها
ولبدى الحلما دعي من الى واسكنها مسكنا للطيور ومنعها فيه من كل خير كلها
من علم بها اخر الحمام خادن لجرع غصص للحمام وسالت بطرفها اخاها
ما صنع بعدها من خاها فقال اصبحا صابعين فلن يسترها الوزن من كل غصن
[illegible] تتضاعان بالفجر كلما احتسا في النوح [illegible]
باسوف من الى فلان

لوحة (٤٣) وفيها آخر رسالة من رسائل المجموع

رسائل ومقامات أندلسية

[٣/ب]

[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم
وعلى آله وسلم تسليما

كتب الفقيهُ المشاورُ أبو محمَّد عبد القوى[١] فى نِكاح ابنتهِ إلى أحد الفقهاء :

أطال اللَّهُ بقاءَ الفقيهِ الأجلِّ الذى أتزيَّنُ بإخائِه ، وأتيمَّنُ بدُعائِه ، حامِلاً للأمانةِ ، مؤدياً فى حقِّ الديانة .

ولَدُ الإنسانِ ــ أدامَ اللَّهُ عِزَّك ! ــ وإن كان فى عينِه حَسَنَةً ، وفى فؤاده زينة ، فهو مِمَّا ابتلاه به ومحنه[٢] ، لأنَّه كما قيلَ : إن عاشَ فَتَنَهُ ، وإنْ ماتَ أَحْزَنَه ، وربَّما شغلَهُ وألهاهُ ، وأوقعه فيما حذَّره اللَّهُ عنه ونهاه . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُلهِكُم أموالُكُم ولا أولادُكُم عن ذكرِ اللّه ﴾[٣] .

والبناتُ ــ أدامَ الله عِزَّك بلاء ! جاءَ فى بعضِ الأثار : « مَن ابْتُلِى من

---

(١) لعله عبد القوى بن محمد العبدرى ، من أهل بلنسية ، روى بها عن أبى عمر الطلمنكى ، وله رحلة حجَّ فيها ، وأقام بمصر بعد ذلك مستوطناً ، وكان حيّاً بعد سنة ٤٩٩ هـ . [الذيل والتكملة ٤ ٢٣٢]

(٢) محنته وامتحنته خبرته وبلوته وابتليته

(٣) المنافقون ٩

هؤلاء البنات بشيءٍ فصبر ، كنَّ له جُنَّةً مِن النَار »[٤] . وإنَّه ــ تعالى ــ ألزمَنَا فيهنَّ حقوقاً ، لولا أنَّه وهبَ لها توفيقاً ، ونهج لها طريقاً ، لكانت النفوسُ تأنفُها ، وأكثرُ الخلقِ لا يتكلَّفُها ، منها أنَّه شرعَ الإحصانَ[٥] ، وأمرَ أن تُحْفَظَ الحُرَمُ وتُصَان . وقد كانت الجاهليّةُ خوفَ هذه الفتنة تدسُّها فى الترابِ وتئِدُ[٦] ، وتأتى من ذلك القَطْعَ[٧] المؤبّد ، وتقتلها غَيْرةً وشَفَقاً ، وتبتغى لها فى الأرض نَفَقاً[٨] ، وتجتزىءُ من ذلك على عظيم ، ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثى ظلَّ وجهُه مسودًّا وهو كظيم ﴾[٩]

وقال الأوَّل :[١٠]

مكَّنتُ سيفى مِن مجالِ وشاحِها ومدامعى تجـرى على خـدَّيـهَا

فبعضُهم حكى أنَّها قُتِلتْ باطِلًا على غيرِ ذنب ، وبعضُهم حكى أنَّه أوقعَها فقد الأراقمِ فى جنْب[١١] . هذا مُهلهل[١٢] قد أشقينه قديماً ، وجعلن خِباءَه

(٤) فى صحيح مسلم عن عائشة ، رضى الله عنها ، عن النبىّ ﷺ قال : « من ابتُلى من البنات بشىءٍ فأحسن إليهنّ كنَّ له ستراً من النار » وقال القرطبى فى تفسيره تعقيباً على هذا الحديث : « ففى هذا الحديث مايدل على أن البنات بليّة ثم أخبر أن فى الصبر عليهن والاحسان إليهّن مايقى من النار » (تفسير القرطبى ــ سورة النحل ص ٣٧٣٤) .

(٥) أصل الإحصان المنع ، ويستعمل الاحصان بمعنى التزويج ، والعِفَّة ، ويقال : أحصن الرَّجل : تزوج ، وكل امرأة متزوجة محصنة .

(٦) قال تعالى فى ذلك : « وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هونٍ أم يدسّه فى التراب » النحل : ٥٨ – ٥٩

(٧) القطع : ترك البر والإحسان الى الأهل والأقارب ، وهى ضد صلة الرحم ، ومنه قوله تعالى : « أن تُفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » أى تعودوا الى أمر الجاهلية فتفسدوا وتئدوا البنات . (اللسان : قطع)

(٨) يقتبس من قوله تعالى : « فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سُلّماً فى السّماء فتأتيهم بآية » الأنعام : ٣٥

(٩) النحل : ٥٨

(١٠) نسبه أبو الفرج فى الأغانى (١٢ ص ١٤٤ بولاق) حديث حين كما نسبه أيضاً لسليك بن مجمع العصفانى ، وروايته : « قد ...ت سيفى »

(١١) يشير الى قول مُهلهل .

زوَّجَـهـا فقـدُها الأراقــمَ فــى جَنْــبٍ وكان الحِبـاءُ من أدَم

والأراقمُ : قوم من ربيعة ــ وقيل : حىٌّ من تغلب ، وهم جُشم ، وسُمّوا الأراقم تشبيهاً لعيونهم بعيون الأراقم من الحيّات . و (جنب) : حى من اليمن . (اللسان : رقم)

(١٢) هو مهلهل بن ربيعة ، الشاعر الجاهلى المشهور ، واسمه عدى ، وقيل : لُقّب مهلهلاً لأنه أول من

أديماً[١٣] ، وشقيقُ بنُ فاتِك على ما كانَ فيهِ مِن الإباء ، جلا نسبَهنَّ إلى الدَّهْناء ، وقد عزا إلى الكل ، وحد عن الأعزَّةِ الذُل .

وليس لنا خيارٌ فى بناتٍ أو بنينا [٤/أ] * وإنَّما نأخذُ ما أعطينَا[١٤] * وخُلِقنَ ــ على عِلْمِكَ ــ مِن ضِلْعِ[١٥] ، وكان لرسول اللّهِ ــ صلّى اللّه عليه وسلَّم ــ منهنَّ أرْبَع ، وهنَّ كما قال عُمر : « لحمٌ على وضَمَ »[١٦] و « لولا أمِيَّمة لم يجزعْ من العَدَم »[١٧] .

وإنَّما هنَّ عوان فى أيدينا كما قال[١٨] ــ عليه السَّلام ــ وهم إلى المماتِ ،

هلهل نسج الشعر ، أى أرقّه ، وهو أول من قصَّد القصائد وقال فيها الغزل ، وعنى بالتشبيب فى شعره ، وكان كثير المحادية للنساء ، حتى كان أخوه كليب يسميه زير النساء ، ولذلك يقول بعد مقتل كليب وطلب ثأره : (سرح العيون : ٩٦)

فلو نُبِش المقابرُ عن كليبٍ ليعلمَ بالذَّنائبِ أىَّ زيرِ

(١٣) الأديم : الجلد ، وقيل : الجلد الأحمر المدبوغ .
(١٤) هذا صدر بيت من رجز قالته امرأة بعد أن هجرها زوجها حين ولدت بنتاً ، والأبيات هى : [البيان والتبيين ١٠٨]

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

(١٥) خرَّج البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « استوصوا بالنّساء خيراً ، فإنهنَّ خُلِقن من ضِلع ، وإنَّ أعوج شىءٍ فى الضّلع أعلاه ، فإن ذهبت تُقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيْراً » [صحيح البخارى ــ باب الوصاة بالنّساء]
(١٦) فى حديث عمر ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « إنَّما النّساء لحمٌ على وضَم ، إلاَّ ماذُبَّ عنه » والوَضَم : الخشبة أو البارية التى يُوضع عليها اللحم ، أى أنهنَّ فى الضعف مثل ذلك اللحم لايمتنع من أحدٍ إلاَّ أن يذبَّ عنه ويَدفع (اللسان : وضم) وفى (الميدانى ١ : ٢١) : « إنّ النساء لحمٌ على وضم » .
(١٧) من قول إسحاق بن خلف (الحماسة بشرح التبريزى : ١٠٠)

لولا أميمةُ لم أجزع من العَدَمِ ولم أقاسِ الدُّجى فى حندسِ الظُّلَمِ

ويُروى فى (طبقات ابن المعتز : ٢٨١) لمحمد بن يسير ، وروايته :

لولا البنيَّة لم أجزع من العَدِمِ ولم أجب فى الليالى حندس الظُّلَمِ

(١٨) قال النبىُّ ﷺ فى خطبة الوداع : « إنَّما النساء عندكم عوانٌ ــ أسيرات ــ لايملكنَ لأنفسهن شيئاً ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهنَّ خيراً » . [البيان والتبيين : ٢٢٩ ، العقد الفريد ٦ : ٨٢]

ودفنهنَّ مِن المكْرُمات ، وكما قال — عليه السَّلام — « يسلبنَ الحليمَ لُبَّه ، ويزدن فى الحياة حُبَّه »[١٩] ، لا يبنَّ فى الخِصام ، ولا لهنَّ بغيرِ الدَّمع اعتصام ، ولم يكتبْ عليهنَّ — تعالى — قِتالاً ولا غَزْواً ، وفيهنَّ نزلتْ ﴿ **لو أردنا أن نتخِذَ لهواً** ﴾[٢٠] وقد شبِّهنَ بالرَّياحين والنَّواوير[٢١] ، وقال — عليه السَّلام — « يا أنجشَةُ رِفْقاً بالقوارير »[٢٢] ، ولا يجهرنَ فى صلاةٍ ولا دُعاء ، وقد قُلْنَ ﴿ لا نَسْقِى حتَّى يصْدرَ الرِّعَاء ﴾[٢٣] ، لكنهنَّ مِن الكبدِ قطعة[٢٤] ، وكانت فاطمةُ من رسولِ اللّهِ — صلَّى اللَّه عليه وسلَّم — بضعة[٢٥] ، وهنَّ أحنى قلوباً ، وأجرى بالدَّمع غروباً ، ومنهنَّ نوادِب ونوائح[٢٦] ، وفيهنَّ لا تُكْذَبُ نساءٌ صوالِح ، فلَّما رفع الإسلامُ اللبسَ والحيرة ، وجَدَعَ الحلالُ أنفَ الغيرة[٢٧] ، خطبَ الصَّالحون لبناتِهم ، وتكلَّفوا ذلك ليلاتِهم ، ولم يروا فيه من نَقْصٍ ولا شَيْن ، وقال شعيبُ لموسى ﴿ **إنى أُريدُ** أن أنكحكَ إحدى ابنتىَّ هاتين ﴾[٢٨] .

---

(١٩) لم أقف عليه

(٢٠) الأنبياء : بعض آية ١٧ ، والآية بتمامها : لو أردنا أن نتخذ لهواً لأتخذناه من لدُنَّا إن كُنَّا فاعلين » .

(٢١) من قول القائل :

إنَّ النسـاءَ رياحـينٌ خُلقـن لنـا ... وكُلُّنـا يشـتهى شـمَّ الرَّياحـينِ

[بهجة المجالس ٢ : ١٠ ، التمثيل والمحاضرة ٢١٨ بدون نسبة]

(٢٢) أنجشة : مولى للنبىِّ ﷺ ، كان حادياً ، وله قال ﷺ : « رويدك يا أنجشة رفقاً بالقوارير » . [الأدب المفرد للبخارى : ٢٥٨] .

(٢٣) من قوله تعالى فى سورة القصص حكاية عن ابنتى شعيب : « قالتا لانسقى حتَّى يصدر الرعاء » الآية : ٢٣ .

(٢٤) فى الحديث : « إنَّما أولادُنا أكبادنا يمشون على الأرض »

(٢٥) قال النبىّ ﷺ — عن فاطمة : « إنَّما هى بضعةٌ منى . يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها » صحيح البخارى (بحاشية السندى) باب : (ذبّ الرجل عن ابنته فى الغيرة والانصاف) م ٢/ص ٢٦٥.

(٢٦) فى الأصل : برائح ؛ تحريف

(٢٧) جدع أنفه : قطعها ، والمعنى هنا على التمثيل .

(٢٨) القصص : بعض آية ٢٧

وهذا عُمر[٢٩] ــ على ما عُلِمَ مِن الغَيْرةِ فى أمرِه ، ومن أجلهِا انصرفَ النبىُّ ــ عليه السَّلام ــ فى الجنَّةِ عن قصره ــ قد امتثل ذلك وائتمر ، وقال لأبى بكر[٣٠] : إن شئتَ أنكحتك حفصةَ ابنةَ عُمَر[٣١] ، وكم فاضلٍ قد كفَّ غَرَبَه[٣٢] ، وأطاعَ فى ذلك ربَّه ، وذلَّ بعد شماس[٣٣] ، وقال : ما بجلالِ اللّه مِن باس ، فاقتديتُ بأفعالِهم ، واحتذيتُ على مثالِهم ، وعندى لهذا المعنى اجتماع ، فإنْ تفضَّلتَ بالوصولِ صبيحةَ غدٍ إلى منزلى ، وصلتَ جناحَ أمَلى ، وشفعتَ أياديكَ قِبَلى ، وجازيتَ ودادى ، وشرَّفتَ المحفلَ والنَّادى ، لا زالتْ معاليك مأثورة ، وأياديك مشكورة ، ومشاهِدُ الفضلِ بك معمورة ، وأهدى إلى الفقيهِ الأجلِّ سلاماً موفِىً متمَّماً ، وثناءً كانَ الرَّوضُ منه منوراً ضُحىً ، وكان الوشىُ فيه ﴿ ٤/ب ﴾ مُنَمْنَماً ، والسَّلامُ عليك ورحمةُ اللّهِ وبركاته .

(٢٩) هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثانى الخلفاء الراشدين .

(٣٠) أى لأبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه .

(٣١) فى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة ابنته من خنيس بن حذافة السهمى أتى عثمان بن عفان فعرض عليه حفصة فقال سأنظر فى أمرى ثم لقيه فقال : قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا ، قال عمر : فلقيت أبا بكر الصديق فقلت : إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر ولم يرجع علىّ شيئاً ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه .... » (صحيح البخارى بحاشية السندى ٣ : ٢٤٧)

(٣٢) الغَرَب (بالتحريك) : الماء الذى يسيل من الدلو ، والغَرَب (بالتحريك) أيضاً : ضرب من الشجر ، واحدته (غَرَبَه) ، والمعنى مجازى .

(٣٣) شامسه مشامسة وشِماساً : عانده وعاداه ، ورجل شموس : عسر فى عداوته ، شديد الخلاف على من عانده .

[٢]

وكتب * أيضاً فى الإعذارِ لبنيه :

أطال اللّٰهُ بقاءَ الفقيهِ الأجلِّ قَدْرُه ، رفيعاً خَطرُه ، مُبْصِراً فى بنيهِ ما يسرُّه .

من آياتِ اللّٰهِ — تعالى — الواضحةِ البيِّنة ، أن جعلَ البنينَ فتنةً مُزينة ، ثم قصر فى طاعتِه عليهم منَّا نفوساً حانية ، وقلوباً لينة .

وإنَّ بنّى — أدام اللّٰهُ عِزَّك ! — أزلتُ عن نفسى فيهم عطفة الأب الأحنى الأحفى، وأقمتُ بالحِلْم فيهم سُنَّةَ إبراهيمَ الذى وَفَّى[1] ، فإن كانت — أدام اللّٰهُ عِزَّك — من الوظائفِ المعلومات ، ومِمَّا ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ من الكلمات[2] ، فقد شُرِعَتْ لهم كرامة ، وتركُها — من غيرِ عُذْرٍ — يقدَحُ فى الشَّهادةِ والإمامة . وقد أمرَ رسولُ اللّٰهِ — صلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّم — أن يُنْدَبَ لذلك ويُدْعى ، وتَعيَّنَ ذلك أَدَباً وشَرْعا ، وقد دعا لذلك أفاضِلُ السَّلف وجلَّةُ الصحابة ، وأنت أولى من تفضَّل بالمشاركةِ وأنعمَ بالإجابة ، فإنْ رأيت أن تُشرِّفَنى بنفسِك ، وتُمتِّعَنى بأُنْسِك ، صبيحةَ غدٍ فى دارى ، وتقبل فى تخلُّفى عن قَصْدِك أعذارى — شفعتَ أياديك الكريمة ، ومنَّتك الجسيمة ، واللّٰهُ يبلِّغُنا فيهم أجمعين بعد الإعذارِ الوليمة ، بمنه ؛ والسَّلام .

---

* الضمير فى « كتب » عائد على الفقيه أبى محمد عبد القوى صاحب الرسالة المتقدمة

(١) من قوله تعالى . « أم لم يُنَبَّأْ بما فى صُحف موسى . وإبراهيم الذى وفّى » النجم : ٣٧

(٢) يقتبس من قوله تعالى : « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهنّ » البقرة ١٢٤

[٣]

كتب أبو بكر بن صاحب الصلاة[1] إلىَّ بعض إخوانه يوصيه بالتحفظ بكتبه من الفأر :

أستوهبُ اللَّهَ أيُّها العمادُ الأعلى ، والسِّراجُ الأجلى ، والبدرُ الأتمُّ ، والطَّودُ الأشَمُّ[3] ، من النِّعم أبقاها ، ومن العِصم أوْقاهَا ، ولازلت لعِنان السِّيادةِ مالكاً ، وفى مِنهاجِ السَّعادةِ سالِكاً .

كتبتُه ــ أعزَّك اللَّهُ ــ والودُّ قائمٌ رسمه ، لائح وَسْمُه ، وإن كانت الأيَّامُ قد أزاحتنى عن قُربِك ، وأظمأتنى إلى شُرْبك ، فإنها لم تلحقْ[4] وثاقة عهدِنا انحلالاً ، ولا صحةَ عهدِنا[5] اعتلالاً ، ولو جرتِ الأيَّامُ[6] على [٥/أ] اقتراحِى ، وأطلعَتْ من عُقل[7] الأشغالِ سَرَاحى[8] ، لآثرتُ مجاورتَك ، واخترتُ محاورتَك ، فإنَّك بحرٌ تَلْفَظُ بالجواهرِ[9] غواربُهْ ، وتعذُبُ للواردِ

(١) هناك كثيرون يحملون لقب ابن صاحب الصلاة ، وقد اكتفى صاحب المجموع هنا بذكر كنيته فقط ، وأورد بعد ذلك رسالة أخرى له فى وصف جامع قرطبة (الرسالة رقم ٤) وقد وردت الرسالة ذاتها فى نفح الطيب (٢٥٦/٢) منسوبة الى الفقيه الكاتب أبى محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبنى ، وقد وردت رسالة ابن صاحب الصلاة (رقم ٣) فى كتاب (رسائل أندلسية) بتحقيقنا مسوبة الى من يلقب بأبى عبد الله ابن صاحب الصلاة ، وأغلب الظن أنه كان يحمل كُنيتين ، وسأقابل بين النصّين ، مشيراً الى كتاب رسائل أندلسية بكلمة (رسائل) ، وقد صُدّرت الرسالة هناك بقوله :

« ممّا كتب به أبو عبد الله بن صاحب الصلاة من قرطبة فى وصف قطٍ لصاحبٍ له قد كان استودع عنده كتبه » .

(٣) فى (رسائل) : والطود الأشم ، والبدر الأتم

(٤) فى (رسائل) : لم تحل

(٥) فى (رسائل) : ودنا

(٦) فى (رسائل) : الأقدار.

(٧) فى (رسائل) : عُلق

(٨) فى (رسائل) : مراحى

(٩) فى (رسائل) : بالجوهر

[والصَّادرِ][10] مَشَارِبُهُ ، فيصدرُ عنك[11] وقد ملأ من الدُّرِ حقائبه ، وأثقلَ من البرِّ[12] ركائبه ، واللَّهُ يُقرِّبُ لقاءك ويُدْنيه ، ويهنيه[14] على أفضلِ حالٍ ويسنيه ،

وفى عِلمكَ — أعزَّك اللَّهُ — ما استودعتُه صِيانتَك ، واستحفظتهُ ديانَتَكَ[15] ، من كُتُبى — التى هى أنفسُ ذخائرى ، وأسراها ، وأحقُّها بالصِّيانةِ وأحْرَاها ، وما كنتُ أرْضى فيها بالتغريبَ ، لولا الترجِّى لمعاودة الطَّلب عن قريب[16] ، ولا شكَّ أنَّها منك ببالٍ ، ومكانِ تهمُّمٍ واهتبالٍ ، ولكن رُبَّما[17] طرقها من مَرَدَةِ الفَأر طارِقٌ ، وعاثَ[18] فيها كما يعيثُ الفاسِقُ المارِقِ ، فيتركُ فيها قَرْضاً ، ويُفْسِدُ فُيها طولاً وعَرْضاً ، إلا أن يطوفَ بها هِرٌّ نبيل ، ينتمى من القِطاط[20] إلى أشرفِ قبيل ، له رأسٌ كجمع الكفِّ ، وأذنان قد قامتا[21] على صَفٍّ ، ذواتا لطَافةٍ ودِقَّة ، وسَبَاطةٍ ورقَّة[22] ، يقيمهما عند التشوُّف ، ويضجعهما عند التخوُّف ، ومقلةٌ كأنَّها مُقْتَطَعةٌ[23] من الزجاج المُجزَّع ، وكأنَّ ناظرَها من عيونِ الباقلاءِ مُنْتَزَع ، قد استطالَ الشَّعْرُ حول أشداقِه ، وفوق أحداقِه[24] ، كإبرٍ مغروزة

(١٠) سقطت من (رسائل اندلسية)

(١١) فى (رسائل) : فيصدر (بدون عنك)

(١٢) فى (رسائل) : ومن البرّ

(١٣) فى (رسائل) : والله تعالى

(١٤) فى (رسائل) : ويعليه .

(١٥) فى (رسائل) : حزانتك .

(١٦) فى (رسائل) : عن قريب إن شاء الله

(١٧) فى (رسائل) : وربّما

(١٨) فى (رسائل) : فعاث

(١٩) فى (رسائل) : عليها

(٢٠) فى (رسائل) : القطط

(٢١) فى (رسائل) : قامتا ، وفى الأصل : قاما

(٢٢) فى (رسائل) : ذواتا سباطة ورقة ، ولباقة ودقة .

(٢٣) فى (رسائل) : ومقلة ترى كأنها منقطعة .

(٢٤) فى (رسائل) : فوق أحداقه وحول أشداقه .

على العيون ، كما تُبْرِدُ إطراقَها القُيون ... له ناب كحدّ المطرد[٢٥] ، ولسانٌ كظهرِ المِبْرَد ، وأنفٌ أخْنَسُ ، وعنقٌ أوقصُ[٢٦] ، وخلْقٌ سويٌّ غيرُ منتقَص ، أهرتُ الشِّدقين[٢٧] ، أسيفُ المقلتين ، موشّى السَّاعدين والسَّاقين[٢٨] ، مُلَمْلَمُ اليدين والرِّجلين ، يرجلُ بهما وبره ترجيلَ ذوى الهِمم ، [لما شعث من اللّمم] ،[٢٩] فينفض ما لصق به من الغُبار ، وعلقَ من الأوبار ، ثم يجلوهُ بلسانِه جلاءَ الصَّيْقلِ [للحُسَام والحمامِ للأجسام ، فينفى قَذَاهُ ، ويوارى أذاهُ ، ويَقْعى إقعاءَ الأسدِ][٣٠] إذا جلس ، ويثب وثبةَ النَّمرِ إذا اختلس . له ظَهْرٌ شديد ، وذَنَبٌ مَدِيد ، تارةً يهزُّهُ هزَّ السَّمهريِّ المثقّف[٣١] ، وتارةً يلويه لَيَّ الصَّوْلج المعقف[٣٢] ، [تجولُ يداهُ فى الخشبِ والأرائِك ، كما تجولُ فى الكِساءِ يدُ الشَّائك][٣٣] ، يكبُّ على الماءِ حين يَلَغُه ، ويُدنى منه ، [٥/ب] فاهُ ولا يبلُغه ، ويتخذُ من لسانِه[٣٤] رشاءً ودلواً ، فيعلمُ به إن كانَ الماءُ مُرّاً أو حُلواً ، فتسمع للماءِ خَضْخَضَةً من قَرْعِه[٣٥] ، وترى للّسَانِ نَضْنَضَةً من جَرْعِه[٣٦] ، يحمى دارَه حمايةَ الرَّقيب[٣٧] ، ويحرُسُها حِراسةَ النَّقيب[٣٨] ، فإنْ رأى فيها كلباً صار عليه إلْفاً ، فصعَّر خَدَّه ، وعظَّم قَدَّه ، حتى يصيرَ نِدَّه ، أنفةً من جَنَابِه أن يُطْرَق ، وغيرةً على حجابِه أن

---

(٢٥) فى هامش الأصل : المطرد : رمح قصير يُطعن به الوحش .

(٢٦) الوقَص (بالتحريك) : قصر العنق كأنما رُدَّ فى جوف الصدر

(٢٧) الهرت : سعة الشدق ، وأهرت : متسع مشق الفم

(٢٨) فى (رسائل) : موشى القدمين .

(٢٩) سقطت من الأصل واستدركها الناسخ فى الهامش .

(٣٠) سقطت من الأصل واستدركها الناسخ فى الهامش .

(٣١) السمهرىّ : الرمح الصليب العود ، وينسب الى رجل اسمه سمهر كان يبيع الرماح بالخط ، والثقاف : ما تسوى به الرماح ، وتثقيفها : تسويتها .

(٣٢) العقف : العطف والتلويه .

(٣٣) ما بين القوسين لم يرد فى (رسائل) .

(٣٤) فى (رسائل) : من دونه .

(٣٥) فى (رسائل) : من جرعه .

(٣٦) فى (رسائل) : من قرعه .

(٣٧) فى (رسائل) : النَّقيب .

(٣٨) فى (رسائل) : الرقيب .

يُخَرق[٣٩] ، وإن رأى فيها هِرّاً ، زحفَ إليه مُكفهراً ، فدافعَه بالسَّاعِد الأشدّ ، ونازَعه منازعة الخصم الألدّ ، فإذا أطالَ مفاوضَته ، وأدامَ مُراوضَته ، أبرزَ[٤٠] بُرْثنَه[٤١] لمبادرتِه ، وجَوْشَنَه[٤٢] لمصادرتِه ، ثم تسلَّل إليهِ لُواذاً[٤٣] ، واستحوذَ عليه استحواذاً ، فشدَّ عليه شَدَّه ، وضمَّه من غير مودَّة ، وأطارَ وبرَه نسَالاً[٤٤] ، وأرسلَ دمَه إرسالاً ، بأنيابٍ عُصْل[٤٥] ، أمضى من النَّصْل ، ومخلبٍ كمنقارِ الصَّقْر ، درِبٍ بالاقتناصِ والعقر ، ففرَّ قِرنُه[٤٦] ممزّق الإهاب ، مُستبصراً في الذَّهاب ، قد أفلتَ من بين أظفارٍ وأنياب ، ورضىَ من الغنيمةِ بالإياب[٤٧] .

هذا وهو يخاتِلُه دونَ[٤٨] جُنّةٍ ، ويُقابلُه بلا سيوفٍ ولا أسِنَّة ، وإنّما جُنَّتُهُ مُنَّتُه[٤٩] ، وشعارُهَ أظفارُه ، وسنانُه أسنانه ، إذا سمعتْ الفيرانُ[٥٠] منه مُعاءً[٥١] لم تستطعْ له إصغاءً ، وتقطَّعت قلوبُها من الحَذَر ، وتفرَّقت جموعُها شَذَرَ مذَر[٥٢] ، تهجعُ العيونُ وهو ساهِر ، وتستتِرُ الشُّخوصُ وهو ظاهِر ، يسرى

(٣٩) فى (رسائل) : يخترق

(٤٠) فى الأصل : أبرر

(٤١) البرثن : المخلب .

(٤٢) الجوشن : الوسط والصدر ، والجوشنى ، العظيم الجنبين والبطن .

(٤٣) لواذاً : استتاراً ، لاوذ ملاوذة ولواذاً ولياذاً : استتر .

(٤٤) النُسال (بالضم) : ما سقط من ريش الطائر والحيوان .

(٤٥) العَصَل فى الناب : اعوجاجه وصلابته ، وناب أعصل : معوج شديد ، ومنه قول أوس : [اللسان : عصل]

« رأيتُ لها ناباً من الشرّ أعصلا »

(٤٦) القِرن (بالكسر) : الكفء والنظير ، والجمع (أقران)

(٤٧) مثل يضرب عند القناعة بالسلامة (الميدانى ٣٠٧/١)

وهو من قول امرىء القيس (ديوانه ٩)

وقد طوَّفتُ فى الآفاقِ حتى ... رضيتُ من الغنيمة بالإياب

(٤٨) فى (رسائل) : من دون .

(٤٩) المنّة (بالضم) : القوّة .

(٥٠) فى (رسائل) : الفأر .

(٥١) المعاء : أصوات السنانير والفئران ، وفى (رسائل) : ضغاء

(٥٢) يقال : ذهبوا شذر مدر أى تفرقوا فى كل وجه ، وفى حديث عائشة رضى الله عنها ، أن عمر - رضى الله عنه - شرد الكفر شذر مذر ، أى فرّقه وبدده فى كل وجه

من عينيه بنّيرين وضّاحين[٥٣] ، تخالهُما فى الظّلام مِصباحين[٥٤] ، يتشوف[٥٥] الأركانَ ، ويطوفُ[٥٦] فى كُلِّ مكان ، ويحكى فى ضجعتهِ السُّوار تحنّياً ، وقضيبَ الخيزُرانِ تثّنياً ، ثم يغطُّ إذا نام ، ويتمطّى إذا قام ، ولا يكونُ للنّارِ مستدفيا ، ولا للقدْر مكفيا[٥٧] ، ولا للرّمادِ مضطجعاً ، ولا للجَارِ منتجِعاً[٥٨] ، بل يُديرُ بكيدهِ ، ويقتصرُ على صَيْدِه[٥٩] قد تمرَّسَ بأكلِ[٦٠] الحِناش والخِشاش[٦١] ، وافتراس الطّير فى المسارج والأعشاش . يستقبلُ الرِّيح بشمِّه[٦٢] ، ويجعلُ استدلالَ أنفهِ[٦٣] [٦/ب] أكبر هَمِّه ، ثم يكمنُ للفّار بحيث يجدُ لها عَبَثاً أو يعلُم لها لبثاً أو يسمعُ لها صئيباً ،[٦٤] ، أو يلمح من شياطينها رئيًّا[٦٥] ، فيلصقُ بطنَه بالأرض ، وينطوى بعضُه فى بعض ، حتى يستوىَ منه الطُّولُ والعَرْض ، فإذا تشوَّفت الفارةُ من حُجرها ، وأشرفتْ[٦٦] بصدرِها ونحرِها ، دبَّ إليها دبيبَ الصِلّ[٦٧] ، وامتدَّ نحوَها امتدادَ الظِلّ ، ووثبَ[٦٨] فى الحِين عليها ، وجَلَب الحيْنَ[٦٩] إليها ، [فأثخنَها جِراحاً ، ولم

---

(٥٣) فى (رسائل) : نيرّان وضّاحان

(٥٤) فى (رسائل) : كأنهما فى الظلام مصباحان .

(٥٥) فى الأصل : يسوف ، وما أثبتناه عن (رسائل)

(٥٦) فى (رسائل) : ويجول

(٥٧) فى (رسائل) : ولايكون للقدر مكفيا ، ولا للنار مستدفيا .

(٥٨) فى (رسائل) : ولا فى الرماد مضطجعا ، ولا للجار منتجعا

(٥٩) فى (رسائل) : بل يقتصر على صيده ، ويديره بكيده

(٦٠) فى (رسائل) : بقتل

(٦١) الخشاش : حشرات الأرض والعصافر ونحوها

(٦٢) فى (رسائل) : بشمه

(٦٣) فى (رسائل) : الاستدلال أكبر همه .

(٦٤) الصئى : صوت الفأر ، فى (رسائل) : ضابئا

(٦٥) فى (رسائل) : دائبا

(٦٦) فى (رسائل) : وبرزت .

(٦٧) الصِلّ : الحيّة

(٦٨) فى (رسائل) : وهجم

(٦٩) الحين (بسكون الياء) : الهلاك ، فى (رسائل) : وأجلب الحين إليها

يُعْطِها بَرَاحاً][70] ، فصاحت من شِدَّةِ قَسرهِ ، وقُوّةِ أسْرِه[71] ، وكُلّما كانت صيحتُها أحدَّ ، كانت قبضتُها[72] عليها أشدَّ ، حتى يستأصِلَ أوداجَها فرياً ، وعظامَها برياً ، ثم يَدَعها مُخْرجةَ[73] الدِّماء ، مضرجةً فى الدّماء ، فإن كان جُرْذاً مُسِنّاً ، لم يضعْ عليه سِنّاً ، وإن كان دِرْصاً[74] صغيراً[75] فغرَ عليه فاهُ ، وقبضَ متفرِّقاً[76] على قفاهُ ، ليزدادَ بلعبهِ تَلهّياً ، وبه تشهّياً[77] ، ثم تلاعبَ به تلاعُبَ الفرسانِ بالأعنَّة ، والأبطالَ بالأسِنَّة[78] ، فإذا أوجعَهُ عَضّاً ، وأوعبَه[79] رَضّاً ، أجهزَ فى الفَوْرِ عليه ، وعمدَ بالأكلِ إليه[80] ، [ولاكَ منه أطيبَ طعمه ، واعتقدهَ أهنأ نعمة][81] ، ثم أظهرَ بالالتعاق[82] شُكْرَه ، وأعملَ فى غيرهِ فِكْرَه ، [فرجع إلى حيثُ أثارَه][83] ، وتتبع فيهِ آثاره ، راجياً أن يجدَ فى رباعِهِ ، ثانياً من أتباعِه ، فيلحقه بصاحِبه فى الرَّدى ، حتَّى يَفْنَى[84] جميعُ العِدى ، ورُبَّما انحرف عن هذه العوائِد ، والتقطَ الفُتَاتَ حولَ الموائِد ، إبْلاغاً فى الاحتماء ، وبروراً بالنَّعماء[85] ، فمالَه عن خِصَاله ثَمَن ، ولاجاءَ بمثلهِ زَمَن .

وقد أوردتُ عليك — أعزَّك اللّه — مِن وصفهِ ، فَصْلاً مُغْرِباً ، وهَزْلاً

(٧٠) ما بين القوسين سقط من (رسائل اندلسية)
(٧١) فى (رسائل) : من شدّه أسره ، وقوة كسره .
(٧٢) فى (رسائل) : قبضته
(٧٣) فى (رسائل) : ثم يتركها .
(٧٤) الدِّرص : ولد الفأر
(٧٥) فى (رسائل) : وإن كان درصاً صغيرا ، لعب به كثيراً .
(٧٦) فى (رسائل) : مرتفقاً
(٧٧) فى (رسائل) : ليزداد منه تشافياً وبه تلاهياً .
(٧٨) فى (رسائل) : تلاعب الأبطال بالأسنة والفرسان بالأعنّة .
(٧٩) أوعبه : قطعه وأستأصله جميعاً .
(٨٠) فى (رسائل) : عهد فى الأكل اليه ، وأجهز فى الفور عليه .
(٨١) ما بين القوسين لم يرد فى (رسائل أندلسية)
(٨٢) فى (رسائل) : وأظهر فى الالتعاق .
(٨٣) ما بين القوسين لم يرد فى (رسائل أندلسية)
(٨٤) فى (رسائل) : حتى ينتفين .
(٨٥) فى (رسائل) : بروراً بالنّعماء ، وبلوغاً فى الإحماء

مُطْرِباً[٨٦] ، إخلاصاً من الطَويَّةِ ، واستِرْسَالاً وتَصريحاً من السَجيَّة ، وإرسَالاً[٨٧] ، على أنَّني لو استعرتُ فى نعتهِ لسانَ أبى عبيد[٨٨] ، وأظهرتُ فى صِفتهِ بيانَ أبى زبيد[٨٩] ، ما انتهيتُ فى النُّطقِ الى نصابِك ، ولا احتويتُ فى السَّبقِ على قِصابِك[٩٠] ، واللّه ـــ تعالى ـــ يُبْقيكِ للنُّبلِ مُحيى أثرهِ ، وللفضلِ سيِّدَ ذِكْرِهِ وخبرِه[٩١] .

وتبلغ من سلامى الأوفر ، أعطَر من المسكِ الأذفر[٩٢] ، يُنافِحك بطيبِ ريَّاه ، ويُطالِعُك بحُسْن مُحيَّاه ، ما طلعَ من أفق بدر ، وانطبق على قلـبِ صدر[٩٣] ، ورحمةُ اللّهِ وبركاتُه .

---

(٨٦) فى (رسائل) : فصلاً مطرباً ، وهزلاً مغرباً

(٨٧) فى (رسائل) : إبلاغاً من السجية ، واسترسالاً للطويّة .

(٨٨) هو أبو عبيد القاسم بن سلام اللغوى (١٥٤ - ٢٢٣ هـ)

(٨٩) أبو زبيد : كذا فى الأصل : ولعله أبو زيد اللغوى (سعيد بن ثابت الأنصارى) المتوفى سنة ٢١٥ هـ

(٩٠) فى (رسائل أندلسية) : لو استعرت فى نعتى بيان أبى زبيد ، وفصاحة أبى عبيد

(٩٠) فى (رسائل أندلسية) : لما وصلت فى النطق الى نصابك ، ولا الى بعض من خطابك

(٩١) فى (رسائل أندلسية) : والله يبقيك لثمر النبل جانيا ، وللمكارم بانياً

(٩٢) فى (رسائل أندلسية) : ونقرؤك بعدها سلاماً أوفر ، يفوح كالمسك الأذفر .

(٩٣) فى (رسائل أندلسية) : ما انطبق على ب صدر ، وما طلع فى أفق بدر .

[٤]

[٦/ب] وكتب* أيضاً إلى بعض إخوانِهِ يصفُ له جامعَ قرطبةَ[١] — حرسها اللّٰهُ — :

عَمَّر اللّٰهُ [سبحانه][٢] بشمولِ السَّعادةِ رسمَك ، ووفر من جزيلِ الكرامةِ قِسمَك ، ولا برحتْ سحائبُ الإنعامِ تهمى عليك ثَرَّةً ، وأناملُ الأيَّامِ تهدى إليك كُلَّ مَسرَّةٍ .

لئِن كان — أعزَّك اللّٰهُ — طريقُ الوداد بيننا عامراً ، وسبيلُ الخطابِ[٣] غامراً ، لوجبَ أن نفضَّ ختمَه ، ونرفضَ كتمَه ، لاسيما فيما يدرُّ أخلافَ الفضائل ، ويهزُّ أعطافَ الشَّمائل ، وإنِّى شخصتُ إلى حضرةِ قرطبة — حرسها اللّٰهُ — منشرحَ الصَّدر ، لحضورِ ليلةِ القدْر ، والجامِعُ — قدَّسَ اللّٰهُ بقعتَه ومكانَه ، وثبَّتَ أساسَه وأركانَه — قد كُسِىَ بردةَ[٤] الازدهاء ، وجُلى فى معرِض البهاء ، كأنَّ[٥] شرفاتِه فلولٌ فى سنان ، أو أشرٌ فى أسنان ، وكأنَّما ضُرِبت على

---

* أى ابن صاحب الصلاة ، وقد وردت هذه الرسالة كاملة فى نفح الطيب ٥٥٢/١ – ٥٥٥) بعنوان [وصف جامع قرطبة لابن صاحب الصلاة] وقدَّم لها المقرى بقوله : « وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد ابراهيم ابن صاحب الصلاة الوُلْبى يصف جامع قرطبة بما نصُّه : الرسالة ... » وقد وردت رسالة ابن صاحب الصلاة ناقصة فى نسخة الأصل وتداخلت مع رسالة أخرى ، وقد أكملتها من النفح ونبَّهت الى ذلك فى موضعه ، كما قابلت ما ورد منها فى نسخة الأصل على النفح .

(١) جامع قرطبة من أعظم المساجد التى بناها المسلمون ، حتى قيل : ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناءً وأتقن صنعة ، وكان قد ابتدأ بناءه عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، ولم يكمل فى زمانه ، وكمَّله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه حتى صار المثلُ مضروباً به ، ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على مَنْ قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء ، وقد صنع مقصورته البديعة الحكم المستنصر أنظر (نفح الطيب ٥٤٥/١ ومابعدها)

(٢) زيادة من النفح .

(٣) فى النفح : وسبيل الاتحاد .

(٤) فى النفح : ببردة .

(٥) فى الأصل : كان

سمائه كِلل ، أو خُلِعت[٦] على أرجائهِ حُلَل ، وكأنَّ الشمسَ قد خلَّفتْ فيه ضياءها ، ونسجت على أقطارِه أفياءَها ، فترى نهاراً قد أحدق به ليل ، كما أحدق بربوةٍ سيل ، ليلٌ دامِس ، ونهارٌ شامِس ، وللذُّبالِ تألُّق كنضْنضةِ الحيّات، أو إشارةِ السبَّاباتِ فى التحيَّات[٧] ، قد أُترِعتْ من السَّليطِ كؤوسُها ، ووُصِلت بمحاجن[٨] الحديد رؤوسُها ، ونِيطتْ بسلاسلَ كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عُصِبتْ بها تفاحٌ مِن الصُّفْرِ ، كاللُّفاح الصُّفر : بولغَ فى صقلِها وجلائها ، حتى بهرت بحُسنها ولألائها ، كأنَّها جُليت باللَّهب ، أو أُشربتْ[٩] ماءَ الذَّهب ، إنْ سامتَّها طولاً رأيتَ منها سبائك عَسْجَد ، أو قلائد زبرجد ، وإنْ جئتَها عرضاً رأيتَ منها أفلاكاً ولكنَّها غيرُ دائرة ، ونجوماً ولكنَّها غيرُ سائرة[١٠] ، تتعلَّقُ تعلُّقَ القُرْطِ من الذِّفْرى[١١] ، وتبسطُ شُعاعَها بسْطَ الأديمِ حين يُفْرَى ، والشَّمْعُ قد رُفعتْ على المنارِ رفعَ البنود ، وعُرضتْ عليها عَرض الجنود ، ليجتلى طلاقة روائِها القريبُ والبعيد ، ويستوى فى هداية ضيائها[١٢] الشقىُّ والسَّعيد[١٣] ، [وقد قوبل منها مُبْيَضٌّ بمحمّر ، وعُورِض مخضّر بمصفرّ ، تضحكُ ببكائِها ، وتبكى بضحكها ، وتهلكُ بحياتها ، وتحيى بهُلْكِها ، والطِّيبُ تفغَمُ[١٤] أفواحُه ، وتتنسَّمُ أرواحُه ، وقتار الألنجوج والنَّد[١٥] ، يسترجعُ من رَوْح الحياةِ مائدٌ ، وكُلَّما تصاعدَ وهو محاصَر ، أطالَ من العُمرِ ماكانَ تقاصَر ، فى صفوف

(٦) فى الأصل : وخلعت ، وما أثبتناه عن النفح وهو أصوب .

(٧) فى الأصل : بالتحيات ، وما أثبتناه من النفح وهو أصوب .

(٨) فى الأصل : بمحاجز ، وما أثبتناه عن النفح .

(٩) فى النفح: وأشربت .

(١٠) فى النفح : ليست بسائرة .

(١١) الذِّفرى : أصل الأذن ، وقيل هو العظمُ الشَّاخِصُ خلفَ الأذن .

(١٢) فى الأصل : ضياها ، وما أثبتناه عن النفح .

(١٣) الى هنا تنتهى الرسالة فى نسخة الأصل ، وقد سقطت بقيتها لتداخلها مع رسالة أخرى ، وقد أكملنا بقيتها من النفح ووضعنا التكملة بين قوسين .

(١٤) فغَم : نفح ، وفَغْمةُ الطِّيب : رائحته)

(١٥) القتار : ريح البخور ، والالنجوج : عود طيب الرائحة يتبخَّر به ، والنَّدُّ : ضرب من الطيب يتبخر به أيضا .

مجامِر ، ككعوبِ مُقامر ، وظهورُ القِبابِ مؤلَّلةٌ ، وبطونُها مهلَّلة ، كأنَّها تيجان ، رُصِّع فيها ياقوتٌ ومَرْجان ، قد قُوِّس محرابُها أحكَمَ تقويس ، ووُشِمَ بمثلِ ريشِ الطواويس ، حتَّى كأنَّه بالمجرَّةِ مُقَرْطَق[١٦] ، وبقوسِ قُزَح مُمَنطَق ، وكأنَّ اللازوردَ حولَ وشومِه ، وبينَ رسومِه ، نُتَفٌ من قوادمِ الحمام ، أو كسفٌ من ظُلَلِ الغمام ، والنَّاسُ أخيافٌ فى دواعيهم ، وأوزاعٌ فى أغراضهم ومراميهم ، بين رُكَّعٍ وسُجَّد ، وأيقاظٍ وهُجَّد ، ومزدحِمٍ على الرِّقابِ يتخطَّاها ، ومقتحِمٍ على الظهور يتمطَّاها ، كأنَّهم برَدٌ خلالَ قَطْر ، أو حروفٌ فى عرضِ سَطْر ، حتَّى إذا قَرَعتْ أسماعَهم روعةُ التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا بالأثواب ، وتساقوْا بالأكواب ، كأنَّهم حُضورٌ طال عليهم غياب ، أو سَفْرٌ أُتيح لهم إياب ، وصفيُّك مع إخوانِ صِدْق ، تنسكِبُ العلومُ بينهم انسكابَ الوَدْق[١٧] ، فى مكانٍ كوكْرِ العصفور ، أستغفرُ اللَّهَ أو ككناسِ اليَعْفُور[١٨] ، كأنَّ إقليدس[١٩] قد قَسَم بيننا مساحتَه بالموازين ، وارتبطنا فيه ارتباطَ البيارِقِ بالفرازين[٢٠] ، حتَّى صار عقدنُا لايُحَلّ ، وحَدُّنا لا يُفَلّ ، بحيث نسمعُ سُورَ التنزيلِ كيف تُتلى ، ونتطلَّعُ صورَ التفصيلِ كيف تُجلى ، والقَوَمةُ[٢١] حوالينا يجهدون فى دفعِ الضَّرر ، ويَعْمدون إلى قرعِ العُمُد بالدِّرر[٢٢] ، فإذا سمع بها الصِّبيان قد طبقَّت فى الخافقين ، وسرتْ نحوهم سُرَى القين[٢٣] ، توهَّموا أنَّها إلى أعطافِهم واصلة ، وفى أقحافِهم حاصِلة[٢٤] ، ففروُّا بين الأساطين ، كما تفرُّ من النُّجومِ الشَّياطين ، كأنما

(١٦) القرطق : القباء ، تعريب : كرته

(١٧) الودق : المطر كُلُّه ، شديدُه وهيِّنُه .

(١٨) اليعفور : الظبى ، والجمع (اليعافِر)

(١٩) إقليدس : عالم رياضيات يونانى نشأ فى الاسكندرية ، وبرع فى الهندسة خاصة ، وألَّف فى ذلك كتابه (الأصول)

(٢٠) الفرازين : (جمع فرز) وهو ما اطمأن من الأرض .

(٢١) القَومةُ : القائمون على حفظ النظام .

(٢٢) الدِّرة : (بالكسر) : التى يُضْرَبُ بها .

(٢٣) سُرى القين : مثل يُضرَب فى عدم التَّصديق ، يقال فى المثل : « إذا علمت بسرى القين فاعلم أنه مصبح » (مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٦٧)

(٢٤) الأقحاف (جمع قحف) : وهى الجمجمة ، وقحف الرأس : ما فوق الدِّماغ

ضربَهم أبوجهم[25] بعصاه ، أو حصبهم عُمير بن ضابىء بحصاه[26] ، فأكرمْ بها مساعٍ تشوقُ إلى جنَّةِ الخُلد ، ويهونُ فى السَّعى إليها إنفاقَ الطوارفِ والتُّلْد[27] ، تعظيماً لشعائرِ اللّه ، وتنبيهاً لكُلِّ ساهٍ ولاه ، حكمة تشهدُ للّهِ — تعالى — بالربوبيَّة ، وطاعة ، تذلُّ كلُّ نفسٍ أبيّة ، فلم أرَ ، أدامَ اللّهُ — سبحانَه — عِزَّك ، منظراً منها أبهى ، ولا مخبراً أشهى ، وإذا لم تتأمَّلْه ، عياناً ، فتخيله بياناً ، وإن كان حظُّ منطقى من الكلام ، حظَّ السَّفيح[28] من الأزلام ، لكن ما بيننا من مودَّةٍ أُكِّدنا وسائلَها ، وأذمَّة تقلُّدنا حمائلَها ، يوجب قبولَ إتحافى سميناً وغثَّاً ، ولبس إلطافى جديداً ورثّاً ، لازلتَ لزنادِ النُّبلِ مُورِياً ، وإلى آمادِ الفضلِ مجرياً ، والتحيَّةُ العَبِقةُ الرَّيَّا ، المشرقة المحيَّا ، عليك ماطلعَ قمر ، وأينع ثمر ، ورحمةُ الله — تعالى — وبركاته ، انتهى][29] .

(٢٥) هو أبو جهم العدوى ، وقد روى أنه كان لايرفع عصاه عن أهله

(٢٦) هو عمير بن ضابىء البرجمى ، وكان قد حصب الحجاج حين جلس على المنبر بالكوفة

(٢٧) الطوارف : المستحدثة ، والتُّلد : ماورث من الآباء قديما . (جمع تليد)

(٢٨) السَّفيح : قدح لاحظَّ له فى الميسر .

(٢٩) الى هنا ينتهى ما نقلناه عن النفح تكملة لرسالة ابن صاحب الصلاة .

[٥]*

[٧/أ] [........ العيرات ، لابل كاشتياق المهرِ إلى زمن الصِّبا ، والأعرابيّةِ الى نسيمِ الصَّبا ، والوامقِ لالتماع البوارق ، والى العُذيبِ وبارق[١] ، فشدَّ للرحلةِ رحلَه[٢] ، واختارَ أن يفارقَ نجداً وأهلَه ، وإنْ كان لينشِد عن قلبٍ سليم ، قُبيلَ الوَدَاع وبين يدى الرَّسِيم :

فإنْ كنتَ قد فارقتَ نجداً وأهلَهُ   فما عهدُ نجْدٍ عندنا بذَميمِ[٣]

وقد تأبّط[٤] عصيَّ التسيار ، وتسنَّم شعبَ الأكوار ، وأعدَّ لسُرى الليِّلِ وتأويب النَّهارِ أشعثَ قد قَدَّ قميصَهُ طولُ السَفَار ، يتقدَّمُ الرَّكبُ فيهديه [بأنفاحك][٥] ويتأخرَّ فيحدوهُ بأمداحك ، وحسبه الآن — أعزَّ الله السيِّدَ الأجلْ ، زادٌ يُبلِّغُه المحلّ ، تنقلُ به فَرْضَك[٦] ، وتسقى به أرْضَك ، مستجدٍ لها شكراً يملأُ الفضاء ، ويُناطحُ الجوزاء ، دُمتَ — ومحلُّكَ سامٍ ، ومجدُك نامٍ ، وجودُك هامٍ إن شاء الله — عزَّ وجلَّ — والسَّلام .

* تداخلت هذه الرسالة مع الرسالة المتقدمة ، وسقطت بدايتها ولم يصلنا منها غير هذا الجزء.

(١) العُذَيب وبارق : موضعان يكثر ورودهما فى الشعر

(٢) الرَّحْل : مركبٌ للبعير والناقة وفى الأصل : رجله

(٣) الرَّسيم : من سير الإبل وهو فوق الذَّميل .

(٤) فى الأصل : بابط

(٥) زيادة يقتضيها مراعاة السجع فى قوله (بأمداحك)

(٦) فى الأصل : فصلك

[٦]

وكتب* إلى بعضِ من أثنى عليه خيراً :

سأشكرُ عَمراً ما تراخت منيّتي   أيادىَ لم تُمْنَنْ وإنْ هي جلّتِ[1]

لا جرمَ — أعزَّ الله السيِّدَ الأمجد ، مُنجدى ويدى ، ومُقيم أَوَدى، أن أعمرَ بشكرِه الزّمان ، وأحدَّ ذلك اللّسانَ والبيان ، وأُضاهى به صوحان وسُحبان[2] ، وقد جلى لى ودُّه عروساً ، وأوضح سُبُلَ السِّيادةِ بعد أن عفتْ دروساً ، ومنحَ درُّه البّر وقد حَشكت الأخلاف[3] ، ووصلَ سَببُ التأنيس حتى أوحشت الأخلاف ، واتفق مع نفسِه على الوفاءِ بحديثِ العهدِ لمَّا عمَّ فى قديمه الإخلاف ، فوفى وقد خان الزّمان ، ووفّى وقد نقصَ الميزان ، هذا والعهدُ لم يتأكد ، والتعارف كأن لم يكد ، فارتضى عنوان اللّقيان ، وما اقتضى أوان العرفان ، فللهِ خَبرٌ ما استسرَّ فَجْرُه ، حتى أضاءَ[4] فجرُه ، ولا استَتمَّ نشرُهُ ، حتّى عمَّ بِشرُهُ ، ولا توضّحت شمسُه حتى حُمد يومُه وأمسُه ، هذا واللّهُ [الواهبُ][5] المجد ، والحائز [بفضلِهِ][6] الحمد .

* أغلب الظنّ أن الضمير فى « كتبَ » عائد على ابن صاحب الصلاة ، صاحب الرسالتين (٣، ٤) هذا إذا افترضنا أنه صاحب الرسالة رقم (٥) التى سقطت بدايتها .

(١) ورد هذا البيت فى الحماسة (٢ : ٢٦٦ بشرح التبريزى) — وبعده بيتان آخران ، وقد نسبه التبريزى فى الحواشي (٢) الى رجل يقال له عمرو بن كميل ، وذكر أنه قال الأبيات الثلاثة حين نظر اليه عمرو بن ذكوان وعليه جبة بلا قميص ، فجعل يسعى له ويتشفع حتى ولى قضاء البصرة . وورد البيت كذلك فى الأمالى (١/٤٠) منسوباً لبعض الأعراب .

(٢) سحبان بن وائل : كان لسناً بليغاً ، وبه يضرب المثل فى البيان والفصاحة ، فيقال : أفصح — أو أخطب — من سحبان بن وائل (الميدانى ١ : ٢٥٩)

أما صوحان ، فهو من خطباء العرب المشهورين ، وقد ذكر الجاحظ ثلاثة من بنى صوحان يشتهرون بالفصاحة والخطابة وهم : صعصعة بن صوحان ، وزيد بن صوحان ، وشيخان بن صوحان (البيان والتبيين :٦٦).

(٣) الأخلاف : الضروع ، وحشكت : امتلأت ، والحَشَكُ : سرعة تجمُّع اللبن فى الضروع .

(٤) فى الأصل : أضا   (٥) زيادة يقتضيها السياق   (٦) زيادة يقتضيها السياق .

[٧/ب]

هكذا هكذا تكونُ المعالى طرقُ الجدِّ غيرُ طُرْقِ المزاحِ(٧)

* * * *

هذى المكارمُ لا قعبان من لبنٍ شيبا بمجدٍ فعادا بعدُ أبوالا(٨)

قد وجبَ ــ أعزَّك الله ــ أن أشكرَ شُكرَ الرِّياض ، للوابلِ الفيَّاض ، لا بل شكر بارض النَبات(٩) ، تعارِض البيات ، تاللَّهِ لأقومنَّ بكُلِّ ناد ، مقامَ قسٌ فى إياد(١٠)، ولأثنينَّ ثناء زهوِ الوِهاد ، على مطرِ العِهاد(١١)، لا بل ثناءَ حَسَّان على آلِ غسَّان(١٢) ، وشاعر وَدَّان على سُليمان(١٣) ، وذبيان على النُّعمان(١٤) ، ولأعارِضُ بأمداحِهِ.إحسانَ ابن أبى سُليمان ، ما اختلفَ الملوان(١٥)، وتعاقبَ الجديدان(١٦) ، ولأجزيَن هذا الندبَ الكريمَ بوجهِ

---

(٧) ورد البيت بدون نسبة فى نفح الطيب (٣ : ٥٧٣)

(٨) البيت لأمَيه بن أبى الصَّلت (ديوانه ٤٥٩) وروايته : « شيبا بماءٍ » .

(٩) البارِضُ : أول ما يظهر من نبت الأرض .

(١٠)قس : هو قس بن ساعدة الإيادى ، من أبرز خطباء العرب وحكمائهم فى الجاهلية ، وإياد : قبيلته .

(١١) العِهاد : أول المطر الوسميّ ، (جمع : عَهْد)

(١٢) حُسَّان : هو حسَّان بن ثابت الانصارى ، وقد اشتهر بمدحه للغساسنة . فى الجاهلية ، وقيل إنه كان يقيم بالمدينة عاماً ويصمد الى الغساسنة عاماً يمدحهم ، ويسترفدهم ، ويستمطر معروفهم . (ديوانه : ٢٣)

(١٣) ودَّان : قرية جامعة من نواحى الفُرْع بين مكة والمدينة ، وقد أكثر نصيب من ذكرها فى شعره ، فقال لسليمان بن عبد الملك : (معجم البلدان ٥ : ٣٦٥)

قفوا خبرونى عن سليمان إننى لمعروفة من آل ودَّان راغبُ

(١٤) هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وقد مدحه النابغة الذبيانى ثم ساءت العلاقة بينهما ، ولهما فى ذلك خبر مشهور .

(١٥) الملوان : اللّيل والنَّهار ، ويُقال : لا أفعله ما اختلف الملَوان .

(١٦) الجديدان : الليل والنهار . وفى الأصل الحديدان.

أنضر[١٧] من الرَّوضِ الباسم ، حين أجزى المليمُ جزاءَ عَدىٍّ بن حاتم[١٨] .
هذا — أعزَّك الله — ما لايعترض فيه انثناء ، ولا يزيدُ على عقبهِ ثناء ، وشكرهُ لا يسوغُ معه اطّراح ذكرٍ وإشادة[١٩] ، لهما عليَّ فى حماك أعدلُ شهادة ، فخذنى مرتهناً بشكرك ، بقيَّةُ عُمرى وعُمرك ، والله يُطيلُ أمَدَك ، ويصلُ بالخيرتِ يدَك ، ويُقيمُ فى المكرماتِ أودَك ، والسَّلام .

---

(١٧) فى الأصل : انظر

(١٨) هو عدّى بن حاتم الطائى ، ويكنى أبا طريف ، كان نصرانياً فأسلم وفقئت عينه يوم الجمل كما قتل ابنه . (أنظر فى ترجمته : المؤتلف والمختلف ٢٥١)

(١٩) فى الأصل : وإساده .

[٧]

رسالةٌ كتب بها الوزيرُ الكاتبُ أبو مروان بن زكرياء :[١]

كتبتُه ــ أطال الله عزيزاً بقاءَك ، ووصلَ ظهوركَ واعتلاءَك ، وزيَّنَ بكواكبِ السَّعْدِ سماءَك ، عن نَفَسٍ شَعاعٍ[٢] ، وهوىً فيك مُطَاع ، وودٌّ كمرآة الصناعِ صقيل ، وحمدٍ كما افتنَّ سجعُ الهديل ، وقد احتللتَ الوطن ، واستقبلتَ الزَّمن ، واسترجعتَ بعد نفارة الوسَنَ ، بعدَ أىِّ جهدٍ صليتُه ، وشدٌّ لقيته ، فارقتُك تلك الليلة والجوُّ أكلَفُ[٣] ، والسَّحابُ أوطف[٤] ، ومخايلُ المطرِ بادية ، ورعودُ الغمامِ حادية ، وأنت بكرمِ تلك الأخلاق ، تُولع بمواصلةِ الإشفاق ، فسرتُ ركضاً[٥] ، وقطعتُ الأرضَ طولاً وعَرْضاً ، حتَّى وصلْتُ دونَ الإخوان ، فوجدتُ ابنَ فُلان ، فأوسعَ الكُلَّ مبرَّه ، وأرقانا من منزلِهِ المجرَّة ، فَصَدَقتْ تلك الأنواء ، ووكفتْ[٦] إلى السَّحَرِ السَّماءُ ، ولمّا كان قبيلَ الصَّباح [٨/أ / وتداعتْ بيوتُ اللَّهِ بالفَلاحَ ، سِرْنا وللأنواءِ حَوْلَنا هدير ، وللرَّعْد صَخَبٌ لا حفى ولا هجير ، إلى أن قطعنا وادىَ القلعة ، وقد أُترِعَ كُلُّ مسيلٍ وتلعة ، فبادرتُ عبوراً ، وكما تعلُمنى لا أتدلَّى غروراً ، فانتدبَ فى المخاضةِ مخاطِراً بنفسِهِ فقاسَها ومثلُها بمثلِهِ تُقاس ، والصَّعبُ بالصَّعب

---

(١) هو الوزير الكاتب عبد الملك بن زكرياء ، أبو مروان ، قرطبى ، سماه ابن بشكوال فى مشيخته (الذيل والتكملة ١/٥ : ١٨)
وأغلب الظن أنه كتب هذه الرسالة للوزير الكاتب أبى مروان عبد الملك بن أبى الخصال ، وقد ردَّ عليه بالرسالة رقم (٢١) فى هذه المجموعة .

(٢) الشَّعاع : المتفرّق .

(٣) أكلف : متغيِّر

(٤) السّحاب الأوطف : هو الذى فيه استرخاء فى جوانبه لكثرة الماء ، والوطفاء : الدِّيمةُ السحّ الحثيثة ، يقول امرؤ القيس : ديمةٌ هطلاء فيها وطَفٌ وتوصف السُّحب بأنها ذوات أهداب

(٥) فى الأصل : ركض

(٦) وكف : هطل وقطر . وسحابةٌ وكوف : إذا كانت تسيل قليلا قليلا

ينتاس[٧] ، فعبرنا وتكاد تذهبُ فى عبابهِ من المطىِّ ، بعضُ مراكبِ النُّميرى ، فسرنا إلى منزله عابرين ، غيرَ مستضيفين ، فلقينا من تهلُّلِ محيَّاه ، وعرضَ علينا محلَّه ومرآه ، فتىً محضُ البِشْرِ ، طلقُ المحيَّا ، عليه زىُّ البوادى وعِزَّتُها ، وكرمُ نفوسِها وسجيتها ، تلحف الأرض إزاره ، وقد بنى بقارعةِ الطَّريقِ دارَه ، وأوقدَ للكرمِ بالبقاعِ نارَه ، فكِدْنا استجلاءً لتلك المذاهب[٨] ، نحلُّ به لولا نجاءِ الرَّكائب ، والشَّوقُ إلى الوطنِ يجذب ، والرأىُ إذا نفذ القدَرُ يَعْزُب ، فلمَّا أجزناهِ وفاتَ المنزل ، أقبلتْ سودُ الغِمامِ ببرقِها تتهلَّلُ ، وقد تراكبتْ حبالاً ، واغرورقتْ تندى ظِلالاً ، ورأينا أنْ قد أظلَّنا الرِّىُّ ، وعزبَ هناك الرأىُ ، فانسَلَبْنَا[٩] نتقاذفُ سيْراً ، ونأملُ من الله خَيْراً ، إلى أن وصلنا وادى المليحة ، قور نِقَاع[١٠] ، وتِلَاع قُراع[١١] ، قد تدانت جبالُه السُّود ، واشتبكتْ حِبالُهُ القُود[١٢] ، ومزادُ الودْقِ[١٣] تنسَرِبُ ، وشُجاعُ البرقِ يضطربُ ، ومدافِعُ السَّيلِ تختطبُ ، وقد بلغ الزُّبى[١٤] ، وصيَّر من كثبانِه الرُّبى ، فلجأنا بضِفَّته وبصفحِ جبلهِ إلى نؤيٍ مثلما انفصمَ السُّوار ، بكهفٍ كأنَّه من الضِّيقِ وِجار[١٥] ، وقد دعوتُ من صخرِهِ أن يتزيَّل ، وتربه أن يتهيَّل ، والغمامُ قد انجلتْ عَزاليه[١٦] ، وانتثرت شهبُ لآليه ، بَرَدٌ كالثغور ، لم

(٧) كذا فى الأصل ،

(٨) فى الأصل : المداهب ؛ تحريف .

(٩) السَّلب : السير الخفيف السَّريع ، واسلبتْ الناقة : إذا أسرعت فى سيرها حتى كأنها تخرج من جلدها ، وفى الأصل : فاستلبنا

(١٠) القور : جمع (قارة) ، وهى الأعاظم من الآكام ، والأصاغر من الجبال ، وهى متفرقة خشنة ، كثيرة الاحجار ، والنِّقاع : الأرض التى يستنقع فيها الماء (القيعان)

(١١) التلاع : جمع (تلعة) وهى مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . وهى أرض غليظة مرتفعة ، والقراع : الأراضى التى لاتنبت شيئاً ومكان أقرع : شديد صلب .

(١٢) القود : الطوال .

(١٣) الودق : المطر .

(١٤) الزُّبى : الروابى لايعلوها الماء ، فإذا بلغها السَّيل كان جارفاً مجحفاً ، وفى المثل : « بلغ السَّيل الزُّبى » يُضرب لما جاوز الحد .
وفى الأصل : بلغ الدبى .

(١٥) الوجار : جُحْر الضبع والذئب والثعلب ونحو ذلك ، وهو مثل الكهف يكون فى الجبل .

(١٦) العزالى : جمع العزلاء ، وهو مصب الماء من أسفل القربة . ويُستعار للسحب ، فيُشبه اتساع

تقهِ الأثوابُ عن الظُّهور ، والسُّراح[١٧] يهيمُ خريراً ، وكُلُّ منحدرٍ قد صار غديراً[١٨] ، إلى أن أجنَّنا المساء ومالنا وللجيادِ إلاَّ بقيَّةُ [٨/ب] زادٍ ، من يُصِبْ منه إكثير عددٍ ، فقبضةُ يدٍ[١٩] ، فبتنا طيفَ فلاةٍ ، إلى جنبِ أرطاةٍ[٢٠] ، أفحص المجالس بها مفحصَ قطاة[٢١] ، أو مركزَ قناة ، وإلى جنبى غلامُ صغيرُ السِّن ، كهلُ القول ، اعتقدتُه ألمَّ بى سَؤالاً ، فأشبهتُهُ كَعْباً نَوَالاً ، وكان جدَّ فى السَّيرِ جدَّنا ، والتزمَ فى الصومِ حدَّنا ، فأشفقتُ له لذلِك ، وتذكرتُ به أبا القاسم ، فازدريتُ[٢٢] له مايقعُ ببالِك ، ولمَّا مضى من اللَّيلِ هزيع ، وحانَ للقمرِ طلوع ، أقلع المطر ، وانطلق من فَنَدِه[٢٣] النَّظر ، ونمَّ بنوافحه الزَّهَر ، بوادٍ قد أُوشِمَتُ ثمُره ، والتفت شجرهُ ، ومالَ أثلُهُ دلالاً[٢٤] ، وانعطفَ جذعُه هِلالاً ، وصار رجال من الرَّكب ، إلى سَجْرِ الدَّب[٢٥] ، وانتبذتُ حجرة ، وامتلأتْ نفسى مسرَّة ، وبتُّ بخيرِ عَمل ، وأفضلِ أملٍ ، ناعَم البال ، حسنَ الحال ، ولَّما أصبح [الصباح][٢٦] ارتحلنا ، وبلغتُ المنزلَ ظهرَ يوم الجمعة ، وأنا أحمدُ اللَّهَ تعالى ، جلَّت قدرتُه .

المطر واندفاقه بالذى يخرج من فم المزادة ، ويقال للسحابة اذا انهمرت بالمطر الجود : قد حَلَّتْ عزاليها وأرسلت عزاليها ، وفى الحديث : أرسلت السَّماء عزاليها ، أى كثر مطرها .

(١٧) السُّراح : الطريقة الظاهرة المستوية فى الأرض ضيقة ، وفى الأصل : الشراح ؛ تصحيف .

(١٨) فى الأصل : عديراً

(١٩) كذا بالأصل ، والمعنى قلق .

(٢٠) الأرطاة : شجرة تنبت بالرمل ، وتشبه الغضب ، والجمع (الأرطى)

(٢١) مفحص القطاة : الموضع الذى تبيض وتفرخ فيه من الأرض ، ويقال : ليس له مفحص قطاة ، والفحص : شدة الطلب والبحث خلال كل شيء .

(٢٢) فى الأصل : فازددتُ

(٢٣) الفَنَد : الضعف ، والكذب ، والخطأ .

(٢٤) الأثل : شَجَرٌ طويل عظيم يشبه الطرفاء .

(٢٥) الدَّب : الموضع الكثير الرَّمل ، والسَّاجر : الموضع الذى يمرُّ به السَّيل فيملؤه .

(٢٦) زيادة يتطلبها السيّاق .

[٨]

رسالةُ كتب بها ذو الوزارتين أبو بكر بن عبد العزيز[1] إلى ابن المالقى مشرف تلمسان معتنياً بأبى المجد بن نعيم[2] ـــ رحمهم الله .

فديتُك هل فى الكأسِ فضلُ أنالُهُ ... فإنى أغـنّى منذ حينٍ وتشربُ[3]

وَهَبْتَ على مقـدارِ أهـلِ زمانِنـا ... ونفسى على مقدارِ كفّيك[4] تطلبُ

مذاهبُه ـــ أدامَ اللهُ عِزّه ـــ بَرّةٌ ، وسحائبُهُ ثَرّةٌ ، وما يُعْرَفُ منه استعمالُ المجاز ، ولا ضِيقُ الحِجاز ، ولكن إذا لجَّ الغريمُ ، بخلَ الكريم . وما زلتُ مذ أعوامٍ كثيرةٍ أُوالى المخاطبةَ ، وأصِلُ بالشّكوى المعاتبة ، إلى أن حرّكته[5] الذِّكرى ، واستيقظ لعادتِهِ الجميلة وكانت جفونه لاتكرى ، وجاءتنى منه رقعةٌ قد تكلّفها بيُمْناه ، وإذا الله يسَّر عقداً مِن سناه ، إلاّ أنّها وردتْ تُمشى على استحياء ، وأقبلتْ تُخْبِرُ عن كَلالٍ وإعياء ، وجسّتَ يدَ العليلِ فلم تستوفِ الشّفاء ، ووهبت القليلَ ولستَ أرضَى من الوفاء باللّقاء ، فلا

(١) هو أبو بكر محمد بن أبى مروان عبد الملك بن عبد العزيز اللخمى الإشبيلى ، ويعرف (بابن المرخى) الوزير الكاتب ، سكن قرطبة واختصّ بأمرها أيام يوسف بن تاشفين ، أبى بكر محمد ابن الحاج داود ،وتنقّل معه فى المغرب (أثناء ولايته على فاس) وفى الأندلس حتى قُتل ابن الحاج سنة ٥٠٨ هـ فى معركة البورت ، واستكتبه علىّ بن يوسف بن تاشفين ، وظلّت صلته قوية بالمرابطين حتى وفاته سنة ٥٣٦ هـ .

انظر فى ترجمته :[الذخيرة ٥٣٣/٢/٢ ، المغرب ٣٠٧:١ ، المطرب ٢٠٨ ، قلائد العقيان ١٦٣]

(٢) أبو المجد بن نعيم ؟

(٣) البيتان لأبى الطيب المُتنّبى (ديوانه ٣٠٦/١) من قصيدة يمدح فيها كافوراً ويقول فى مطلعها :

أغالبُ فيكَ الشّوقَ والشّوقُ أغلبُ ... وأعجبُ من ذا الهجرِ والوَصْلُ أعجَبُ

ورواية صدر البيت فى الديوان : « أبا المِسْكِ هل فى الكأسِ فضلٌ أناله »

(٤) فى الأصل : كفك .

(٥) فى الأصل : تحرك

يسل ـــ دام عِزّه ـــ [٩/أ] عن نَفْسٍ نخرتْ عظامُها ، وكثر حطامها[٦] ، فحيناً تستقضى عليه بالإدلال ، وحيناً تعذرُهُ بالأشغال ، وكيف ماتصرفت الحالُ بين مَنْعٍ وبدل ، ومُسَامحةٍ أو عَذْل ، فأنا وليُّه الأحفى ، وسجيره[٧] الأصفى ، وسقى اللّهُ عهده العهاد[٨] ، ولازال يبذّ[٩] الأمجاد ، ويُخجل القطرَ إذا جاد . وإنَّ الوزيرَ الكاتبَ أبا المجدِ بن نعيم كتب يذكر إكرامَه ، ويشكرُ إنعامَه ، ويصف ما يلقى إليه من برٍّ يفسحُ محلَّه ، ويمدُّ ظِلَّه ، وهو ـــ أدام اللّهُ رِفْعتَه ـــ سميُّه إلى المُرتقى النَّبيه ، ويَحفظُ فيه كرمَ أبيه ، فقد لعمرى كانَ مِمَّن يُرجى نَدَاهُ ، ويُعطِى كُلَّ ما ملكتْ يداه ، ومثلهُ نهج للكرامِ سُنَّةً يُهتدى بمنارِها ، ويُقتدى بآثارِها ، أن يُحفظوا بعد العناء ، ويُكرَموا فى الأبناء ، وتقبُّلْ شهادةَ الثَّناءِ ، لازلتَ[١٠] للأكرمينَ إماماً ، وللمُمْحِلين غَماماً ، بمنّه ، والسَّلام .

---

(٦) فى الأصل : كثر حضامها ؛ تصحيف .

(٧) السَّجير : الصديق ، وسجيرُ الرَّجُل : خليلُه وصفيُّه ، والجمع : سُجَراء ، ومنه قول أبى خراش :

وكنتُ إذا ساجَرْتُ منهم مُساجِراً ... صَبَحْتُ بفضلٍ فى المروءةِ والعِلْمِ

(اللسان : سجر)

(٨) فى الأصل : العهاذ ؛ تصحيف .

(٩) فى الأصل : يبد ؛ تصحيف .

(١٠) فى الأصل : لازال

[٩]

وكتبَ[١] إلى الفقيه أبي الحكم بن حسّون[٢] يعزيه بأبيه ويُهنيه بالولاية[٣] بعده :

أطال اللّهُ بقاءَ الفقيهِ الأجلّ ، والنوائبُ لاتعمرُ قناته ، والرّزايا[٤] لاتقرعُ صفاته ، ولازال بأعباءِ المكارمِ ناهضاً ، ولنفسهِ عند العظائمِ رابضاً . مَنْ حَلَّ محلّي — أدام اللّهُ عِزّك — مِن مُشايعتِك وموالاتِك ، ومُظاهرتِك ومُصافاتِك ، كان خليقاً أن يلبسَ ملبسَ التعزية عند نائبةٍ تنوبُ ذلك الجلال ، ويجلسُ[٥] مجلسَ التهنئةِ لما يتجدّد لتلك السّعادةِ مِن الاطّرادِ والاتصال ، وإنَّ وفاةَ القاضي أبيك — نضّر اللّهُ روحَه ، ونوّر ضريحَه ، وردتني فلقيتُ معها وجهَ الدّهرِ أربَد[٦] ، وصحبتُ العُمرَ أنكد ، وتعاظمت المصائبُ[٧] فدهشتُ حائِراً ، وتجلّلتني الأوصابُ فعميتُ ناظراً ، وخاصمتُ الحِمامَ فغلبني مناظِراً[٨] ، ولم تكدْ يَدُ التبلّدِ ، تُسْلِمُني إلى التجلّد ، ولاكتابُ الأرزاءِ[٩] يفتح لي بابَ العَزاء ، استعظاماً لِما أصاب ، واستسلاماً

---

(١) الضمير يعود على ذي الوزارتين أبي بكر بن عبد العزيز صاحب الرّسالة المتقدّمة .

(٢) أشار ابن لأبار في (الحلة السيراء ٢٤٢/٢) إلى أنَّ أبا الحكم بن حسّون كان والياً على مالقة في زمن المرابطين ، وذكر أنَّ الكاتب أخيل بن ادريس الرُّندي لجأ اليه بمالقة فراراً من ابن غانية ، وقد توفي أخيل سنة ٥٦٠ أو ٥٦١ هـ ، ويذكر الحميري أن أهل مالقة ثاروا على ابن حسون في آخر أيام المرابطين وصدر دولة الموحدين ، فقتل نفسه . وسبيت حريمه ، ومزقوا في البلاد كل ممزّق . [صفة جزيرة الأندلس ١٧٩]

(٣) في الأصل : بولاية .

(٤) في الأصل : الدرايا ؛ تصحيف .

(٥) في الأصل : ومجلس .

(٦) أربد ، من الرُّبدة : وهو لون بين السوادِ والغُبْرة

(٧) في الأصل : المصاب .

(٨) في الأصل : مناطراً ، تصحيف .

(٩) في الأصل : الأدرا ، تصحيف .

لشؤبوبِه[١٠] حين صاب ، ولَّما انكشفَ قِناعُ الوجد ، واستنزلَ [٩/ب] راكبُ المَسْلكِ النَّجْد ، جلبَ الصَّبْرُ عنانى إلى طريق الثواب ، وردَّ الأجْرُ عيانى إلى تحقيق المآب ، ورجَّحتُ بينَ ما أخذَ الدَّهرُ ووهب ، ومَاثلتُ بين ما أعطى ونَهَب ، فوجدتُه قد آلامَ وأحمد ، وأوقَدَ وأخمد ، وأمهل ثم صفَّد ، وأخلق ثم جدَّد ، فغفرتُ ذنبَه لإحسانِه ، وسترتُ سُخْطَه[١١] لرضوانِه ، وقلتُ إن كان ذلك الطَّودُ هُدَّ ، فهذا الجبلُ الرَّاسى مُدّ ، وإنْ كان ذلك النَّجمُ غار ، فهذا النُّور أنار ، وإنْ كان ذلكِ الشِّربُ غاض ، فهذا المورِدُ عاض :

وما ماتَ مَنْ أنت ابنُهُ لاأرى الَّذى ... له مثل ما أسدى أبوك وماسعى

وإنَّ مِن الحكمةِ فى عِمارةِ الدُّنيا أن يبقى الخَلَفُ ، بعد ذَهابِ السَّلف ، وأبوك ـــ رحمه اللّهُ ـــ قد استوفى عُمرَه فى برٍّ استحقَّه ، وحُرٍّ استرقَّه ، وخيرٍ قدَّمَه ، وفضلٍ نقلَ فيه قدمَه ، ثم صارَ إلى اللّهِ ، وحسناته تصحبُه ، ومكرُماتُه تعقبه ، وفضائِلُه تؤْنِسُه ، والآثامُ لا تُدنِّسُه ، وخلَّفكَ تسدُّ موضعَه ، وتُنيرُ مطلعَه ، وتقعدُ مقعدَه ، وتشهدُ مشهدَه ، وتلبَسُ أثوابَه ، وتُرضى أصحابَه ، وتحلُّ محلَّه بعده . وكانَ كالغيثِ الَّذى أقلعَ ، وترك الغدير والمرتع ، بعد ما روَّض المصيفَ والمربَع ، وأنت ـــ أدامَ اللّهُ عِزَّك ـــ مِمَّن يرغبُ فى الجزيل ، وهوالأجْر ،ويحضُّ[١٢] على الجميل ، وهو الصَّبر ، فإنَّك باللّهِ أدرى ، وإلى ما يزلفُ لديه أهدى ، وقد كانت الدُّموعُ أقسمت ألاَّ تريم العيون ، حتَّى تُفجِّرَها تفجير العيون[١٣] ، فالآنَ حين فتحناها بأيدى الجَذَل ، ودفعناها بأكُفِّ العمل ، جفَّ سبيلُها ، وانقطعت فى الخدِّ[١٤] سُبُلُها ، وإنِّى ـــ علمَ اللّهُ ـــ لمِنْ مُقدَّمى أوليائك ، وحامِلى لوائك ، وفى

---

(١٠) الشؤبوب : الدُّفعةُ من المطرِ وغيرِه .

(١١) فى الأصل : شخطه

(١٢) فى الأصل : ولا يحضُّ .

(١٣) العيون الأولى : التى يُبصر بها النَّاظر ، والثانية : ينابيع المياه التى تنبع من الأرض وتجرى .

(١٤) فى الأصل : فى الحدّ : تصحيف

بقائِك ـــ واللَّهُ يُعليكَ ـــ ما يفسَحُ المجال ، ويدْفعُ الأوْجال ، ويعفى على أثر اللَّوعة ، ويسكِّن أُوارَ تلك الرَّوعة ، فإن رأيتَ أن تخبرَ عن موضع السّلوانِ من قلبِك ، وكيفَ تسليمُك لربِّك ، تأدَّبت بأدبِك ، ودأبتَ فى السّلوان مثل دَأْبِك ، إن شاءَ اللَّهُ تعالى ، والسَّلام .

[١٠]

وكتبَ* إلى أخى أبى الحكم المذكورِ يعزيه فى أبيه ويهنيه بالشورى :

[١٠/أ] أطالَ اللَّهُ بقاءَ الفقيهِ الأجلّ المشاور ، والنَّوائبُ لا تؤود مَتْنَه[١] ، والرَّزايا[٢] لاتهدُّ ركنَه ، ولا زال الفضلُ يُعليه ، والعلمُ يُسليه .

عزيزٌ علىَّ ــ أدامَ اللَّهُ عِزَّ سَيِّدى الأعلى ــ أنْ أراسلَه مُعزِّياً ، وأمنٌ إلى مخاطبتهِ مُسَلِّياً ، حين تضعضعَ ركنُ المحامِد ، وغاضَ شربُ الموارِدِ ، وطرق النَّاعى فأوجعَ ، وهتفَ الدَّاعى فأصمَّ وأسمع ، فأىُّ ناعٍ للمجدِ من جميعِ أنظارِهِ ، وأىّ داعٍ للفَضْلِ إلى شقِّ ثوبهِ وإزارِهِ ؟ أشهدُ لقد قلقلَ الجبال وتقلقل الأخياس والأغيال[٣] ، وطمسَ نور الكواكب ، وأذرفَ الدموعَ السَّواكب ، وجعلَ الحزنَ نُذُراً ، وبذرَ الجوى بِذَراً ، وفاةُ أبيك طودِ العلم الرَّاسِخ ، وعلمِ السيادةِ الشَّامخ ، ويعلمُ اللَّهُ أنى لبستُ[٤] العيش بعدَه وقد تقلَّصتْ أذيالُه ، وقُلِّصتْ ظِلالُه ، وأغصَّ شرابُه ، وأخلق قرابُه ، ولصقتْ بالتراب أقرابه ، فلا تسلْ عن دمعٍ قد أُرسِلتْ أسرابُه ، وحبلٍ للحياةِ قد جُذَّتْ أسبابُه ، وما أُخِّرَ المخاطبةَ فى أوانِها ، والتعزيةَ عند هجومِ حَدَثَانِها ، إلاَّ أنَّ الحادثَ وردَ على الخاطرِ فبلَّدَه ، وعلى الأنسِ فبدَّدَه ، وعلى القلبِ فضيَّق مُدَدَه ، وعلى العلم فقطع مَدَدَه ، فبأىِّ يدٍ أكتبُ ، وقد عضَّ الدَّهْرُ أنامَلهَا ، وبأىِّ نفسٍ أخطبُ ، وقد غصب الموتُ مأمولَها وأملَها ، ولولا

---

* الضمير يعود على ذى الوزارتين أبى بكر بن عبد العزيز صاحب الرسالتين المتقدمتين (٨ ، ٩).

(١) تؤود متنه : تُثقله .

(٢) فى الأصل : الدرايا ، تصحيف .

(٣) الأخياس : جمع : الخيس ، وهو موضع الأسد ، والشَّجرُ الكثيرُ الملتف ، والأجمة ، وكذلك الأغيال (جمع : غيل)

(٤) فى الأصل . لبست ؛ تصحيف ظاهر

مناظرةُ الأيَّام بِلسانِه ، ومقارعتُها بنصلهِ وسنانهِ ، لما رَمَتْ فى حبالِها أخيذاً ، ولما رُمْتُ مع وثاقها نفوذاً ، ولكن بقاءه يأسو الكَلمْ[5] ويسدُّ الثُّلْم[6] ، ويَلَمُّ الشَّعث ، ويُبرِم الحبلَ المنتكث[7] ، وقد سدَّ — أعزَّه اللّهُ — مسدَّ أبيه ، وتخطَّى إلى محلِّه النَّبيه ، وتقيَّل آثار أسرتِه السادةِ وذويه ، وشهدتْ له بالفضائل ، ألسنُ الفواضل ، وبالمفاخِرِ أفواهُ الدَّفاتر ، فإن رأى أن يعينَ على الأسى ، ويواسى من ائتسى ، أسدى مِنَّة ، وقوَّى مُنَّة[8] ، إن شاء اللّهُ تعالى ، والسَّلام .

(٥) فى الأصل : العلم ؛ تصحيف .

(٦) الثُّلْم : الكسر والخَلَل ، فى الأصل : سرى السلم : تحريف .

(٧) النكث : النقض ، يُقال : نكثَ العهدَ والحَبْلَ أى نقضه فانتقض .

(٨) المُنَّة : (بالضم) : القوة : (وبالكسر) : العطية ، والاعتداء

[١١]

وكتب إلى القاضى أبى محمد بن عطيّة(١) فى جانب الزّرزور :(٢) :

سيِّدى المعظَّم ، ووليِّى فى اللّهِ الأعز المقدَّم ، الذى وقف بى هواه حيث شاء ، فليس لى مُتأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمَ ، وقصرت [عنهما](٣) [١٠/ب] فلم أغادرْ منهما من متردَّم(٤) ، دُمتَ تُكرمُ النَّزِيل ، وتغَنم الجَزِيل ، وتحصد مراعى جودك المشتَّتِ الهزيل ، من كانت آناؤه على الجدِّ مقصورة ، وأوقاتهُ بالحقِّ معمورة ، ونفسُه فيما يُرضى الربَّ [مغمورة](٥) ، فلا بأسَ أن تستجمَّ طباعهُ ببعضِ المُطلَقِ الحلال ، ويحمض بعد الإخلال ، ويأذن فى سماع النَّشِيد ، وهذا الزَّرزورُ دعوتُه زُور ، وأمُّه ليس بالصَّقر مقلاة نزور(٦) ، واتفق هذا الاسم بعدَ بائسٍ مثله فاتفقا فى الشُّكر والدُّعاء ، ولفَّقا مارأياه من

. الضمير يعود على ذى الوزارتين أبى بكر بن عبد العزيز صاحب الرسائل المتقدمة (٨ ، ٩ ، ١٠)

(١) هو القاضى أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية ، صاحب التفسير المعروف ، من أهل غرناطة ، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث ، واستقضى بمدينة المرية سنة ٥١٩ هـ وكان يكثر الغزوات فى جيوش المرابطين ، وله مكاتبات ومراسلات مع معاصريه ، وتوفى سنة ٥٤٢ هـ أو ٥٤٦ هـ [بغية الملتمس ٣٧٦ — معجم الصدفى ٢٥٩ — الذيل والتكملة ١ : ٨٠ ، القلائد ٢٣٩ — الصلة ٣٦٧] .

(٢) الزرزوريات : ضرب من رسائل التفكه والسخرية ، نشأت فى الأندلس ، وقد بدأها أبو الحسين بن سراج حين خاطب بعض أهل العصر برسالة يشفع فيها لرجل يعرف بالزريرير (الذخيرة ٣٤٧/٢/٢) وقلّده كتاب الأندلس فى ذلك .
وانظر : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين ٢٩٥) .

(٣) ما بين القوسين زيادة يتطلبها السياق ، ومكانه فى الأصل جملة تقول : « ونحن لحقه مقدمون ولما أوجب الله من فرض » وقد وردت هذه العبارة بنصها فى آخر سطر من الورقة التالية [١١/أ] ومكانها هناك بالفعل حسبما يتضح من السياق ، وقد وُضعت هنا سهواً من النّاسخ .

(٤) إشارة الى قول عنترة فى مطلع معلقته « هل غادر الشعراء من متردَّم » .

(٥) زيادة يتطلبها مراعاة السجع .

(٦) فى المثل : « أمُّ الصَّقر مِقلاتٌ نزورْ » ، يُضرب فى قِلّة الشيء النَّفيس . وفى الأصل : ترور ؛ تصحيف

الانتماء الكاذبِ والادّعاء ، وكان الأوَّل منهما على علمك يغشى الدُّور ، ويلتقطُ القُرصَ[٧] البيض والقُدور ، ويدورُ مع الولائمِ حيث تدور ، ويُرَجِّعُ — مع ذلك — ترجيعاً لايوصف بالإطراب ، ولا يحسر[٨] أصحابَ الرُّكاب ،ولايُسعدمَنْ سمعَه بدموعٍ غزيرةِ التّسكاب ، فمضى لسبيله ، وتناول هذا مديتَه فشحذها[٩] ، وحاول كُديتَه فأخذَّها ، ووجدناه كصاحبهِ مُقلّاً ، وبالعبء الذى قُذف عليه مستقِلّاً ، وإنَّه ليزيدُ عليه بتطريبٍ فى الألحان ، ولسانٍ غيرِ لحّان ، وروايةٍ عن ابن قُزمان[١٠] ، وسجعٍ عند الخِوان[١١] وإجابةٍ قبل أن يُدعى لمآدبِ الإخوان ، ونغمةٍ لاتخلو من الإجادة ، ووفادةٍ خليقةٍ بالإفادة ، ولذلك أمَّ تلك الحضرةَ — حرسَها اللَّهُ — وعنده سَغبٌ وجُؤاد[١٢] ، وفيها بحرٌ وجَواد ، وهو — أدامَ الله توفيقَه — يأذنُ لما عنده مِن تقريض ، وتصميمٍ فى السُّؤالِ لا يشوبه بتغريد ، وتفهُّق إذا أنشدَ أو أثنى ، كتفهُّقِ أبى المثنّى[١٣] ، ولا بأسَ فهذا يقنعُ من العراقِ ، باللُّقمة والعُراق[١٤] ، وإنَّه ليلبَسُ ثوبَ الضأنِ الخميص ، ويسعى فى طلبِ الرِّزقِ بالشَّدِّ فى القميص ، ويقنَعُ بأكلِ الخبيص[١٥] ، وهو — دام — توفيقُه — يرفع له حجابَ إذنِه ، ويمنُّ بتقريب أُذُنِه ، لا زال — علماً للنَّدى ، ومشرعاً للهُدى ، ومَفْزَعاً إذا ريبُ الدَّهرِ عدَا ، والسَّلام .

(٧) القرص : من الخبز وما أشبهه .

(٨) الحَسَر : الكلل والإعياء ، وحسرت الدّابةُ والناقةُ : أعيت وكلّتْ .

(٩) فى الأصل : فشحدها ؛ تصحيف .

(١٠) ابن قزمان : أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان ، إمام الزجالين فى الأندلس ، ولد حوالى سنة ٤٨٠ هـ وتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، ويكنى بابن قزمان الأصغر تمييزاً بينه وبين عمّه أبى بكر محمد الأكبر بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان (ت سنة ٥٠٨ هـ) كان كاتباً للمتوكل صاحب بطليوس (المغرب ١/٩٩ — ١٠٠) .

(١١) الخوان : المائدة .

(١٢) الجؤاد : الجوع ، وفى الأصل : شعب وجؤاد

(١٣) لعله أبو عبيدة معمر بن المثنى ، مؤلف (مجاز القرآن) وقد ولد فى البصرة سنة ١٠٠ هـ وتوفى سنة ٢١٠ هـ أو بعدها ، ويقال إنه كتب ما يُربى على مائتى مؤلف ، ذكر منها ابن النديم فى الفهرست عناوين مائة وخمسة كتب منها . (بروكلمان ٢/١٤٢ — ١٤٣)

(١٤) العُراق : العَظم بغير لحم

(١٥) الخبيص : الحلواء

[١٢]

وكتب* إلى ابن حسّون[١] فى جانبه[٢] أيضاً :

[سيِّدى المعظّم ، المخصوص][٣] بالحسنى ، وحظِّى[٤] الأكرم الأسنى ، دُمْتَ مريعَ الجناب [١١/أ] خضِلَ السَّحاب ، مُرضياً للوفودِ والأصحاب ، المكاسِبُ مؤديةٌ إلى التحقيقِ فى المناسب ، ورُبَّ منتمٍ الى غيرِ صنفهِ غيضُه أشبُّ[٥] وقولهُ غير مُؤْتَشب[٦] ، [و] داؤُهُ فى قِلَّة مالديه من نَشَب[٧] ، ولذلك تسمَّى حاملُ هذه الرُّقعةِ بالزَّرزور ، وزعمَ أنَّه يزور ، ثم أكذبه الزُّور ، وهذا صنف من الطَّيرِ تُقنعُه البذور ، ويكفيه المطعَمُ المنزور ، وهذا المتسمَّى باسمِه لاتُشبعه الجزور ، ولا ينقَعُ غُلَّته سيلُ مهزور[٩] ، ومن له أن يكونَ من طيرِ القطاع ، إلاَّ أن ينزلَ من فضلِ السَّعادةِ على قسمٍ من الرِّزق وإقطاع ، وإنَّه مع هذه الدَّعوة ، لمجيب الدَّعوة ، فيُنشِدُ الموشَّح والقَصيد ، ويهيمُ بحبِّ الحصيد ، ويبسطُ ذراعيهِ بالوصيد[١٠] ويكثُر الوسائِل ، ويتلو

* رسالة أخرى لأبى بكر بن عبد العزيز صاحب الرَّسائل المتقدِّمة [٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١]

(١) سبق ذكره فى الرسالة رقم ٩

(٢) فى جانبه : أى فى جانب الزرزور الذى تناوله فى الرسالة المتقدِّمة رقم (٩)

(٣) مطموس فى الأصل ، وهذا ما حاولت استجلاءَه وتقديرَه .

(٤) فى الأصل : حضى ؛ تصحيف .

(٥) أشبّ : التفّ ، وغيضٌ أشبُّ : مُلتف ، كثير الشَّجر .

(٦) مُؤْتشِب : مخلوط غير صريح ، وفى الأصل : مواسب ؛ تحريف .

(٧) النشب : المال والعقار .

(٨) فى الأصل : المنرور ؛ تصحيف .

(٩) مهزور : وادى بنى قريظة بالحجاز ، وفى الحديث : أنّه قضى فى سيل مهزور أن يحبس حتى يبلغ الماءُ الكعبين : (اللسان : هزر) .

(١٠) يقتبس من قوله تعالى: « وكلبُهم باسِط ذراعيه بالوصيد » الكهف : ١٨ والوصيد : فناءُ الدَّار والبيت .

المقاماتِ والرّسائل ، ويحمض[11] بعد ما أَخَلَّ ، وينبسِطُ إذا هَذَل ، فيُنشِد لابن قُزمان[12] وطبقتِه مايستخِفُّ الوقار ، ويكاد يُبيح العقار ، وقد زارك سائلاً ، وأحلَّ عندك نائِلاً ، وأنت تُطيع فيه الكَرَم ، وتدفعُ به البَرَم[13] ، وتسمعُ مالديه من جدٍّ وهزل ، ولفظٍ حلوٍ ومعنى جزل[14] ، وتعلم أنّه ليسْ فى استماع ما يُنشد من حَرَجٍ ولا أَزْل[15] ، وترثى له من صورةٍ أخرجته إلى الدّعوة فى الانتماء ، وصغَّرتْ حظَّه من الأسماء ، واللّهُ يُبقيك — عميمَ المحامد ، كريمَ المقاصِد ، والسّلام .

---

(١١) فى الأصل : يحمص ؛ تصحيف .

(١٢) سبق ذكره والتعريف به فى الرّسالة السّابقة .

(١٣) البرم (بالتحريك) : السأم .

(١٤) الجَزْل : القوى ، الشديد ، غير الرّكيك .

(١٥) الأزل : (بتسكين الزاى) : الضيق .

[١٣]

وكتب* عن أهل قرطبة[١] إلى علىّ بن يوسف :[٢] :

أيّد اللّهُ أميرَ المسلمين بالتقوى وعمَّر به ربعَ الإسلام فلولا رجاؤه لكان [العدوُّ][٣] قد خرق فى هذه الجزيرة وأقوى ، وأتمَّ به وعليه النُّعمى ، وجعل ذُرَاهَ الأمنعَ الأحمى ، وأمدَّه بالقوّةِ والرُّحمى ، وأناءَ به طريقَ الهُدى ، وصدع بنظرهِ الجميلِ جميعَ العِدى ، وجعله مِمَّن اشتملَ بالتوفيقِ وارتدى ، وجرى فى غايات البِرِّ فسيحَ المدى ، واتَّبعَ آثارَ الَّذينَ هداهم اللّهُ واقتدى .

كتبناهُ — أدامَ اللّهُ تأييدَه — وطاعتُه لم تَخْلَقْ برودُها ، ولم تُنقضْ عهودُها ، ولم يتغيَّرْ معهودُها ، ونحن لحقِّهُ مقدِّمون ، ولما أوجبَ اللّهُ من فَرْضِ [١١/ب] إمامتِه مُعظِّمون ، ولما قضاه مُسَلِّمون ، ولِما أمضاهُ مستسلِمون ، وبين يدىْ إشفاقِه باكونَ خاشعون ، وإلى جنابِهِ[٤] وارتماضِه[٥] شاكونَ ضارعون ، وللحقِّ فيما يُنهيه حاكون ، وبه صادِعون ، وقد ضاقت بالنُّفوسِ الحناجِر ، وأسلمتْ الدُّموع المَحَاجر ، وسمعنا صُراخ الأسرى ،

---

* الضمير عائِد على أبى بكر بن عبد العزيز صاحب الرسائل المتقدمة [٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢] .

(١) قرطبة : قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقرّ خلافة الأمويين بها ، وفيها المسجد الجامع ، وقد تغلّب عليها النّصارى فى أواخر شوال من سنة ٦٣٣ هـ [صفة جزيرة الأندلس ١٥٣ ومابعدها]

(٢) على بن يوسف بن تاشفين ، ثانى أمراء دولة المرابطين فى المغرب والأندلس (٤٧٧ — ٥٣٧) ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ ، وقد جرى على سيرته « فى إيثار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ، وكان حسن السّيرة ، جيّد الطويّة ، نزيه النّفس ، بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن يُعدّ فى الزُّهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعَدّ فى الملوك والمتغلّبين » المعجب ٢٣٥

(٣) زيادة يقتضيها السّياق .

(٤) فى الأصل : جنابه (مهملة)

(٥) الارتماض : كل ما أوجع

المضطهدينَ يمنةً ويسرة ، فما ملكنا إلاَّ عبرةً أو حسرة ، وودِدْنا يومَ انتقلَ الأميرُ الأجلُّ وليُّ العهدِ عن أنظارِنا[٦] ، وارتحَل مِن ديارِنا ، أنَّا لقينا الموتَ المعجَّل ، فأراحَنا من الأوْجَال ، ولم ترتقِ الخطوبُ إلينا حالاً بعد حال ، وهذا العدوُّ المجاوِرُ لنا ــ قَصَمَه اللّه ــ قد أحرَقنا بشررةٍ من نارِه ، وأغرَقنا فى قطرةٍ من غِماره ، فكيفَ نكونُ بعدُ ، وقد أشجانا بشؤبوبِ بَرْد ، ورمانا بضرَمٍ مُتَّقِد ، ونحن نستقبلُ منه جَمْعاً ، ولا نُطيق له بغيرِ اللّهِ دَفعاً ، ونترقَّبُ آزفةً ، تتركُ أنوارَ الإسلامِ ــ واللّهُ الكَّافى ــ كاسِفة ، ولا تجدُ لها مِن دونِ اللّهِ كاشفة[٧] ، بل هو القادِرُ على أن يصرفَ إلينا نظرَ أميرِ المسلمين ، فيسهِّل لنا مقاصدَها ومسالكها ، ويردُّ عنَّا محاذيرَها ومهالكَها ، وتفسيرُ هذه المقدِّمة الشديدة الوقوع ، الكريهةِ المَسْموع ، أن ميرةَ[٨] قلعةِ رَبَاح[٩] ومُورَه نفدت فى شهر كَدَى[١٠] ، وأوعب العسكرُ[١١] مع والينا أبى مُحمَّد ــ وفقه اللّهُ ــ فى نقلِها ، ونهضوا بما تَحَملوا مِن ثِقلِها ، فلمَّا أُعْتِقوا فى مضمارِهم ، وبَعُد عنَّا ماكنَّا نتطلَّعُ مِن أخبارِهم ، جاءَ الصَّريخُ : أنَّ عسكرَ الرُّومِ دخلَ على فجِّ المساجِدِ إلى بلادِ الإسلام ، ردَّ اللّهُ عنه كيدَ عبدة الأصنام ، وهناك مقاصِيدُ شَنَّ مشعوبُها[١٢] ، وغنائمُ لا يتعذَّرُ مطلوبُها ، فأخذَ بنا الرَّوعُ فى كُلِّ طريق ، وخِفنا على كُلِّ جانبٍ من جوانبِ المسلمينَ وفريق ، وتوجَّه مَنْ بقىَ فى البَلَدِ من أهلِ الفِلاحةِ وغيرِهم للإنذار ، وتقليعِ الأنظار ، وإعلامِ أهلِ البوادى بنبأ هذا العسكرِ الجرَّار ، وَدَفْعِهم إلى موضعِ سُكْنَاهم عَسِير ، لا يردُّ قدرَ اللّهِ عمَّن هو قتيلٌ أو أسير ، واستصرخنا الأميرَ الأجلَّ أبا زكرياء يحيى

(٦) فى الأصل : أنضارنا ؛ تصحيف .

(٧) يقتبسُ من قوله تعالى : « أزِفَت الآزِفَة . ليس لها مِن دونِ اللّهِ كاشِفة » النجم : ٥٧

(٨) الميرة : الطعام .

(٩) قلعة رباح : من عمل جيَّان ، وهى بين قرطبة وطليطلة ، وهى مدينة محدثة فى أيام بنى أميَّة ، وقد ملكها النصارى زمناً حتى استردَّها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فى معركة الأرك ثم سقطت فى أيديهم بعد ذلك . [صفة جزيرة الأندلس : ١٦٣]

(١٠) يقال : أكدى العامُ إذا أجدب .

(١١) أوعب العسكر : احتشدوا وجمعوا ما استطاعوا من جمع ، ولم يبق منهم أحدٌ إلا فعل ذلك .

(١٢) شنَّ : ضعف وتفرَّق ، ومشعوبها : مضمومُها ، وفى الأصل : شتى شعوبها ، وهو تحريف .

ابن إسحق[١٣] ــ وفقه اللهُ ــ لدينا للخطبِ النّازِل ، والعدوّ المُغيرِ المُنازِل ، فتوالى فيما كان يروم [١٢/أ] وسبقه إلينا الرُّوم ، فأغاروا من الوادى الكبيرِ[١٤] إلى القليعةِ الى لورة[١٥] إلى فُرْنَجُولُش[١٦] ، واجتاز الوادى إلى يلمّة[١٧] وبعض نواحى إستجة[١٨] ، وكان ذلك فى اليوم الثالثِ من وصولِ خبرهِم[١٩] إلينا ، وورودِه علينا ، وأكثرُ أهلِ هذه النّاحيةِ لم يُطيعوا النّذير ، ولا صَدَّقوا التحذير ، بل غلبتهم ضعفُ المقدرةِ عن الانتقال ، وكثرةِ العيالِ والأُطفال ، فامتلأتْ بالسَّبى الحبال ، وأسلمتْ من فيها السُّهولُ ولم تعصِمهم[٢٠] الجبال ، وأخذوا مِن النِهابِ والأمتاع ، والحافِرِ والكُرَاع[٢١] ، مالايُدركُه الإحصاء ، ولا يملكُه الاستقصاء ، وبقوا فى ذلك يومين لايجدون[٢٢] مَنْ يردُّ امتدادهم ، ولا مَنْ يرمى سَوَادَهم ، حتّى غلب أكفّهم الانتهاب ، وضاق بهم المشىُ والذّهاب ، ووصلَ كتابُ والينا أبى مُحَمَّد من كَرَكَى[٢٣] بعد أخذهِ فى الصَّدرِ والقُفولِ من ذلك السَّفَر ، بذكْرِ ما اتصلَ به من الخَبَر ، ووعدنا بالتّشميرِ فى اتّباعِهم ، وأخذِ الأُهبةِ لقراعِهم ، ولو أذعن اللّهُ

---

(١٣) هو يحيى بن إسحاق بن غانية ، كان والياً على بلنسية ثم على قرطبة ، ولم يزل بها الى آن مات أول الفتنة الكائنة على المرابطين ، وقد أبلى بلاءً حسناً فى خدمتهم ، وكان على بن يوسف يعدُّه للعظائم ، ويستدفعُ به المهمّات ، وأصلح اللّهُ على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس . (المعجب ٣٤٢ - ٣٤٣)

(١٤) هو وادى إشبيلية الكبير .

(١٥) لورة : من حصون نهر إشبيلية .

(١٦) فُرَنجولُش : مدينة جليلة بالأندلس بقرب حصن المُدَوّر [صفة جزيرة الأندلس ١٤٣]

(١٧) يلمة : من قرى الأندلس .

(١٨) إستجة : من كور مملكة قرطبة ، وبينهما ثلاثون ميلاً .

(١٩) فى الأصل : حبرهم ؛ تصحيف .

(٢٠) فى الأصل : ولاتعصمهم .

(٢١) الكُرَاع : اسمٌ يجمعُ الخيل والسّلاح .

(٢٢) فى الأصل : لايجدون .

(٢٣) كَرَكَى : مدينة تقع على مقربة من قلعة رباح ، وتذكر إحدى الروايات أنَّ الأمير تاشفين بن على غزا أرض قشتالة سنة ٥٣١ هـ واقتحم مدينة كركى فلم يجد بها أحداً ، وقد مدحه أبو عبد الله ابن أبى الخصال بأبيات أشار فيها إلى موقعة كركى (عصر المرابطين والموحدين ، عنان ١٤٢/١)

فى ذلك لأوْعَبَنا[٢٤] بكثرةِ الجندِ واجتماعِهم ، وجاء أيضاً عن والى إشبيلية[٢٥] أنّه وصل لورةَ وسيرُهُ حَثيث ، وهو للمسلمينَ ناصِرٌ ومُغِيث ، والنّصارى ــ لعنهم اللّهُ ــ قد أثقلتهم الأسرى والغنائم فلايمشون إلاّ رويداً ، ولا ينتقلون إلاّ صار الأمنُ لهم قيداً ، واجتمع الواليان[٢٦] ــ وفقهم اللّهُ ــ والعدوُّ لم يبعدْ طَلَبُه ، ولا تعذّر مطلبُه ، ونفرَ المسلمونَ من كُلّ مكانٍ خِفافاً وثقالا[٢٧] ، فرساناً ورجالا ، وقد رأوا أسبابَ النُّجح بيِّنة ، ولوازمَ الجهادِ متعيِّنة ، ولمّا تراءتْ الفتيان قصرت الأقدامُ وقلَّ الإقدام ، وطفئت الحفائِظُ وكان لها توقُّدْ واحْتِدام ، ونُسى فرضُ الإسلام ، واستخفَّ ثقلُ الملام ، ورأى الكافِرُ ماعليه مِن عساكرَ تترادفُ أمدادُها ، وتزيدُ ضعفاً على من عندَه أعدادُها ، فلجأ العدوُّ إلى جبيل لا يعصِمُ الهارب ، ولا يمنعُ الطّالب ، وسدَل به الرَّجالةُ المطوّعون فأرهقوه عُسْراً ، وحالوا بينه وبين المواشى قَسْر ، وخالطوا الكفّار فى صَعيد ، وسائرُ العسكرِ غير بَعيد ، [١٢/ب] ورزقَ اللّهُ المطوِّعينَ الصَّبرَ فى مُحاربتِهم ، والاجتهادَ فى مُطاعنتِهم ومُضاربتِهم ، فما ذعر الكفّارُ لهم سِرْباً ، ولا فلُّوا لهم غَرْباً ، فاستمدوا الولاةَ ، وعندهَم الكُماة ، وبين أيديهم الرُّماة ، فما أمدوُّهم بحَامٍ ، ولا أعانوهم برامٍ ، بيد أنَّ الكفّارَ يئسوا من الحياة ، ولم يطمعوا فى النَّجاةِ ، واعتنقوا اعتناق وداع ، ولم[٢٨] يثقوا بقوةٍ ولاخداع ، وفنَى عمرُ اليومِ والكتائبُ لم تتحرَّكْ ، وقد أذِنَ اللّهُ بالإملاء[٢٩] لمن أشرَك ، ونزلَ اللَّيلُ فقوَّضَ الكافِرُ مجمعَهُ على أعينِ النَّاسِ وأسْرى ، ومعَه الدوابُ والأسرى ، وقد أهملهم أهلُ الإسلام ، ولم تُرْعَ فيهم ذِمَّةُ مُحَمَّدٍ ، عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام ، وتُركت البَقَرُ والغَنَمُ سُدى ، واغتالتْها يدُ الرَّدى ، وانتهبتْها أهلُ الحصونِ كما يُنْتَهَبُ المغنَمُ المباح ، وأخذوها كما تُؤخَذُ الفوائِدُ

(٢٤) فى الأصل : لاعين ؛ تحريف .

(٢٥) إشبيلية : من مدن الاندلس الكبرى ، وتقع على نهر الوادى الكبير ، وكانت عاصمة للأندلس فى عهد الموحدين ، وسقطت سنة ٦٤٦ هـ .

(٢٦) أى والى إشبيلية ووالى قرطبة .

(٢٧) يقتبس من قوله تعالى : « انفروا خِفَافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » التوبة : ٤١

(٢٨) فى الأصل : ولا

(٢٩) الإملاء : التشهير

والأرباح ، ولم يرجعْ منها إلى أهلِها إلاَّ النَّزرُ اليسير ، والتَّافهُ الحقير ، وكان للأسرى عند رحيلهم عجّةٌ فى الأصْفَاد ، وضجّةٌ فى الأغلالِ والأقياد ، تصدعُ الجمَاد ، وتُفجِّرُ الأحجارَ الصّلاد ، فما رقّتْ لذلك قلوبٌ أقسَتْها الذُّنوب ، وبعُدَ عنها نصر اللّهِ وهو قريب ، ومنعها من حُسْنِ اليقينِ شَكٌّ مُريب ، ومعظم الشَّكوى بأهلِ إشبيلية فإنَّهم أظهروا المُبَاعَدة ، وأقلُّوا المُسَاعَدة ، وعادَهم فى ذلك للخميس[29] ، عيدٌ ذكرِ يومِ الخميس ، فاستقبلوا الفجرَ استقْبَالاً ، وخرجوا للنَّصر فما زادوا إلاَّ خبَالا ، فياللّهِ ولأميرِ المسلمينَ من دماءٍ سُفِكَتْ ، وحُرماتٍ هُتِكتْ ، وأَنَفةٍ فى دينِ اللّهِ وضِعتْ وتُرِكتْ ، وجماعةٍ من المسلمينِ غُلبتْ بيدِ البَاطِل ومُلكت ، وقدَّامهم من إخوانهم من يزيدُ على عددِهم أضعافاً يغلب فيها النساء الرجال ، ويسبق ذوى الغُرر والحجول[30] ربَّاتِ الحِجال[31] ، ولو كانوا نصفَهم لكان ذلك النِّصفُ يحسبهم ، وكتابُ اللّهِ ـــ تعالى ـــ قد أوجبَ أنَّه يغلبهم ، وقد روى ثقات الأخبار خطبة عليٍّ ـــ رضى اللّهُ عنه ـــ بالأنبار[32] ، وأميرُ [١٣/أ] المسلمين[33] أول من اهتدى بهديِهِ ، ورأى فى الإسلامِ مثلَ رأيِهِ ، وقد علمَ الرُّومُ ، أنَّ حمى الإسلامِ غيرُ ممنوع ، وغاربه غيرُ مدفوع ، وعندهم فى هذه السَّنَةِ احتفالٌ واحتشاد ، وتأهُّبٌ واستعداد ، وما منَّا أحدٌ إلاَّ وهو يختار للجِلادِ أقربَ طُرُقِه ، ويرى موضعَ العِداقِ والسَّيف من عُنُقِه ، وقد دعونا أميرَ المسلمينَ بما أسلفَ إلينا من نِعمه ، وأعلقَنا مِن ذِمَمِه ، وقرَّبَ إلينا مِن مسافةِ

(٢٩) الخميس : الجيش .

(٣٠) التحجيل : بياض يكون فى قوائم الفرس ، والغُرر البيض ، كناية عن الفروسية والشجاعة ، وفى الحديث : « أُمّتى الغُرّ المُحجَّلون » .

(٣١) ربّات الحجال : النساء ، والحِجال (جمع حجل) وهو الخلْخَال

(٣٢) الأنبار : مدينة قديمة بالعراق ، وكان عليٌّ بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ قد سار من الكوفة إلى صِفّين لخمس خلون من شوال سنة ٣٦ هـ ، فاجتاز فى مسيره بالمدائن ثم أتى الأنبار ، وسار حتى نزل الرَّقة ، فعقِد له هنالك جسر ، فعبر الى جانب الشام (مروج الذهب ٣٨٤/٢) .

وانظر خطبة على بن أبى طالب فى (البيان والتبيين ٢٣٨) وأولها : « أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ... » وقد استفاد منها الكاتب كثيراً .

(٣٣) يعنى علىّ بن يوسف بن تاشفين .

مطالعته ، واقتضانا الواجبُ فى مُناصحتهِ ومشايعتهِ ، والرَّبُ سائلهُ عمَّا استرعاه ، ومجازيه بعلمِه المبرورِ ومسعاه ، ولعلَّ اللّهَ يجعلُ لنا فى قلبهِ رأفةً تعطفُه إلى هذه الشّكوى ، وترفّه[٣٤] مانزل بنا من البلوى ، وإنَّا لننتظِرُ من نظرهِ الجميل ، وجوابهِ الواضحِ السَّبيل ، ما يقرُّ النُّفوس فى قرارِها ، ويعُيد الآمالَ فى النَّجاةِ بعد قَرارها ، وهو أيَّده اللّهُ — يذكرُ ما أخذه علينا من العهد المسئول ، فى النُّصحِ[٣٥] المبذول ، والصِّدق المقبول ، فرأينا ألاَّ نكتمَ ما يجبُ إبداؤه ، ولا نُمْسِكَ ما يلزمُ آداؤه ، وهو المسئولُ — جلَّت قدرتُه — أن يرفعَ بالتَّقوى قَدْرَه ، ويشرحَ لهذه الشَّكوى صَدْرَه ، ويجزيه عن جوانبَ ألانَها العدلُ وبسَطَها ، ومذاهبَ زانَها الرِّفقُ وأقسَطَها ، أفضلَ ماجزى به إماماً تواضع للّهِ فحبَّبه إلى خَلْقَه ، وأعانَه على حقِّه ، لا ربَّ غيرُه ، والسَّلام .

(٣٤) رفّة : أزال وأزاح .
(٣٥) فى الأصل : النضح ؛ تصحيف .

[١٤]

فراجعهم علىُّ بن يوسف بن تاشفين[١] :

كتابُنا — كتبَ اللَّهُ لكم يقيناً تطمئن بصدقه القلوب ، وتهونُ بعدَه الخطوب ، وأيَّدكم بإيمانٍ تنبعثُ به البصائر وتنوب ، ويذهبُ بسببِهِ الرَّوع الذى يُخوِّفُ به الشَّيطانُ أولياءَه فلا يعقبُ ولا يؤوب ، من حضرةِ مراكش[٢] — حرسها اللَّهُ — فى الثانى عشر من جُمادى الآخرةِ سنة خمسٍ وثلاثين وخمسمائة ، ونحن نحمدُ إليكم اللَّهَ الَّذى لا إلهَ إلاَّ هو حَمْداً نتخذُه إلى المزيدِ من نعمتهِ سبيلاً [١٣/ب] ونجعلُه إلى رحمتهِ دليلًا ، وننزلُه بعصمته كَفِيلاً ، ونُصلِّى على مُحَمَّدٍ عبده الكريم صلاةً عامةً تامَّة تتعاقبُ إليه معَ التَّسليمِ الأحفى ، وعلى آلهِ الطَّيبين وصحبهِ الأكرمين بُكْرةً وأصِيلاً ، أما بعدُ ، تجاوزَ اللَّهُ عن ذنوبنا وذنوبكم ، وفزعِ بأمنهِ عن قلوبنا وقلوبكم ، وصفحَ عما يعلمُه من عيونِنا وعيونِكم ، فإنَّ كتابَكم الأثيرَ وافانا مضمَّناً من سوائرِ العدوّ — قصَمه اللَّهُ — فى المسلمين — عصمهم اللَّهُ — ما أغصَّ وأشرق ، وأمضَّ وأرَّق ، وجمع علينا من هومكم وغُمومِكم ما انتشرَ وافترق ، وذلك ما أحصاه قبل خلقِ الخلائقِ كِتابٌ من اللَّهِ سبَق . قال اللَّهُ — سبحانه — وبلَّغ رسولَه — صلَّى اللَّه عليه وسلَّم — وصدق : ﴿ ما أصابَ مِن مصيبةٍ فى الأرضِ ولا فى أنفسكم إلاَّ فى كتابٍ من قبلِ أن نبرأها إنَّ ذلك على اللَّهِ يسير لكيْلا تأسوا على ما فاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم واللَّهُ لا يُحبُّ كُلَّ مختالٍ فخور ﴾[٣] وما نهوِّنُ مصاباً أدركَ المسلمين والمُسْلِماتِ فيه من الثكلِ الموجِع ما أدرك ، وظهر على المؤمنين فى مواطنهم مَنّ كفَر باللَّهِ وأشرك ، وفتكَ

---

(١) سبق التعريفُ به .

(٢) مراكش : مدينة مغربية قديمة ؛ وكانت حاضرة الخلافة أيّام المرابطين والموحّدين .

(٣) الحديد : ٢٢ - ٢٣

فى حُرْمَتِهِ بدينِ اللّهِ مَنْ فتك ، ولوددنا ــ واللّهُ الشّاهِدُ ــ أن نجعلَ دونَ نفوسِ المسلمينِ نَفْساً لا نَدَّخِرُها ما استطعنا من فدائِهم ، ولا نكره أن نبذلَها جهدَنا فى جهادِ أعدائِهم ، وأن نكونَ جُنَّةً واقيةً مِن أمامِهم ووَرائِهم ولكن نقولُ ما قال اللّهُ تأسِّياً وتسليماً ، ونراه كما هو عند اللّهِ عظيماً ، ﴿ ولا تُجادِلْ عن الذين يختانون أنفسَهم إنَّ اللّه لا لايُحبُّ مَنْ كان خوَّاناً أثيماً ﴾[4] .

وقد عَلِمتُم ــ أمتعَ اللّهُ بالحُسنى أمتاعَكُم ، وأقرَّ بعوائدُ البُشرى أبصارَكم وأسماعَكم ، وكشفَ عنكم وعنَّا فيكم ما وقذَكُم[5] وراعكم ، أنَّا قد تقدَّمنا إلى جميع العُمَّال ، ومن تحت أيديهم من الرِّجال ، أن يتضافروا على العدوِّ ــ قصمه الله ــ ويتألَّفوا ويتطاوعوا ولا يختلِفوا ، ويتقدَّموا فى حُسن الدِّفاع ويزدلِفوا ، ولو أنَّ جميعَ المسلمين من قلَّةٍ أُوتِى ، وبأضعافٍ كثيرة رُمى لقلنا فى المحاجزِ نِعمَّاً هى[6] ، ولكن فُتَّ فى أعضادِ عبادِ اللّهِ تبريحُهم ، وتنازعوا ففشلوا وذهبتْ ريحُهم[7] ، ولم يحظ عِنْدَنا بقَبول [١٤/أ] تقريضهم فى العَدوِّ وتصريحِهم ، فاستحقُّوا مقتَ اللّهِ ومقتَ الأمَّةِ ولومها ، وأعطوا شيعةَ الكفرِ على الرَّغمِ منهم حكمَها وشؤمَها ، وفضحوا المسلمين كما فضحتْ غامدُ قومَها[8] ، وعلى اللّهِ ــ تعالى ــ ثم علينا تقويمُ الزَّيغِ بعينهِ والأَوَدِ[9] ، والتقدُّم لكم[10] خاصةً وللمسلمينَ عامةً على توفيقِ

---

(٤) النِّساء : ١٠٧

(٥) الوقذ : شدَّة الضرب ، والوقيذ : الشَّديد المريض الذى أشرف على الموت ؛ وقد وقذه المرض والغم

(٦) فى التنزيل العزيز : « إن تبدوا الصدقاتِ فنعمَّا هى » البقرة : ٢٧١

(٧) يقتبس من قوله ــ تعالى ــ : « وأطيعوا اللّهَ ورسولَه ولا تنازعوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحكم » الأنفال : ٤٦

(٨) إشارة إلى هزيمة ربيعة بن مكدم ــ وحده ــ لجمع غامِد وهم حىٌّ من الجن ، وفى ذلك تقول امرأة من غامِد توبِّخ قومها :

ألا هل أتـاها على نأيــها ... بما فضحــت قومَــها غامِـد

[اللسان : غمد ، البيان والتبيين ١/٢٤٩]

(٩) الأَوَد : العِوَج .

(١٠) فى الأصل : لكُلّ

اللّه ــ تعالى ــ بالنَّظرِ الأحدّ ، وأعينونا ــ رحمكم اللّهُ ــ بالأدعيةِ الصَّالحِةِ التى هى أمضى السِّلاحِ وأوثقِ العُدد .

وأمَّا ما سرى من إعدادِ العدوِّ ــ قصمه اللّهُ ــ لخروج يستقبلُه ، وفسادٍ فى البلادِ يؤمِّلُه ، فاللّهُ ــ تعالى ــ بقدرتِه يشغلُه[11] عن ذلك ويُذهِله ، ويرميه بحوادثَ لاتُنْظِرُه ولا تُمهِلهُ . وحقّ علينا وقد استصرختم بنا أن نلبِّى ــ بمشيئة اللّهِ ــ نداءكم ، ونُجيب ــ على الصعبةِ والذّلولِ ــ دعاءكم ، ونلقى دونَكم بالأموالِ والأنفسِ ــ أعداءَكم ، وما كنَّا لو لم تُعْلِنوا فى الكتبِ المُحرَّرَةِ[12] نجواكم ، ولم يبلُغْنا على ألسنة الأقلامِ شكواكم ، لندعكم لعدوٍّ يستبيحُ حِماكم ، ويجمعُ نفسَه لمضرَّتِكم وأذاكم ، ولاستغنيتُم ــ أصلحكم اللّهُ ــ بما بيّننا لكم عن ذِكراكم ، واعتصامُنا جميعاً باللّهِ هو مَوْلانا ومَولاكم .

واعلموا ــ وفقكم اللّه ــ أن حماكم حِمانا ، ومَنْ رماكم فقد رمانا ، ومَنْ أرادَكم بسوءٍ فاللّهُ[13] يكبُّه لوجهِهِ[14] فما تخطَّانابه ولا تعدَّانا ، وظِلالُ الإسلامِ بحمد اللّهِ ممتدَّة ، وتلك النُّصُب التى تقدَّمنا بها فى العامِ الأوَّلِ معتدَّة ، والأُهْبَةُ ــ بحمدِ اللّهِ ــ متى حزبَ حادثٌ ــ مُستجدَّة ، والذى مِن نصرتِكم نستدعيه ، ونستمنِحهُ فى اللّهِ ونستهديه دعاءٌ نتوق ــ بنعمةِ اللّهِ ــ إلى بركةَ إخلاصِكم فيه ، على الذين شغلوا خيلَ الله قبلنا عن ثنايا[15] فى غزوِ الكفرِ نَطْلعها ، وأوديةٍ فى مواطىء بغيض حزب الشَّيطانِ نطويها ونقطعُها ، واللّهُ يأخذُ هذه الفئة ولا يدعُها ويكبتها سريعاً ببطشتهِ الكبرى ويصدعُها ــ فخذوا ــ رحمكم اللّهُ ــ فى أدعيةٍ يقبلُها ويرفعُها ، و « يدُ اللّهِ مع الجماعة[16] » ، ولن يرجعَ إلاَّ بالإجابةِ السريعةِ إن شاء اللّه ــ

(١١) فى الأصل : يشعله .

(١٢) فى الأصل : المجردة

(١٣) فى الأصل : واللّه .

(١٤) كبّه لوجه : صرعه

(١٥) الثنايا (جمع ثنية) : وهى من الوادى والجبل : منقطعه ومحانيه ومعاطفه

(١٦) حديث شريف ، أخرجه الترمذى فى سُننه (٤٦٦/٤) عن ابن عباس ، كما أخرجه النسائى أيضاً فى سُننه (٧ : ٩٢)

مجتمعُها . وأمَّا ما انتهبَه أهلَ [١٤/ب] الحصونِ وسواهم من أغنامِ المسلمين ، فلا فرقَ بينهم فى ذلك وبين المُشْرِكين ، ولو كان لذلك البَشَرِ جامِعٌ يضمُّ تفاريقَه ، وحائط للمسلمينَ يرى الحَرَج ويختبىءُ ضيِّقه ، أو آمرٌ بمعروفٍ أو ناهٍ عن مُنَكرٍ يؤثِرُ الحقَّ ويسلك طريقَه ، لحفظ تِلك البقيَّة على أربابِها ، وحال بينَ المسلمين وبين انتهابِها ، لكنَّهم أمنوا من سعتها وطِلابِها ، وما منعه قوم لم يحضرهم من أهل الرِّضى حاضِر ، ولم يشهده منهم ناصِر ، واللّهُ على نصرِ المهتضمين قادِر ، توكل اللّه للمسلمين بناصرٍ نَاجِزٍ ، ولا وكلهم إلى مُضيِّعٍ ولا عاجِز ، وجعلَ بينهم وبين الأعداءِ كُلَّ حجزٍ مانعٍ وحاجِز(١٧) ، بمنِّه .

---

(١٧) الحَجْز : الفصل بين الشيئين أو بين المتقاتلين ، والحجاز الاسم ، وكذلك الحاجز ، ومنه قوله تعالى : « وجعل بين البحرين حاجزاً » .

[١٥]

وكتبَ* يصفُ غيثاً أغاثَ إثرَ جَدْبٍ عَاث :

استهلَّتْ ـــ أدامَ اللهُ عِزَّك ، كما وصلَ للمكارمِ اختيارَك مع الصَّباح ، غَمَامةٌ نبَّهت النَّدامى إلى الاصطباح ، فكأنَّها بِنَاء على مَقْبوب أو طَبَقٌ على الأرضِ مكبوب ، تمشى من الثِّقَلِ هَوْناً ، وتستدعى من الرِّيح عَوْناً ، ومخايُلها تتقوَّى ، وعارضُها يتلوَّى ، فإذا أذِنَ اللَّهُ لها بالانِحدار ، وأنزلَ منها بمِقْدار ، سلَّتِ الرِّيحُ خيوطَ القَطْرِ من تلك السَّحائب ، وأسبلتْها إسبال الذَّوَائب ، فدرَّت السَّماءُ من خلفِ مصرور ، ونَثَرتْ ظلَّها نثرَ الذَّرور[٢] ، ثمَّ انخرَقَ جيبُها ، وانبعق سيبُها[٣] ، فصار الطلُّ وَبْلاً[٤] ، وعادَ الخيطُ حبلا ، وتبيَّنتْ فى الثَّرى مواضِعُ القَطْرِ ، وتضوَّعتْ منه روائحُ العِطر ، وأرسلت السَّماءُ على الأرضِ سَوَادحَها[٥] ، وعمَّتْ بالسُّقيا منادحَهَا[٦] ، فالسحابُ يتعلَّق ، والبرقُ يتألَّق ، والرَّعدُ يرتجِس[٧] ، والقطرُ ينبجِس ، مِن غروبٍ هامعة ، وجفونٍ دامعة ، تبكى بلا حُزْن ، وتجرى على وَزْن ، والنُّقَطُ تتوافى طِباقاً ، وتتبارَى سِباقا ، فيرتدِف السَّابقُ بالمُصَلَّى[٨] ، ويتَّصِل التابعُ بالمولَّى ، ويقعُ

* الضمير عائد على الوزير الكاتب أبى بكر بن عبد العزيز .

(٢) الذَّرور : ما درَرْتَ ونثرتَ ، كدرِّ الحَبِّ والملح وغيرهما .

(٣) البعاق : شدة الصوت ، ومطر بعاق : مندفع بالماء ، والسَّيْبُ : العطاء ، والمطرُ السيْب : الجارى المدفع ، والسيب : مجرى الماء .

(٤) الطلُّ : الندى والمطر الخفيف ، والوَبْلُ : المطر الشَّديد ، الكثير القَطْر .

(٥) فى الأصل : محادِجها ، ولا وجه له ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، والسوادح : السُّحب الشديدة .

(٦) المنادح . المفاوز ، والأرض الواسعة ، فى الأصل : منادِجها ؛ تحريف

(٧) الرَّجس والارتجاس : صوت الرَّعد وتمخُّضه ، وارتجست السَّماء إذا رعدت وتمخَّضتْ ، وفى حديث سطيح : « لما ولد رسول الله ﷺ ارتجس إيوانُ كِسرى » أى اضطرب وتحرَّك حركة سُمِع لها صوت (اللسان : رجس) .

(٨) المُصلَّى من الخيل : الذى يجىء بعد السَّابق

كما يقعُ من المُنْخُلِ البرُّ[9] ، وينثرُ من النظام الدُّر ، فجيوبُ السَّحابِ تُسْقِطُه ، وأكفُّ الغدرانِ تَلْقُطُه ، فكلمَّا جاد صوبُها ، ودامَ ذوبُها ، كانت لغُلَّةِ الشَّوقِ أنقع ، وفى حبَّةِ القلبِ أوقع ، [١٥/أ] والأرضُ قد فتحت للسماء أفواها ، وجرعت منها أمواها ، ولبَّدَ القَطْرُ ثراها ، وأجدَّ قِراها ، وسقاها على الصَّدى ، فشفاها من الرَّدى ، حتَّى أخذتْ ريَّها من المطَر ، وبلغَت منه غاية الوطَر ، ثم حفى من الرَّعد تسبيحهُ ، وطفئت من الأرضِ مصابيحهُ ، وحسرت السَّماءُ نقابها ، وولَّت السَّحائِبُ أعقابَها ، وحكتْ فى مرِّها طلقَ السَّابق ، وطرَبَ الآبِق[10] ، وخلصَ شعاعُ الشَّمسِ إلى الأرض ، فعَرَضَها على النُّضار أحسنَ عرض ، وقد أخرجتْ زخارفَها ، ونشرتْ مطارفَها ، وتجلَّت رُباها للعَيان ، وتزينَّت بزىّ القِيان ، وتحلَّت كمثلِ اللُّجينِ والعقيان ، والتقى فيها الثُّريَان ، يزهى نجمها وسحرها ، وتربُها وحجرُها ، فتتردَّد العيون فى صَفَائِها ، وتبتهجُ النُّفسُ بالتقائِها ، والنَّاسُ فى الأرضِ مُنْتَشِرون ، يستخبرون عن نزولِ الغيثِ ويكثرون ، من أين وحيث وقد بشَّرَ الرائِدُ[11] أهله بالمرعى الخصيب ، وأخذَ من رَغَدِ العيشِ أوفى نصيب ، وبسطَ الشَّحيحُ يدَه بالإنفاق ، وبعث صفوةَ الإرفاق ، وهان على المُمْلِقِ طولُ السِّنين ، وعَوْلُ البنين ، وأصبحَ الزَّمانُ جديداً ورأى الزَارِعُ سروراً تمامِ أملِهِ ، ونجاحِ عملِهِ ، وربعت الشَّاء ، وكثرت النعم والآلاء[12]وزادت الوَحْشُ فى عَدوِها ، وعادت الطَّيرُ إلى شدوِها ، فأثنتْ على رحمتِهِ التى أنزلها ، ونعمتهِ التى أجزلَها ، وهبَ اللّهُ لنا من الأعمالِ أبرَّها ، ومن الأرزاق أدرَّها ، ولا أخلانا من إلهامِ ذكرِهِ ، وقيامِ بشكرِهِ ، بمنِّه ورحمتِه .

---

(٩) البُر (بالضم) : الحِنطة والقمح ، (واحدتُه : بُرَّة) .

(١٠) الأبق : العبد الهارب من سيِّده .

(١١) الرَّائِد : الذى يتقدَّم القوم يُبْصرُ لهم الكلأ ومساقِط الغيث .

(١٢) فى الأصل : الآلاء والنعم وما أثبتناه أنسب لمراعاة السَّجع

[١٦]

وكتب* أيضاً إلى صاحب مدينة مالقة(١) :

كتبتُ — أعزَّك اللَّهُ — وماءُ الودِّ سلسالٌ ، وكلم الجدّ والهزلِ إرْسَال ، وللنَّفسِ المنقبضةِ عند ذكرِك انبساطٌ واستِرْسَال ، ومؤديهِ محمد بن حبيب الجزَّار — سلَّمه اللَّه ، هو وإن ساءَ الظنُّ بما لديه من غَيْرةِ ، ووقع من لا يعلمُه من أمرِه فى حَيْرةَ ، فقد بُهتَ من وارءِ أهله ، ولا يُؤتى إلاَّ من قِبَل جَهْلِه ، ونمى إليه من ابنِهِ درءٌ من القولِ فى معنى مَطْعِ(٢) [١٥/ب] تِكَّتِه(٣) ، وقطعِ شِكَّتِهِ(٤) ، فأوجَعَه أدباً ، وتركَ فى ظهره نَدَباً(٥) ، فشقَّ ذلك على الغلامِ — حفظَهُ اللَّه — ولم يك — منذ فضَّ ختامه عضّ لجامِه ، ومنذ كبَّ لوجهه ، اجتراء أحدٍ على نجهِهِ(٦) ، فمرق كما يمرقُ السَّهمُ ، وطرقَ كما يطرقُ الشُّهم ، بعد أن استثار كُلَّ ذى غِيَّة ، وجمعَ الأحاديثَ عُذريَّة ، ووصلَ وهجَر ، وجلبَ التمرَ إلى هَجَر(٧) ، واختارَ المكانَ ، وعلمَ أنَّ سوقَه نافقةٌ حيث كان ، ولا شكَّ أنَّ بذلك القُطْر(٨) — حماه اللَّهُ — من يدينُ بدين قوم لوط — ويركبُ فى أسافلِ التين أعالى البلُّوط(٩) ، ويريدُ أن يرتشفَ

---

* الضمير عائد على الوزير الكاتب أبى بكر بن عبد العزيز والرسالة تشير إلى انتشار اللواط بالأندلس

(١) مالقة : مدينة على السَّاحِل جنوب شرقىّ الأندلس ، وهى من مراقىء الأندلس الكبرى

(٢) والمَطْعُ : القضم .

(٣) التِّكة : رباط السراويل . (واحدة : التُّكك) .

(٤) الشِّكَّةُ : السلاح ، أو ما يلبس من السلاح ، والشِّكَة أيضاً : خشبة عريضة تُجعل فى خُرْت الفأسِ ونحوه يُضَيَّق بها ، والكلام على الكناية .

(٥) النَدَب : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ، وأندبَ بظهره وفى ظهره : غادرَ فيه ندوباً .

(٦) النَّجْهُ : الزَّجْر والرَّدع ، ورجلٌ ناجه : إذا دخل بلداً فكرهه .

(٧) مثل معروف ، وفى مجمع الأمثال للميدانى (٩٨/٢) : « كمُستَبضِع التَّمْرِ إلى هَجَر » وذلك أن هَجَر هى موطن التمر ومعدنه .

(٨) أى فى الأندلس .

(٩) كناية عن انتشار اللواط .

لماءُ ، ويستبيحُ حِماهُ ، ويملأُ الفارِغَ من جلدِه ، ويسميه باسمِ جدّه ، ويفضّلهُ على ذاتِ الشنفِ والقُرْط[١٠] ويبدأ به قبل ربَةِ النَّصيفِ والمرْط[١١] ، فيقتطعه بما يبذله ، دونَ من يعذله ، ولعَمْرِى لقد تركَ أبوهُ البائِسُ بقرطبة ذاتَ شِوىً خَذْل[١٢] ، وجسمٍ عَبْل[١٣] ، وهى وإن كانت نصفاً ، و قاعاً صَفصفاً[١٤] ، لا تردُّ يدَ لامِس ، ولا تُمنعُ بحِمِىً ولا حارِس ، ففى حَوْضِها صُبَابةٌ ، وله بها صَبَابةٌ[١٥] ، ويخافُ أن يُتاحَ لأسطوان القدر من يَرِشُّه ، وتُحرِّكَ مِن بعدِه فُرُشَه ، ويُثَلَّ فيه عَرْشُه ، وينَازَعَ فى غَرْسِهِ وبَلَدِه ، ويُشَارَكَ فى عُرْسِهِ وولِدِه ، فتقوى النَّوائبُ على ضَعْفِه ، وتأتيه المكارِهُ من بين يديهِ ومن خَلفِه ، وعمادى الأعلى يُعينهُ علَى خَطْبٍ قد زادَ فى حسَرَاتِه ، ونَهْبٍ صَبَحَ فى حُجُراتِه ، ويردّ عليه الطِّفلَ الآبِق قبلَ أن يُحَلَّ إزارُه ، وتحلُّ بذلك القُطْرِ أوزارُه ، ويمنعُهُ مذمومَ المباءة ، [ويجعله][١٦] غيرَ مطلوبٍ بإساءة ، ولا معتمدٍ بمساءة ، ويُعَجِّل بصَرْفِ الشَّيخِ إلى التى لثمُها[١٧] مُمِلّ ، وبين فخذيْها عَقْرَبٌ وصِلّ ، وهى لمن عصى ربَّه حِلّ وبِلّ[١٨] ويُشْهِد[١٩] الوالدَ إنْ أنكرَ شيئاً أو أبَاه ، وكذا كان أبوه . لعنَ اللّهُ أباه ، حتّى يؤوبَ الجازِرُ وأبوهُ له مُطَاع ، وسَمَّتْه عُرْسُه : أبا المُطاع ، لازلتَ لأشتاتِ البِرِّ تنظِمُها ، وحُرُماتِ الفَضْلِ تُعظِّمها ، بحول اللّهِ ، والسَّلام .

---

(١٠) كناية عن النساء ، والشُّنف : ما يلبس فى الأذن للحلى ، وكذلك القرط .

(١١) النَّصيف : ثوب تتحلَّل به المرأة فوق ثيابها كلها ، سُمِّى نصيفاً لأنه نَصَفَ بين الناس وبينها ، فحجز أبصارهم عنها ، والمَرْط : والثياب الخفيفة.

(١٢) يقال : خذلت الظبية أو البقرة : إذا تخلّفت عن صواحبها وانفردَت مع ولدها

(١٣) العبل : الضخم ، الممتلىء.

(١٤) الصَّفصف : الملساء المستوية ، وهو من قوله تعالى : « فيذرها قاعاً صفصفاً » سورة طه : ١٠٦

(١٥) الصُّبابة (بالضم) : الإراقة والانسكاب ، و (بالفتح) : الشَّوق والعشق .

(١٦) زيادة يقتضيها السِّياق .

(١٧) فى الأصل : لحمها ، ولعل ما أثبتناه أصوب .

(١٨) يُقال : هو لك حِلٌّ وبِلٌّ : أى مباحٌ مُطْلق ، ومنه قول عبد المطّلب فى زمزم : « لا أُحِلُّها لمغتَسِلٍ ، وهى لشاربٍ حِلٌّ وبِلٌّ » .

(١٩) فى الأصل : وينشد ، ولعل ما أثبتناه أصح .

[١٧]

وكتب* أبو الحسن علىّ بن سيده(١) إلى أستاذه(٢) :

يامولاى الأسبى، وملاذى الأعبى ، ومن أبقاه اللّهُ فى عِزٍّباق ،بساطه عَممَ [١٦/أ] وحِرْزٍ واقٍ ، حريمُه على الأنام حَرَم ، حتّى تعطيه الآمالُ أعناقَها ويُميل إليه الإقبالُ أجيادَ الأمانى وأحداقَها ، ماذكرته — يامولاى — من إكبارِك لشانى(٣) ، وإيثارك لمكانى ، فجّر من إحسانِك السّابغ(٤) ، وامتنانِك البالِغ ، الذى لم تزل تشفعها لدىّ ، وتنوعُّها بكرمِك وحُسْنِ شِيَمِكِ فى يدىّ ، واللّهِ لو لم أعددْ مِن نعمتكِ إلاّ إتحافُك إياىَ بحِلْمِكَ [لكفانى](٥) ولا من إحسانك ، إلاّ تأنيسُك فؤادىَ بمحاسِنِ لسانِك [لأغنانى](٦) ، وأمّا المحبّةُ التى سرت الرِّقةُ فى أثنائها ، وعادتْ الشّفَقةُ أسَّ بنائِها ، فتلك مِنّةٌ ليست لى على القيام بها مُنّة . ولمّا وردنى كتابُك الكريمُ الّذى كملَ من حُسْنِ الصّياغةِ حظُّه ، واشتملَ على كُلِّ سرٍّ مِن أسرارِ البلاغةِ معناهُ ولفظُه ،

* رسالة اعتذار واستعطاف

(١) هو أبو الحسن على بن أحمد بن سيدة ، إمام فى اللغة والعربية ، وصاحب « المحكم » و « المخصص » ، وأكثر علماء اللغة الاندلسيين شهرة ، ولد بمرسية ، وانقطع الى الأمير مجاهد العامرى (ت ٤٣٦ هـ) صاحب دانية ، وهو من أصل غير عربى ، وقد جاء فى لسان الميزان لابن حجر (٢٠٦/٤) أنه كان يرى رأى الشعوبية فيفضل العجم على العرب » ، وتوفى ابن سيدة سنة ٤٥٨ هـ ، وقد افتخر به الشقندى فى رسالته فقال : « وهل لكم فى حفّاظ اللغة كابن سيدة صاحب كتاب (المحكم) ، وكتاب (السماء والعالم) الذى إن أعمى اللّه بصره ، فما أعمى بصيرته » (النفح ٣ : ١٩٢) .

انظر فى ترجمته : [الصلة ٢ : ٣٩٦ ، جذوة المقتبس٢٩٣ ، المغرب ٢) :٢٥٩ ، مطمح الأنفس : ٦٠ ، إنباه الرواة ٢ : ٢٢٥ ، بغية الوعاة ٣٢٧ ، لسان الميزان ٤ : ٢٠٥ .

(٢) من أبرز أساتذة ابن سيدة ثلاثة هم : أبو بكر الزُّبيدى : وأخذ عنه مختصر العين ، وصاعد بن الحسن البغدادى ، وأبو عمر الطلمنكى » : انظر : الصلة : ١٠٥ نفح الطيب ٣٧٩/٣ - ٣٨٠) .

(٣) فى الأصل : لسانى

(٤) فى الأصل : السابع

(٥) زيادة يقتضيها السياق .

(٦) زيادة يقتضيها السياق .

ظلتُ منه بين جلىّ كَلِمٍ أنعمت الطبيعةُ تعبيرَهِ ، ووشى قَلمٍ أحكمتْ اليدُ المُطيعةُ تحبيره، ثمَّ تأملتُ حقيقةَ ما أدَّاه ، وتصفَّحتُ الذى من الحبرةِ والمسرَّةِ أهداه ، فأسفرتْ لى من كُلّ أملٍ غُرّة ، وأمكنتنى من كُلّ إرادةٍ غُرَّة ، فلو رأيتَ يامولاىَ روضةَ الفرج تهتزُّ[8] أعطافُها ، وقَبولَ المرج تهبُّ فيروقُ تثنّيها وانعطافُها ، وأنا من تلك الحالِ بينَ وادِ معن ، وحمام شادٍ مُرّن[9] ، أسحبُ ذيولَ الإقبَال ، كأنّى من بنى الأقيال ، وأجرُّ برودَ الحبورِ كأنى قد أمنتُ من غِيَرِ الدّهور ، وكأنّى نشوانُ مالتَ بى مُدامة ، وزهرٌ ريَّانٌ سالتْ عليه غَمامة ثم هبَّتْ له ريحُ صَباً تُجَاذِبُه[10] ، فكأنّما هى خريدةٌ[11] صِباً تُلاعِبُه ، لشَهدتَ ما يسْلِبُ الحليمَ رداءَ الوقار ، ويحمِلُ الكريمَ على أن يصيرَ مالُه وأهلُه فداءَ العُقار ، فياها نعمة بدَّلتْ الكبدَ بالحرارةِ بَرْداً ، وجلّلت النَّفسَ والجسدَ من الحُبرة والنَّضارة بُرْداً . تلك واللّهِ يدُ لا أُطْبِقُ بها كِفاءَك ، ولا أدَّعى أنّى مُدْرِكٌ عن أقلِّها جزاءَك ، أمَّا النَّعماء فقد علمتَ أنّى منها صِفْرُ الرَّاحة ، وأمَّا الثناءُ فقد شهدتَ ما أنا به من عدمِ الفَصَاحة ، وقد وقفتُ على ما ضمَّنته مكنونَ خطابِك ، وعرفتُ ما أودعتَه مضنونَ كتابِك ، فتبينتُ ما اشتمل عليه [١٦/ب] من النَّصيحةِ الصَّحيحة ، والشَّفقةِ التى لا تجيشُ بها إلاَّ الأنفسُ الوالهةُ الشَّحيحة ، وقد نطقتَ بلسانِ الإشفاق عن ودادٍ لايُشَابُ صريحُه بالنِّفاق ، ولا غرْوَ إلا اجتهادُك فى القَسَم ، مع علمِك أنَّك عندى أصدْقُ النَّسَم ، وقد أصختُ لدُعائِك ، وأصغيتُ منجذِباً بالسَّمع إلى ندائِك ، إلاَّ أنَّ ذلك تقضَّى الصيام ، وتفرغنا من شُغْلِ هذه الأيَّام المكرَّمةِ العِظام ، وإذ قد أسفرَ لى وجهُ رضى إقبالِ الدولة[12] مولاى كبتَ الله أعاديه ،

(٧) المِنَّة (بالكسر) : العطاء ، (وبالضم) القوة والقدرة .

(٨) فى الأصل : الهَتر ؛ تصحيف .

(٩) مُرن : من الرَّنَّاء : وهو الطرب ، وفى الأصل : مزن ؛ تصحيف .

(١٠) فى الأصل : تجاريه

(١١) فى الأصل : جريدة ؛ تصحيف .

(١٢) هو إقبال الدولة على بن مجاهد بن عبد الله العامرى ، كانت أمه روميّة وكان يتقن اللسان الرومىّ ، وقد تولّى حكم دانية بعد أبيه مجاهد ، ولم يزل عليها حتى هاجمه صهره المقتدر بن هود واستولى عليها سنة ٤٦٨ هـ .

كَبْتاً قد أثبتَ فى جميع الأعناق أياديه ، فقد أمِن من وَجَلى ، وعمل عن عَمَلى ، وأذِنَ بتراخى المُدَّةَ[١٣] عن ميقاتِ أجَلى ، وكيف يقبلُ إقبالُ الدولةِ قولاً وقد وضحَ اليه وجهُ بُهْتانِهِ ، ولم يثبتْ بين يديه قديمُ بُرْهانِه ، فقد علمَ ـــ أبقاه الله ـــ أنىّ لم أزلْ محسوباً فى أُسْرتِه ، ومحسوباً فى ذلك الأوانِ إلى موالاتِهِ ونُصْرتِهِ[١٤] ، ولكن كان ذلك قدَراً محتوماً ، وأرجو أن يكونَ على يديك الكريمتين بأحسنِ العواقبِ مختوماً[١٥] ، وقد برَّ فيما عقدَ به قسمَه ، وثبتَ فى كُلِّ ما أثبتَ عليه من الإيمانِ قَدَمه ، وهو ـــ أبقاه الله ـــ أرفعُ قَدْراً ، وأسنى خَطَراً ، من أن يقدَر فيعذر أو يحلفَ ، فينكثَ بعد ذلك ويخلف ، بل هو الوفىُّ الذى لاينكثُ له بعد الإيثاقِ[١٦] ذِمّة ، ولاتسمو له إلى غير الوفاءِ بالعهد والميثاقِ هِمَّة ، كيف وما أراقَ دماً إلاّ فى حقٍّ وفَّى حَدَّه ، ولا نقلَ قَدَماً إلاّ فى صدقٍ نَفى عنه صَدَّه ، تأسيّاً بسُنَّةِ أبيهِ[١٧] ـــ قدَّسَ الله ضريحَه ـــ وأزارَ غمامَ الرَّحمةِ تُرْبَه وصَفِيحَه ، وقد أبت الطَّبيعةُ كُلَّ الإباء ، أن تجرىَ[١٨] للأبناء إلاّ على طريقِ الآباء ، فأعْلِمْهُ ـــ أبقاه الله ـــ أنّى عبدُه القِنُّ الذى لايزال لأمرِهِ مُطيعاً ، مادمتُ على ذلك مُستطِيعاً ، وأقرأ يامولاى وسيِّدى من سَلامى على نفسِك ما لا يبلغ [الإحصاءُ][١٩] إحصاءَه ، ولا الحسابُ تقَصيَّه واستقصاءَه ورحمةُ الله .

= انظر فى ترجمته : [المغرب ٢/٤٠١ - أعمال الأعلام ٢٥٣ ، البيان المغرب ٣/١٥٧]

(١٣) فى الأصل : تكررت عبارة (بتراخى المدة) وهما من الناسخ .

(١٤) ذكر الفتح بن خاقان فى (المطمح : ٦٠) أنه لما مات الموفّق مجاهد العامرى خاف ابن سيدة من ابنه إقبال الدولة ، ففرَّ الى بعض الأعمال المجاورة ، وكتب إليه منها مستعطفاً :

ألا هل إلى تقبيلِ راحتك اليُمنى ... سبيلٌ فإنَّ الأمنَ فى ذاك واليُمنا

ويشير فى هذه الأبيات الى تهديد إقبال الدولة له بالقتل ، وهو يتفق مع مايذكره فى هذا الموضع من رسالته .

(١٥) فى الأصل : محتوماً ، تصحيف .

(١٦) الإيثاق : العهد

(١٧) أى مجاهد العامرى والد إقبال الدولة .

(١٨) فى الأصل : تجزى

(١٩) زيادة يقتضيها السياق .

[١٨]

[وكتب إليه][1] أيضاً :

[١٧/أ] ياموْلاىَ حقيقةً لا مجازاً ، وسيِّدى الذى ليس لى على ما أسداهُ مَثابٌ ولا مُجَازىً ، ومن أبقاهُ الله مُنْجِزاً[2] للمواعِد ، صادِقاً[3] للبوارِقِ والرَّواعد .

غير خفىٍّ — أبقاك الله — أنَّ التَّهانى[4] ، لاتحتمِلُ التلوُّمَ والتَّوانى ، فإنَّ ذلك مِمَّا يُذْهِبُ غَضَارتَها ، ويُذيبُ نضارتَها ، ويسلبُ رونقها ، ويُشيِّبُ أوانُ شبابِها مفرقَها ، إلاَّ أن يُجرى على مذهبِك فى الجمعِ بين حالتين ، وإراحةِ[5] نفسِك من تعيين فيصلٍ [بين شَيْئين][6] بين تهنئة بإرادة المُلْك ، وتعزية بحلول دارةِ الهُلْك ، فلعمرُك لقد سلكَ بك سبيلَ الرَّشاد ، وكشفَ لك وجهَ السَّواد لا أباه أبا الحسن ، فليس إغفالُ هذا بالحَسَن ، مع أنِّى أستقبلُ أمراً أخافُ بل أتيقَّنُ أنْ سيضْطرنِّى ، ويوردُنى شرَّ إيرادٍ عليه ، فيتسمَّع عِنْدَه قِبَلى من أن يُسِيء الظُّنن[7] ، ويقولُ للصَّيف ، : ضيَّعت اللَّبن[8] ، أدامَ اللَّهُ ، أيُّها المولى الرَّفيعُ ، والموئِلُ المَنيع ، صونَك وأحسَنَ على تقصيةِ مآربِك — عونَك ، والسَّلام .

---

(١) مطموسةٌ فى الأصل ، والضمير فى « كتب » عائد على ابن سيدة صاحب الرسالة المتقدمة ، أمّا الضمير فى « إليه » فعائد على أستاذه الذى كتب اليه أيضاً الرسالة المتقدمة (رقم ١٧) .

(٢) فى الأصل : منجر ؛ تصحيف وخطأ لغوى .

(٣) فى الأصل : صادق ؛ خطأ لغوى .

(٤) فى الأصل : التهانى .

(٥) فى الأصل : ولراحة .

(٦) زيادة يقتضيها السياق ومراعاة السّجع .

(٧) فى الأصل : الظّن ، ومراعاة السّجع فى قوله (اللّبن) تقتضى ما أثبتناه .

(٨) من أمْثالِهم : الصَّيفَ ضيّعت اللّبن ، يُضرب للمرءِ إذا فرّطَ فى أمره ووقته .

[١٩]

وكتب إليه أيضاً * :

يامولاىَ الأجل ، وسيِّدى الذى اضطلعَ بأعباءِ المكارمِ واستقلَّ ، ومعقِلى الذّى لم أرم به أملاً [إلاَّ](١) أصميتهُ ، ولا زاحمتُ بركنهِ جبلاً إلاّ هدمتهُ ، ومن أبقاه اللّهُ فى نعمةٍ لا يُميلُ الكدرُ إليها طرْفَه ، ونعمةٍ لا يُجيلُ القدرُ عليها صرْفَهُ .

كتابى ــ أعلى اللّهُ قدرَك ، وأسمى محلَّك وذكرَك ، عن لسانٍ لا يخلو من شُكركِ(٢) ، وجنانٍ لا يسلو عن ذكركِ ، ونفسٍ لايصرِمُ البعدُ حَبلَ ودادِها ، ولا يقطعُ / الإغبابُ(٣) بالمطالعةِ عِقْدَ اعتقادِها ، وكبدٍ صَدِيَتْ إلى مشرعِ بِرِّك فصدَّت عن وِرْدِه ، وظمِئتْ(٤) إلى مكْرعِ أُنسِك ، فخليت عن بُرْدِه ، ومهما كان الدَّهرُ يرضى أو يغضَب(٥) ، والدَّارُ تنأى أو تَصْقَب ، فأنا كما عهدتَ ، وسيَّانِ غبتَ أو شهدتَ ، أجنيك غَرْسَ الإخاءِ غضّـاً ، وأسقيكَ كأسَ الثَّناءِ مَحْضاً ، وأعذل مع ذلك نفسى فى تأميلِها بقاءً ، وقد عدمت لعزَّتك الكريمةِ لقاءً ، فى بلدةٍ كنتَ لناظِرِها سواداً ، ولجسمِها فؤاداً ، ولمكرماتِها تاجاً ، وفى ظلماتها سِرَاجاً نيِّراً وهَّاجاً [١٧/ب] وقد عطَّلتَ جيدَها بعد أن أطلْت تزيِّنها وتمجيدها لكنَّ الزمانَ قصرهَا بنبْلٍ ، فأقصرَها بما شئتَ من نِبالٍ ونصلْ ، أما والسَّيادةِ التى غدوتَ رضيعَ لُبَانِها ، وأصبحت

(*) الضمير فى « كتب » عائد على ابن سيدة صاحب الرسالتين المتقدمتين [١٧ – ١٨] ، وقد خصَّ أستاذه بهذه الرِّسالة أيضاً .

(١) زيادة يتطلبها السياق .

(٢) فى الأصل : سكرك .

(٣) الإغباب : القلَّة .

(٤) فى الأصل : وصميت .

(٥) فى الأصل : يعصب .

حلّى جيدِها ولبانِها[٦] ، لقد قرّتْ عينُ مُلْكٍ غدوتَ واسطة عِقدِه ، وظفرتْ كفُّ مَلكٍ حصلت فى أنشوطِة عُقَدِه[٧] وفى ذلك أقولُ ، وأنت المسترشدُ المسئول :

تهنّأ بصورٍ أو نُهنيـنّها بِـكا وقلُ الذى صُـورٌ وأنت له لـكا

وإن سَهُلَ على عُلاك ، لا زالت المحاسِنُ حُلاك ، مراجعتى من خطّك بحرْفين ، واللّهُ يديمُ بك قُرّةَ العين ، أُعَانُ بهما على دهرى ، وإنْ كانت مُنّتُه[٨] تُثقِلُ ظهرى ، لا زال مصوناً بك الأدبُ الذّى صفت لك مشارِبهُ ، والحَسَبُ الذى أضاءت بك مشارِقُه ومغارِبُه ، فى عِزّه تغلبُ ريبَ الزّمان ، وهزّةٍ لا تسلِبُ ثوبَ الأمان ، والسّلامُ على مولاى ، عددَ شوقى إليه ، وحِرصى عليه .

(٦) اللُّبان (بالضم) الحاجة ، واللَّبان (بالفتح) : الصّدر .
(٧) الأُنشُوطة : عُقْدَةٌ يسهلُ انحلالُها مثل عُقدة التّكّة ، يُقال : ما عِقالُك بأنشُوطةٍ ، أى ما مودّتُك بواهية .
(٨) المُنّة (بالضم) القوّة .

[٢٠]

وكتبَ إليه أيضاً* :

أطالَ اللّهُ بقاءَ الحَبْرِ الإمام ، المختصُّ من جميعِ الفضائلِ بالتقدُّمِ فيها والتَّمام ، وارث أسرارِ الحكمةِ ، ومورِّثها ، وباعثِ أنوارِ الهِممِ ومُؤرِثِها[١] ، الذى بذَّ قسمْى العِلم الفذّ وفاق ، فملأ مسكُ ثنائِه الآفاق :

علاَّمةُ العلماءِ واللُّجِّ الذى   لا ينتهى ، ولكل بحرٍ ساحِلُ[٢]

مولاىَ بما نَفحَ وحبا ، وسيِّدى الذّى نصحَ وشدَّ لنصرى الحُبى[٣] ، مجتهداً فى السِرِّ والعلانية ، لا سأمٌ يلحقهُ|ولانِية ، فى عِزَّةٍ قائمةٍ لا يُنتقض مشدودُ رباطِها ، وهِزَّةٍ دائمة لا ينقبِضُ ممدودُ بساطِها ، وروضةٍ من الحياةِ ، حلو الجناةِ ، جنابُها مُريع ، وأيّامُها ربيع .

كتابى — أعزَّ اللّهُ الأستاذ حين وردَ كتابهُ ذو[٤] النَّشْر العاطِر ، والبِشْرِ المفجِّرِ زهر المَسرَّةِ خِلالَ روضِ الخاطِر ، فإنَّه شفىَ مِن مَرَضى ، ووافى على حين تشوُّفى اليه وغرضى ، [فكان بلسماً][٥] أزال أرَقاً ، وأَمْناً أزال من فؤادِ مُرْتاعٍ فَرَقاً ،

(*) الضمير فى « كتب » عائد على ابن سيده صاحب الرسائل المتقدمة [١٧ – ١٨ – ١٩] وقد آثر أستاذه بهذه الرسالة أيضاً .

(١) التأريث : إيقاد النّار وإذكاوها ، والإغراء بين القوم .

(٢) البيت لأبى الطيب المتنبى من قصيدة فى مدح القاضى أبى الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكى (ديوانه ٣ : ٣٧٤) برواية : « ولكل لُجٍّ ساحلُ »

واللجّ : الماء الكثير الذى لا يرى طرفاه . وقد تداخل البيت فى الأصل مع النثر .

(٣) الحُبى : جمع الحبوة ، وهو الثوب الذى يحتبى به ، والمعنى على المجاز .

(٤) فى الأصل : ذى ، خطأ لغوى

(٥) مطموسة فى الأصل ، ولعل ما أثبتُّه أقرب للمعنى

يابَرْدَ أنفاسِــهِ على كَبِــدى   وخُــلْدَه ما حييتُ فى خُــلْدى

[١٨/أ] ولعمر الأستاذ وقد أجلُّ القسمُ مَنْ بحياتِهِ العزيزةِ أقسم ، لقد ظمئتُ(٦) حتَّى زارنى من برقِهِ صادقاً ، وضحيت(٧) حتى مدَّ علىَّ مِن ظِلِّ أفقِهِ سُرادِقاً ، فحينئذٍ عادَ عُودى إلى إيراقه ، وازدادَ نجمُ سعودى من تألُّقِهِ وإشراقِهِ ، فمادَ فَرْعى فى غلوائِهِ ، وانآدَ نبعى(٨) بين حَرِّ ثراه ودرِّ سمائه

فهتفــتُ يانُعــمى لغصن وارقِ   أحيــاهُ منك حيــاءُ مُزْنٍ وادِقِ

وإنما كنت كالرَّوضةِ أغبَّها نوءُ السِّماك(٩) ، فلم تقو(١٠) بعد ذلك على الاستمساك ، حتَّى جفتها غيومُها ، وأحيَتْها نجومُها ، فلمَّا عدمت النَّظرة ، فَترت النضرة(١١) ، ثمَّ دفعتْ أنَّة باكٍ ، ورجَّعتْ جِنَّةَ شاك ، تسلُّ بالوابِلِ الجود ، وتأملُ أن يشفعَ لها البدءُ بالعوْد ، حتَّى رقَّتْ أفئدَةُ الأهلَّةَ ، فسقتْ ظمأْها برهامِ(١٢) الغُمائمِ المستهِلَّة ، فلم تزل ترشفُ الغمامَ الهَطِل ، حتَّى حُلِّى من منابتها ما عَطل ، تشربُ من بروقِ الثُّريا ، أشهى مِن غَبُوقِ الحُمَّيا ، وكأنَّما هى مباسِمُ الظُّبا ، تُهدى بَرْدَ رُضَابِها للأكبادِ الظمأى ، فمثلى أيُّها الأستاذُ ومثل ما تُوليهِ من الاعتماد ، كمثلِ هذه الرَّوضةِ وما يُواليها بعد الوَسْمىِّ من العِهاد(١٣) ، فقد قِيلَ إنَّ النَّفسَ من شأْنها الإرادة ، لِما جرتْ به العادة ، ولا سيما كتب إخوان الصَّفا(١٤) على البِعاد ، فإنَّه ألذُّ من

---

(٦) فى الأصل : ضميت .

(٧) فى الأصل : صحيت ، والصواب ما أثبتناه ، وضحى الرَّجل : إذا أصابه حَرُّ الشَّمس ، ومنه قوله تعالى : « وإنَّك لا تظمأ فيها ولا تضحى » أى لايصيبك حرُّ الشَّمس .

(٨) النَّبع : ضرب من الشَّجر تتخذ منه القسى ، وانآد : تثَنَّى ، والمعنى على المجاز .

(٩) السِّماك : نجم معروف ، وهما سماكان ، أحدهما : السِّماك الأعزل ، والآخر : السِّماك الرَّامح ، وهو — أى الرَّامِحُ — لا نوءَ له ، وهو إلى جهة الشَّمال ، والأعزل : من كواكب الأنواء ، وهو إلى جهة الجنوب .

(١٠) فى الأصل : تطو

(١١) فى الأصل : النصرة.

(١٢) الرهام . المطر

(١٣) العِهاد (جمع : العَهْد) وهو المطر الأوَّل ، وهو أحسن ما يكون لقلَّة غبار الآفاق ، والوسمىُّ : مطر أول الرَّبيع ثم يتبعه الولىُّ فى صميم الشتاء

(١٤) يورِّى بإخوان الصَّفا .

نغم الغناء[15] المستطرَبِ المُستعاد ، قال :

ولا التَّرْكُ للإحسانِ خيرٌ لمحسنٍ   إذا جعلَ الإحسان غيرَ ربيبِ
ولولا أيادى الدَّهرِ فى الجمع بيننا   غفلنا فلم نشعرْ له بذنوبِ

وقِيل : تحيَّاتُ الأحباب ، حياةُ الألباب ، وهل تلذُّ للقلوب راحة ، إلاَّ أن تمهدَّ إليها بكتابِ المحبوبِ راحة ؟!

ولمَّا وصلَ ياَمولاىَ كتابُك فكان قدرَ فرسخٍ دونى ، تلوتُ ﴿ إنّى لأجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تُفنِدُون ﴾[16] ، حتَّى إذا انثنى ودًّنا ، ﴿ فكان قابَ قوسين أو أدنى ﴾[17] ، أنشدتُ قولَ الآخر[18] : [١٨/ب]

وحديثُها كالسِّحرِ يسمعُهُ   راعى السِّنين تتابعت جَدْبا
فأصاخَ يرجو أن يكونَ حياً   ويقولُ من فَرَحٍ أيا رَبَّا

حتَّى إذا وافى الرَّسولُ ، خُيِّلَ المنى وأُدْرِكَ السُّول ، ثم فضَضتُ الخِتام فأبى نَشْرُهُ إلاَّ الشهرة لا الاكتِّام ، ثم ظللتُ أحيى من حِكمَه الرَّوضةَ الغنَّاءَ الأنيقة ، ومِن كَلِمِهِ الدَّوحةَ العيناءَ الوريقة ، بينا أنا أرتعى من ذلك البُستان ، فى مُستأسَدِ القُرْبان ، وأرعى من حُسْنِ البَيان ، إلى طَرَبٍ من أغانى القِيان ، شارباً من مائِه الزُّلال ، وساحباً تحت أفيائهِ أذيالَ الأميرِ المختال إذ طَمَّتْ[19] إلَّى عقربٌ من أثناء كتاب فأسِفتُ إلى النَّفس ، ونِسْبتَى لنَسَبِهِ كادتْ

---

(١٥) فى الأصل : نعم العا ؛ تصحيف .

(١٦) من سورة يوسف : ٩٤ ، والآية بتمامها : « ولما فصَلتِ العيرُ قال أبوهم إنى لأجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تُفنّدون » .

(١٧) من سورة النجم : ٩

(١٨) ورد البيتان فى الأمالى (١:٨٣) برواية « وحديثها كالقطر » منسوبين فى الحاشية للراعى النميرى وورد بدون نسبة فى عيون الأخبار (٤ : ٨٢)

برواية« وحديثها كالغيث » ووردا كذلك فى بهجة المجالس (٢ ٨) برواية « وحديثها كالقطر » على لسان أعرابى

(١٩) [illegible]

تُذهِبُ بالحِسّ ، فجريتُ من ذلك وقلتُ : حُسْنُ صَبْرٍ أيا عَلىّ[٢٠] فقد أنال بعد السُّرى النعىّ ، ومتى قابلك الزَّمنُ إلاَّ بحبورٍ مَشوب ، وسرورٍ مكذوب ؟!

هـذا الـذى وأبيـك يُعْرَف قَدْرُهُ   والحـقُّ يَدْمَـغُ تُرّهات الباطِلِ[٢١]

أيُّها السَّارى لاتفرحك الدُّلجَة ، حتَّى تُصبح ، ولا تَغرَّك البَلَجة[٢٢] حتىَّ تَسفر عن غرَّتِها وتُفصح ، فإنَّ الهلالَ قد يخدعُ السُّراة ، والآمالَ قد تُطمعُ الألباء السُّراة[٢٣] ، وهل أعلمُ بالزَّمنِ مِمَّن شقى من كُرَبِهِ بالصَّرْف ، ورُمى من خطوبه بالصَّرْفِ بعد الصَّرْف[٢٤] ؟ ثم نكر على التأمُّلِ المعرفة ، فأنشدتُ قولَ صاحبِنا طَرَفة[٢٥] :

يلومُ وما أدرى عــلام يلومُــنى   كما لامــنى فى الحىِّ قرطُ بن أعبـدِ

والسَّـــلام .

(٢٠) على : اسم ابن سيدة .
(٢١) البيت لجرير (ديوانه ٣٤٥) برواية : « ذاك الذى وأبيك تعرف قدره »
(٢٢) الدُّلجةُ : سير الليل ، والبَلَجةُ : آخر الليل عند انصداع الفجر ، يقال : رأيت بلجة الصبح : إذا رأيت ضوءه .
(٢٣) السُّراه (الأولى) : السائرون بالليل ، والثانية : السادة .
(٢٤) الصَّرْف : التقلُّب والحيلة ، والصَّرْف : حَدَثان الدَّهرِ ونوائبه .
(٢٥) هو طرفة بن العبد ؛ أحدَ شعراء المعلّقات ، والبيت مِن معلّقته ، (ديوانه : ٤٩) .
في الأصل : يلوم وما يدرى .

[٢١]

وكتب ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبى الخصال[١] ـــ رحمه الله ـــ إلى عسكرٍ انهزم موبّخاً لهم[٢] :

من أميرِ المسلمين ، وناصرِ الدِّين ، علىّ بن يوسفَ بن تاشفين[٣] ، إلى القومِ الَّذين استزلَّهم الشَّيطان ، واستهواهم الخذلان ، وغضبَ عليهم الرَّحمن ، ونزل بعذابهم القرآن [إلاَّ من][٤] تاب الله عليهم أنْ عَلِمَ فى قلوبِهم خيراً

(١) هو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلصة بن فرج بن مجاهد العافقى المشهور بابن أبى الخصال ؛ وهو رئيس كتّاب الأندلس ـــ كما وصفه ابن سعيد فى (رايات المبرزين : ١٨٨) . وقد ولد سنة ٤٦٥ هـ فى فرغلّيط من جهة شقورة ونبغ فى الكتابة ، فكتب لعلى بن يوسف بن تاشفين ؛ وتنقّل فى المغرب والأندلس حتى قتل سنة ٥٤٠ هـ فى الفتنة التى حدثت فى قرطبة بين ابن حمدين وابن غانية وله مجموعة رسائل محفوظة فى مكتبة الأسكوريال ، وعنها مصورة بمعهد المخطوطات العربية أنظر فى ترجمته : [الذخيرة ٣/٢ : ٧٨٦ ـــ قلائد العقيان : ١٧٤ ، المعجب : ٢٤٠ ، رايات المبرزين : ١٨٨ ، الإحاطة ٢ : ٣٨٨ /

(٢) كان لهذه الرسالة آثار مدويّة فى الأندلس ، وقد أشار إلى ذلك المراكشى (فى المعجب : ٢٤٠) فقال : « فلم يزل أبو عبد الله هذا [ابن أبى الخصال] وأخوه [أبو مروان] كاتبين لأمير المسلمين [على بن يوسف] إلى أن أخّر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه ؛ سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير ـــ لعنه الله ـــ هزيمة قبيحة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ؛ فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة فى ذلك ، وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسن فيها ماشاء ، فمنعنى من إيرادها الطول ، وكتب أبو مروان رسالة فى ذلك الغرض ، أفحش فيها على المرابطين ، وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة .. فأحفظ ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته ... فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع الى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش » . [انظر : رسالة أبى مروان بن أبى الخصال فى كتاب : رسائل أندلسية) بتحقيقنا ، وقد نشر د/ حسين مؤنس رسالة أبى عبد الله بن أبى الخصال فى مجلة المعهد المصرى بمدريد ـــ العدد الثالث ١٩٥٥ ص ١١٦ - ١١٨ ، كما نشر د/ محمود على مكى عدة من رسائل ابن أبى الخصال الصادرة عن على بن يوسف فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدان : السابع والثامن ص ١٦٧ - ١٧٤ .

(٣) سبق التعريف به

(٤) مطموسة فى الأصل ، ولعل ما أثبتُّه أقرب لأداء المعنى

يقبل به [١٩/أ] متابَهم ، ويطهِّر من دَنَس الفرارِ ثيابَهم ، ويعتق من ذُلِّ الكبولِ رقابَهم

بسم اللّهِ الرحمن الرَّحيم ، وصلَّى اللّهُ على سَيِّدنا محمَّدٍ رسولِهِ الكريم ، وعلى آله وسلَّم تسليما . سلامٌ على رجالٍ من المؤمنين صدقوا ماعاهدوا اللّهَ عليه(٥) ، وتقرَّبوا بالصَّبرِ الجميلِ إليه ، ونازلوا الأقرانَ بين يديه ، ففازوا بالحُسنيين ، وحازوا(٦) شرفَ الدَّرجتين ، أولئك الذين يُحبُّون ويُجلُّون ، وحين يموتونَ بفضلِ الشهادةِ يحيون ، ويلقون من الكرامةِ فى دارِ الكرامةِ مايلقون ، ومن الرَّحيقِ المختومِ والحوضِ الذى آنيتُهُ بعددِ النُّجومِ يُسْقون ، فالصلواتُ الزَّاكياتُ نحوهم تُحْدَى ، والتَّحيَّاتُ الطيِّباتُ إليهم وإلى مَنْ اهتدى بهديهم من بعدهم تُهدى . لا جرمَ أنَّهم الذين اتبعوا الهُدى ، وبلغوا من رضوانِ ربِّهم الغايةَ والمدَى ، وكُلُّهم بكرائِمِ الآباءِ والأمهاتِ يُقْتَدى .

أمَّا بعدُ يا أذلَّ من الحضيضِ المعبَّدِ الموطوء ، ويا أعداءَ أنفسِهم الأمَّارةِ بالسوء ، ويا خافضى أبصارِ المؤمنين بالخَبَر الممقوتِ عنهم المشنوء ، ويامن يجبُ على المسلمين اجتنابُهم(٧) كاجتنابِ البعيرِ الجرب المهنوء(٨) ، الذين لم يثبتوا فُواقَ مِكْنةٍ(٩) لنزال ، ولا تحرَّفوا إلى قتال ، ولا تحيزوا إلى فئةٍ تحمى أدبارهم بإقفال ، ولا خطرَ عذابُ الدُّنيا وعذابُ الآخرةِ لهم ببال ، شاهتْ وجوهكُم(١١) التى عَرَّضتموها للتشويه والتقبيح ، وأخرجها اجترامُها عن تعريضِ التقريع إلى التَّصريح ، لقد ذهبتم فيها عَرِيضَةً كالحُمُرِ المستنفرة ،

---

(٥) يقتبس من قوله تعالى : « من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه » الأحزاب : ٢٣

(٦) فى الأصل : وحاروا ؛ تصحيف .

(٧) فى الأصل : احتنابهم ؛ تصحيف .

(٨) المهنوء ، المطلىّ بالهناء ، وهو القَطْران .

(٩) المِكْنة (بالكسر) : التمكُّن .

(١٠) فى الأصل : تحيّروا ؛ تصحيف .

(١١) شاهت الوجوه : قبحتْ ، وفى الحديث أن النبىَّ ﷺ رمى المشركين يوم حُنين بكفٍّ من حصًى ، وقال . شاهت الوجوه — أى قبحت — فهزمهم الله تعالى .

﴿ فرّتْ من قسْورة ﴾[١٢] فى المهامهِ الفِيح ، ليسَ لكم فى التعقيبِ رجاء ، ولا منكم دونَ نارِ الحاميةِ انتهاء ، لايرتدُّ إليكم طَرْفُكم ، وأفئدتُكم هَوَاء ، رفعكَ اللّهُ فأخلدتُّم إلى الأرض ، وبُدِّلتم بالفَرارِ عن نصفِ ما أنزل اللّهُ فى قتالِ الكفَّارِ من الفرْض ، قال اللّهُ ـــ سبحانَه ـــ ﴿ الآنَ خفَّفَ اللّهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفا ، فإنْ يكن منكم مائةٌ صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكنْ منكم ألفٌ [١٩ب] يغلبوا ألفين بإذنِ اللّهِ واللّهُ مع الصَّابرين ﴾[١٣] فما اعتصمتم بالرَّحمن ، ولا عرجتم على آى القُرآن ولا عطفتكم حفيظةٌ إلى الأقران ، أنتم للكفرِ يومئذٍ أقربُ منهم للإيمان ، ألم تعلموا بأنَّ اللّهَ يراكم ، وأنَّ كتابَه يُناديكم فى أُخراكم ؟ ولكن أنّى لكم مع الجُبنِ الفاضحِ ، والخِزى الواضِح ذكراكم ؟ لقد أقررتُم بالفرارِ عيونَهم وصدَّقتم فى خَوَرِكم وفشلِكم ظنونَهم ، وهم يرونكم مثليهم رأىَ العين[١٤] ، فتُولونَهم من أكتافِكم ماتولُّونَهم ، فليتكم ذهبتم قبل ذلك فى المهالِكِ والمتالِف ، وانفردتْ رؤوسُكم مِن السَّوالف ، أو قعدتم حين كره اللّهُ انبعاثكم مع أشباهِكم من الخوالِف ، اللائى إنَّما عليهنَّ جرُّ الذيول[١٥] ، وحسنُ التبعُّل للبعول ، ولسنَ فى الهيجاءِ من القاتلِ ولا المقتول ، فاعتاضوا[١٦] من الدَّرقِ[١٧] بالمناخِل ، ومن السيوفِ بالخلاخِل ، ومِن الرِّماح الطِّوالِ بِقصارِ المغازل ، ومن المغافِر بالمقانِع[١٨] ، ومن القوانسِ[١٩] بالبراقِع ، ومن الجيادِ المصنوعة بالفُرُشِ المرفوعة ، ومن

(١٢) من قوله تعالى : « كأنَّهم حُمُر مستنفِرَة . فرَّتْ من قسورة » المدّثر : ٥١ والقسورة : الأسد ، والرُّماة .

(١٣) الأنفال : ٦٦

(١٤) من قوله تعالى : « وأُخرى كافِرةٌ يرونهم مثليهم رأىَ العين » آل عمران : ١٣

(١٥) كناية عن النساء ، وهو ينظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة (ديوانه ١٧٦)

كُتِب القَتْلُ والقِتالُ علينا وعلى الغانياتِ جرُّ الذيول

(١٦) فى الأصل : فاغتاضوا ؛ تصحيف .

(١٧) الدرق : ترسٌ من جلودٍ ليس فيه خشب ولا عقب .

(١٨) المغافِر (جمع مِغْفر) : وهو زرد يُنسج من الدروع على قدر الرأس يُلبس تحت القلنسوة ، وقيل : هو حلق يتقنّع به المسلّح فيقيه

والمقانع : (جمع المِقنع) وهو ما تغطى به المرأة رأسها

(١٩) القوانس (جمع قونس) ، وهو أعلى البَيْضة من الحديد

الدروع الصَّقيلة ،وأوزارِ الحربِ الثقيلة،بحفائفِ غلائل العقيلة ، ومن خضابِ الدِّماء بخضابِ الحِنَّاء ، ومن غُبارِ الهيجاء،بكُحْلِ الغادةِ الحسناء ، فقد فارقتم الرِّجالَ فى أحوالهم ، وانقلبتم الى إشكالِ النساءِ عن أشكالهم ، فاختاروا من البعول مَن تَسْتترون بظلالِهم ﴿ الرِّجالُ قوَّامون على النِّساء بما فضَّلَ الله بعضهَم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾[٢٠] واتقين[٢١] الله فالسَّرائرُ تَبلى ، والأعمالُ تُعرَضُ وتُجلى ﴿ وقرن فى بيوتكُنَّ ولاتبَّرجنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى ﴾[٢٢] ، فقد أصبحتم لصقورِ الرُّومِ خشاشاً وبغاثا[٢٣] ، ولذكورهم المعرَّسين بقتلاكم إناثاً ، وقد طلَّقتم الإسلام ثلاثاً ، وأضحت النَّارُ بدلَ الجنَّةِ لكم ميراثاً ، وصرتم ﴿ كالَّتى نقضتْ غَزْلَها من بعدِ قوَّةٍ أنكاثاً ﴾[٢٤] .

أما نفعكم التحذير ، ووعظكم الكتابُ المُنْزَلُ حيث أسمعكم [منه إلى][٢٥] كثير ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقِيتُم الذَّين كفروا زحْفاً [٢٠/أ] فلا تولُّوهم الأدبارَ . ومن يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلاَّ متحرِّفا لقتالٍ أو متحيِّزاً الى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ من اللَّهِ ومأواهُ جهنَّمُ وبئْسَ المصير ﴾[٢٦] . أمِن العِزَّةِ إلى الهوانِ تفِرُّون ، والحياةَ اللئيمةَ بالآخرةِ تشترون ، وعن جَنَّةٍ عرضُها السَّمواتُ والأرضُ تُعرِضون ؟ لقد حبطتْ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون ، فهلاً إذ مسَّكم طائفٌ من الشَّيطانِ تذكرتُم تذكُّرَ المبصرين ، وكررتُمْ لذنوبِكم مستغفرين ، واقتديْتُم بالذين قالوا ﴿ ربَّنا اغفرْ ذنوبَنا وإسرافنا فى أمْرِنا وثبِّتْ أقدامَنا وانصُرْنا على القومِ الكافرين ﴾[٢٧] إذاً لأتاكم اللَّهُ ما آتاهم ﴿ ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثوابِ

(٢٠) النِّساء : ٣٤

(٢١) يستعمل نون النسوة فى خطاب الجند مبالغة فى السخرية منهم والإزراء بهم .

(٢٢) الأحزاب : ٣٣

(٢٣) الخِشاش : (بالكسر) : الحبارى والكروان ومُلاعبُ ظِلَّه ، وما لا دماغ له من الطَّير والخِشاش (أيضاً) : الحشرات وهو أم الأرض . والبغاث : كل طائر ليس من الجوارح ، وقيل : هى الطير الضعيفة التى تُصاد .

(٢٤) النحل : ٩٢ ، والآية بتمامها : « ولا تكونوا كالتى نقضتْ غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً » .

(٢٥) مطموسة فى الأصل ، ولعل ما أثبتُّه أقربُ لأداء المعنى .

(٢٦) الأنفال : ١٥ ١٦

(٢٧) آل عمران : ١٤٧

الآخرةِ واللَّهُ يُحبُّ المحسنين ﴾[٢٨] ، إلاَّ أنَّ من لقيتم من أولياءِ الشَّيطان ، وعبدَةِ الصُّلبان ، وقد عرفتموهم لم يُنشَأوا خَلْقاً جَديدا ، ولا كانوا حجارةً أو حديداً[٢٩] ، إلاَّ أنَّ الرُّعبَ جعلَ بينكم وبينهم بوناً بعيدا ، وفَوْتاً طويلَ الغاية مديداً ، وهل كانت تلك الشرْذمةُ إلاَّ أوباشَ المجاهل ، وجِماعَ المناهِل ، وتُبَّاعَ الأراذِلِ الأسافل ، وأَسَارى[٣٠] معاركِ الإسلام ، وبقايا الأدنياء اللِّئام ؟ فلو أصبتُم بيدِ جُبَار ، أو سطا بكم ذو محلٍّ فى الرُّوم ومقدار ، أو لطمتكم ذاتُ سوار[٣١] ، لأدليتم بشبهة اعتذار ، وَقيلَ ريحٌ قد لقيت هبَّة إعصار[٣٢] ، ولو تكافأتُم فى العَدد ، وظهروا عليكم بالصَّبرِ والجَلدَ ، لخفَّتَ ذلك من الوجدِ والكَمَد ، فأمَّا والكَبْشُ يُناطَحُ بكبشَيْن ، والسَّيفُ يُماصَعُ[٣٣] بسيْفين ، و ﴿ للذكَرِ مِثْلُ حظِّ الأنثَيين ﴾[٣٤] فلا أثَرَ فى منتهى الدناءة ، وتضاعُفِ الإساءة بعد عيْن .

وقد كان أبو زكريا يحيى بن علىّ[٣٥] وليَّنا فى اللَّهِ ، والاه اللَّهُ وأدامَ عصمتَه وعِزّه بتقواه ، أدَّبكم فى الحربِ بآدابهِ الكريمة ، ونقلكم بشرفِ إقدامِه عن تلكم العوائد الذَّميمة ، ومطركم من عارض الجلاد كلَّ عارضٍ بَرَدٍ وديمَة ، فلمَّا حبسَه عنكم العدوُّ ﴿ انقلبتُم على أعقابِكم[٣٦] ﴾ ، ومكَّنتُم الأعداءَ من

(٢٨) آل عمران : ١٤٨ والآية بتمامها : « فآتاهم اللَّهُ ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة والله يُحِبُّ المحسنين » .

(٢٩) يقتبس من قوله تعالى : « وقالوا إذا كنَّا عِظاماً ورُفاتاً أإنَّا لمبعوثون خلقاً جديداً . قُل كونوا حِجارة أو حديداً » . الإسراء : ٤٩ – ٥٠

(٣٠) فى الأصل : أسار

(٣١) فى المثل : « لو ذاتُ سوارٍ لطمتنى » أى لو كانت اللاطمة حُرَّة لكان أحف لأن العرب قلَّما تُلبِس الإماء السوار ، وقيل : لو ظلمنى من كان بدًّا لى لهان ، ولكن ظلمنى من دونى . (الميدانى ١٢٢/٢)

(٣٢) فى المثل : « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » ، يضرب للمدل بنفسه إذا بلى بمن هو أدهى منه وأشد (الميدانى ١ · ٢٧) .

(٣٣) يُماصع : (من المماصعة) وهى المقاتلة والمجالدة بالسيوف .

(٣٤) النِّساء : ١١ . من الآية : « يوصيكم الله فى أولادكم للذَّكرِ مِثْلُ حظِّ الأنثيين » .

(٣٥) سبق التعريف به

(٣٦) آل عمران ١٤٤ من الآية « أ فإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم »

ظهوركم ورقابِكُم ، وتركتُم — حينَ ودَّعتموهُ — [٢٠/ب] السكينةَ والبسالةَ فى مكانِها ، وعادتْ هَيْفُ لأديانِها(٣٧) ، وأراد اللَّهُ بغيبتهِ ما أرادَ من كشفِ(٣٨) سرائِركم وبيانِها ، وإذ قد جئتم من الكبائرِ الموبقةِ بما جئتم ، وبُؤتم مِن سوءِ الأحدوثةِ ، ونُكر الأخبارِ المبثوثةِ بما بُؤتُم ، فاعملوا بعدها ماشئتُم وقد كُنَّا عند تسمِيعكم(٣٩) وتقريعكم بنهَرةٍ(٤٠) ، ولكنّكم بعظيمِ اجترامكم ، ومساوىءِ يومكِم الذَّاهبِ بمحاسِنِ أيَّامكم ، قد أخرجتمونا عن سجيَّتنا بِكرَّة وفى أغراضِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم — عن الثلاثةِ الذين خُلِّفوا وثبَّطَهم/العدد بحَبْسهِ ، ورَغِبوا بأنفسِهم فى غزوةِ تبوك(٤١) عن نفسِه ، ما بيَّن لنا مواقعَ الصوابِ فيكم وكشفَ عنه غطاء لَبْسِهِ ، فوكلهم خمسينَ يوماً الى اغتامِهم ، وحالَ بين المسلمين وبين كلامِهم ، وضيَّق عليهم مذاهبَ تأنيبهم وإكراهِهم ، وأمرَهم باعتزالِ الأزواجِ وأخذ عليهم عقابَه — صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم — بثنايا الضّيقَ والإحراج ، وارتجَّ أبوابَ الرَّحمةِ عنهم كُلَّ الإرتاج حتَّى ﴿ ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبتْ وظنُّوا ألاَّ ملجأ من اللَّهِ إلاَّ إليه ﴾(٤٢) فأتتهم بصدقِ توبتِهم بُشرى العفوِ والإفراجِ(٤٣) ، هذا وكلُّهم بدرىٌّ(٤٤) عتيق ، وأنصارىٌّ عريق ، ورسولُ اللَّهِ — صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم — بهم رحيمٌ رفيق ،

---

(٣٧) فى المثل : « ذهبت هَيْفُ لأديانها » أى لعاداتها ، والهَيْفُ : كُلُّ ريحٍ ذاتِ سمومٍ تُعَطِّش وتجفِّفُ كل شيءٍ وتيبسه . (اللسان : هيف) .

(٣٨) فى الأصل : كسف ؛ تصحيف .

(٣٩) التّسميع : التشنيع والتشهير ، وسمَّع به : أسمعه القبيحَ

(٤٠) النَّهر : الزَّجر .

(٤١) غزوة تبوك هى آخر غزوات النبى ﷺ ، والثلاثة الذين خلّفوا هم : كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة العامرى وهلال بن أميّة الواقفى ، وكلهم من الأنصار ، وقد أرجأ رسول الله ﷺ أمرهم حتى قضى الله فيه فقال تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خُلْفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رحُبتْ وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التوَّابُ الرحيم » التوبة : ١١٨

انظر فى ذلك [اللؤلؤ والمرجان ٣ : ٢٤٦ - ٢٥٤]

(٤٢) التوبة : بعض آية (١١٨) .

(٤٣) قال تعالى فى ذلك : « ثم تابَ عليهم ليتوبوا إنَّ الله هو التَّوابُ الرحيم » التوبة : ١١٨

(٤٤) بدرىّ أى من الدين شاركوا فى عزوة بدر

ولازادوا على التخلُّف ، ولا أتوا بذنبٍ سوى ذنب[٤٥] التوقُّف ، فإنْ تبتم كما تابوا ، فاللَّهُ يقبلُ التوبة عن عبادِه ، ويُقيلُ المستقيل المصلح من عثارِ فسادِه ، ويهديه سُبُلَ توفيقهِ ورشادِه ، وما نكرهُ أن تُجْزَوا فى سبيلِ اللَّهِ فرَّةً بكرَّة ، وتعودوا بنفعٍ بعدَ مضرَّة ، وإن أبيتُم إلاَّ الرّجوعَ على ماكنتُم عليه أوَّل مرّة ، فلن تضرُّوا اللَّه شيئاً[٤٦] ، وسيحبط أعمالَكم ، ﴿ وإن تتولوْا يستبدِلْ قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾[٤٧] ، وأبو زكريا يحيى بن على[٤٨] ولَّينا فى اللَّهِ — والاهُ اللَّهُ وأدامَ عِزَّه وعصمتَه بتقواه يرى فيكم بتوفيقِ اللَّهِ إسداءَ الآراء ، فيدُهُ يَدُنَا ، فإنَّ به لكم أباً [فى السرَّاء][٤٩] والضَّرَّاء ، والمنع والإعطاء ، وأنتم تحتَ مَوجْدَتِنا[٥٠] [**٢١/أ**] الشديدة فى ذاتِ اللَّه تعالى حتَّى يظهرَ منكم ما يُصَيِّرنا فيكم بإذن اللَّهِ — تعالى — إلى الارتضاء ، وسلامُ اللَّهِ على التائبين فى اللِّقاء ، وعلى اللائذين من المؤمنين بالتوبةِ النَّصوحِ المُنْقِذةِ من الغمَّاء ، ورحمةُ اللَّهِ وبركاته ، فكونوا حيث شئتم من القُربِ أو الإقصاء .

---

(٤٥) فى الأصل : دنب ؛ تصحيف .
(٤٦) من قوله تعالى : « ومن ينقلبْ على عقبيهِ فلن يضرَّ اللَّه شيئاً » آل عمران : ١٤٤
(٤٧) سورة محمد : ٣٨
(٤٨) سبق التعريف به .
(٤٩) مطموسة فى الأصل .
(٥٠) الموجدة : الغضب ، وفى الأصل : موحدتنا ؛ تصحيف

كتب ذو الوزارتين الكاتب أبو مروان بن أبى الخِصال[(١)] عن تاشفين ابن علىّ[(٢)] إلى صاحبِ فاس فى أمرِ محمَّد بن تميم حين استرابَ منه :

كتابُنا ـــ كتبَ اللَّهُ لك فى مرضَاتِه الرأىَ الأصيلَ المُحْكَم ، وجعلَكَ مِمَّن إذا بدأ فى طاعتِه بحزمٍ استوفى غايتَه وتَمَّم ، وإذا همَّ بسدادٍ ألقى عزمَه بين عينيه[(٣)] وصمَّم ، ولا زلتَ تسبقُ الغادرَ الفاجِرَ إلى إخراجِ مانوى من الشَّر وكَتَم .

من حضرةِ مرَّاكش ـــ حرسها اللَّهُ ـــ منتصف جمادى الآخرة سنة خمسٍ وثلاثين وخمسمائة ، ونحن نحمدُ إليك اللَّهَ الذّى لا إلهَ إلاَّ هو كِفاءَ ما أوجب من حقوقِه وألزم ، ونشكرُه شُكراً يتقاضى المزيدَ الموفورَ ماخوَّل وأنعم ، ونُصلِّى على مُحمَّدٍ نبيِّه ورسولِه الأكرم ـــ صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين كثيراً طيِّباً وسَلَّم .

أمَّا بعدُ ـــ أدامَ اللَّهُ عِزَّكَ ـــ فإنَّ الكِرامَ تنتهى إلى مكارمِ أخلاقِها ،

---

(١) هو الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن أبى الخصال ، كان كاتباً لعلىّ بن يوسف بن تاشفين إلى أن كتب رسالته المشهورة إلى جماعة الملثَّمين من الجند الذين انهزموا عن النصارى ، وأفحش عليهم فيها ، فغضب عليه علىّ بن يوسف وأخّره عن كتابته ، وتوفى بمراكش سنة ٥٣٩ هـ ، قبل وفاة أخيه عبد الله بن أبى الخصال بثلاث سنوات .

* انظر فى ترجمته : [بغية الملتمس ٣٨٢ رقم ١٠٧٦ ، التكملة ٦٠٩ ، المعجب ٢٤٠ ، المغرب ٢ : ٦٨] .

(٢) هو تاشفين بن على بن يوسف ـــ ثالث أمراء المرابطين ـــ تولَّى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٥٣٧ هـ وخاض غزوات كثيرة ضد النصارى بالأندلس ، وظلَّ يحكم الى أن هزمه الموحدون واستولوا على المغرب والأندلس ، وتوفى تاشفين متردّيا من شاهق عند وهران سنة ٥٣٩ هـ .

(٣) ينظر الى قول تأبط شراً :

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكَّب عن ذكر العواقبِ جانبا

والجيادَ تجرى على ماسرى من العِتْقِ المبَّرزِ فى أعراقِها ، وتأبى إلاَّ إظهارَ شَدِّها ، وإخراجَ أعناقِها ، والشَّجرة الطَّيبةَ تجنى الرَّائقَ من ثَمرِها ، والمرَّ من مذاقِها ، وَلا تزالُ الأيَّامُ تكشفُ بالامتحانِ عن الحقائقَ أبناءَها ،[4] وتشيدُ ارتفاعاً أو تهدمُ اتّضاعاً مشيدَها وبناءَها ، فمنهم من [لا][5] يتقيَّلُ إلاَّ بالكِرام ، ويشبهُ الأخوالَ والأعمام ، ويتحرَّى الكمال ولا يرضى إلاَّ التَّمام ، فذلك الشِّمَّرىُّ[6] الذى قدْ قدَّ السَّيفَ وقطعَ ، والألمعىُّ الذى يظنُّ الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سمع ، والأوحَدىُّ الذى تفرَّقَ فى الرِّجالَ من كرمِ الخِلال حيزله[7] وجمع ، يتركُ دنياه لدينهِ ، وينتفِعُ ـــ شهامةً وحزامةً[8] ـــ بظنِّه ويقينهِ ، ويتلقَّى راية كُلِّ مجدٍ بيمينهِ[9] ، وأنت ـــ أدام اللَّهُ عِزَّك ، من الأوَّلين ، [**٢١/ب**] والمتقدِّمُ فى صدورِ المتقدِّمين ، ومنهم من إذا رُفع أخلدَ إلى الأرض ، واختارَ القعودَ على النهض ، وجاز من الإبرام إلى النّقض ، وآثر المطروق الممذوق على المحض .

وإنَّ كتابَكَ الأثيرَ المبرورَ وافانا فى أمرِ الخائن الشقىِّ ، والسَّفيهِ الحائرِ الغَوىِّ محمد بن تميم الذى لم تُحمد منه شيمة ، ولا استقلَّت به فطرةٌ سليمة ، ولا فارقتْه فى المبدأ ، وتدرَّجتْهُ فى المنشأِ صفاتٌ ممقوتةٌ ذميمة ، أخَّره اللَّهُ حين لم يَصلُح له التَّقديم ، وأهانَه ومَنْ يهنِ اللَّهُ فما له من تكريم ، ﴿ ومن يُرْدِ اللَّهُ فتنتَهُ فلن تَملكَ له من اللَّهِ شيئاً ، أولئكَ الَّذين لم يُردِ اللَّهُ أن يُطهرَّ قلوبَهم لهمْ فى الدُّنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرةِ عذابٌ عظيم ﴾[10] وقد كان ـــ أدام اللَّهُ عِزَّك ـــ خليقاً بما فعلته به قبلَ أن يصنعَ ما صنعَه ، حقيقاً بذلك السَّطوِ

---

(٤) فى الأصل : أبناها

(٥) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٦) الشِّمَّرىّ : المجرّب ، الكيِّس فى الأمور والحوائج (مأخوذ من التَّشمير) و (الشمرىّ) و (السّمرىّ) بمعنى واحد ؛ يقال سمَّر سهمه (وشمَّره) : أرسله بالعجلة .

(٧) كذا فى الأصل ، والحزل : الارتفاع ، يقال للسحاب إذا ارتفع نحو بطن السماء : احزألّ

(٨) الحزامة : الحزم .

(٩) ينظر إلى قول الشمّاخ : (ديوانه ٣٣٦)

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تلقَّاها عرابةُ باليمين

(١٠) المائدة : ٤١

الحازمِ وبأمثالِه معَه ، ولو علم اللّهُ فيه خيراً لأسمعَه ، والحمدُ للّهِ الذى جعلكَ دونَ المسلمينَ خصمةَ وحجيجَه ، واختار لك أن تُسْمِعَنا وإيَّاهُم بالحق الأوجبِ ضجيجَه ، وتكفى خاصَّتهم وعامَّتهم تشغيبهَ وتهريجَه وكيف تحذرُ[١١] أدامَ اللّهُ عِزَّكَ من اهتبالِ غِرَّةٍ لونزلَها ، وعرضَ نفسَه عليكَ مكانَها ، لسدَّدَ إلى نحرِك[١٢] ونحورِ المسلمين سنانَها ، أتراقبُ إلاًّ وذِمَّة فيمن لا يُراقِبُ فى مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمَّة ؟ أو ترعى حُرْمة لمن لم يجعل له اللّهُ حُرْمة ؟ أو تعطِفُك سهمةٌ على مَنْ لم يجعل الإسلامُ له قِريٍ ولا سهمة ؟ أما لو لم تكسِرْ نخوتَه وانتزاءَه ، وتقطع حين تعزّى بعزاءِ الجاهليةِ اعتزاءَه ، لضيَّعتَ وصيّةَ شيخٍ حازمٍ جُعِلْتَ إزاءَه .

إعلمْ ــ وفَّقَكَ اللّهُ ــ أنّك لما آثرتَ فيه هذا الرأىَ الأحْزَم ، وعزمَ اللّهُ لنا ولك وللمسلمين فيه بما عَزَم ، رأينا من أبيك ــ رحمةُ اللّهِ عليه ــ شِنْشَنَةً نعرفُها من أخزم[١٣] ، فياحبَّذا شِنْشَنَة أحييتَ بها أباك ، وفضيلة خيرُها وإنْ عمَّ المسلمينَ بحمدِ اللّهِ لن يتخطَّاك ولن يتعدَّاك ، وأهلاً بأمرٍ جمعَ لك فى رضا اللّه بين هوانا وهواك ، وفتكةٍ حميتَ بها حمى الدِّين ثمَّ حِماك وليت [كلَّ والٍ أو عاملٍ][١٤] كفيناهُ من أمورِ المسلمين أمراً ، واستخفظناهُ من الثُّغورِ [٢٢/أ] المهمَّةِ ثَغْراً ، يذهبُ حيث ذهبتَ ، ويصيبُ كما أصبتَ ، وينتدبُ من السَّدادِ وإيثارِ الصَّلاحِ فيمن سعى فى الأرضِ الفسادَ إلى ما انتدبت ، إذاً لقُوتِلَ الأعداء ، وحُسِمَ الدَّاء ، واستولى على العدوِّ الوفاء ، هذا خطأٌ صَوابُه واضِحٌ باهِر ، وشكاةٌ عددُها عنك ظاهِر ، ومصلحةٌ ظاهِرة

---

(١١) غير واضحة فى الأصل .

(١٢) فى الأصل : تجرك ؛ تصحيف .

(١٣) من الأمثال السَّائرة « شنشنة أعرفها من أخزم ، يُضرَب فى قرب الشبه ، ويقال إنَّ جدّ أبى حاتم الطَّائى أوجد جدَّه كان له ابن يقال له أخزم ، وكان عاقاً ، فمات وترك بنين ، فوثبوا يوماً على جدهم أبى أخزم فأدموه ، فقال :

إنَّ بنــيَّ ضرَّجــونى بالـــدَّمِ   شِنْشِــنةٌ أعرفُــها من أخـــزَمِ

(١٤) غير واضحة فى الأصل ، وهو مُستجلى .

ومنقبةٌ فلكُها بالثّناء عليك دائر ، وذِكرُها من الأيّامِ لك سائر ، وقد يُحاز بذْكرِ التّقصير انتهاء ، ويترتَّبُ بلفظ القذع ثناء ، وتُستوفى غايةُ المدحِ فيمن عنده ثَلْبٌ وخناء ، كما يُزيِّنُ الحسامُ فلولهَ من قراعِ الدّارعين وحشو غمدهِ تطبيقٌ للمفاصِلِ ومضاء ، ولعلَّك فى فِعْلتِك التى فعلتَ من قومٍ رضى اللّهُ عنهم ورضوا عنهُ ، وآتاهم اللّهُ ثوابَ الدُّنيا وحسنَ ثوابِ الآخِرة من لدُنْه ، فقال فيهم : ﴿ لا تجِدُ قوْماً يؤمنونَ باللّهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّونَ من حادَّ اللّهَ ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم أولئكَ كَتَبَ فى قلوبِهم الإيمانَ وأيَّدهم بروحٍ منه ﴾[١٥] وقال — عليه السَّلامُ — فى المخزوميَّةِ فاطمة ، وبنو مخزومٍ جوارُه وهم أخوال[١٦] أبيه وأصهارُهُ : « واللّهِ لو كانت فاطمة بنتَ محمَّدٍ لقطعتُ يدَها[١٧] » َ وردَّ على أسامةَ بن زيدٍ شفاعتَه ، وأجارَه من غضبِهِ اعتذاره ، فلا تقل — أدام الله عِزَّك — فى أمثالِ هذه النَّازلةِ : مَنْ تَطلعَ إلى شقِّ عصا المسلمين واستشْرَف ، واقطعْهُ ولا ترحمهُ ، فإن استجدى واستعطفَ ، فكُلُّ قريبٍ أقصاه الحقُّ [بعيد][١٨] ، وكُلُّ بعيدٍ أدنتْه الطَّاعةُ سعيد ، وليس لنا إلاَّ بكتابِ اللّهِ وسُنَّةِ رسولِ اللّه — صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم — تصويبٌ وتصعيد ، وقال اللّهُ تعالى لنوحٍ — عليه السلام — فى ابنه [الضَّال][١٩] الجامح ، ومحلُّ الابنِ من أبيهِ بين الشَّغافِ والجوانح : ﴿ يانوحُ إنَّه ليسَ من أهلكَ إنَّه عملٌ غيرُ صالحٍ ﴾[٢٠] .

---

(١٥) المجادلة : ٢٢

(١٦) فى الأصل : أحوال ؛ تحريف .

(١٧) روى أحمد ومسلم والنسائى عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : كانت امرأة مخزوميّة تستعير المتاع وتجحده ، فأمر النبى ﷺ بقطع يدها فأتى أهلها أسامة بن زيد — رضى الله عنه — فكلّموه ، فكلّم النبىَّ ﷺ فيها فقال له النبىُّ ﷺ : « يا أسامة لا أراك تشفعُ فى حدٍّ من حدود الله — عز وجل» ثم قام النبىُّ ﷺ — خطيباً فقال : « إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » وقطع يد المخزومية .

(١٨) مطموسة فى الأصل .

(١٩) غير واضحة فى الأصل ، وهى مستجلاة .

(٢٠) هود : ٤٦

وقال — تعالى — لإبراهيمَ عليه السَّلام فى أبيه ، والإسلامُ يناقِضُ كُفْرَه ويُنافيه ، والأرحامُ مِن بعدِه عن الإيمان لاتُقرِّبُه ولاتُدْنيه : ﴿ فلَّما تبَّينَ له أنَّه عدو اللّه تبرَّأ منه ﴾[٢١] ، فهذا [٢٢/ب] الذى فى عُصَاةِ الأقاربِ نمتثلُه ونحتذيه ، وقد خاطَبْنَا الولىَّ الأعزَّ فى الله أبا زكريا يحيى بن على[٢٢] أيَّده الله أن يحلَّه من ميورقة[٢٣] مكاناً قصياً ، ويتركه بالجزيرة[٢٤] نسياً منسيّاً ، ويذرُه لاحَيّاً مَرْجوّاً ولا ميْتاً منسيَّاً . ألحقَ الله به من ينوى للمسلمين مانواه ، وأولاه ما تولَّاه ، وجعلَ الخزىَ والسوءَ مردّهُ وعُقْبَاه ، وإذ قد بدا تدبيرُ الخُبثَاءِ فهذا أوانُ الظُّهورَ عليهم والاستعلاء ، ومقدِّمةُ ما ينزلُ عليهم من البَلاء ، فانهد[٢٥] إليهم — أيَّدك الله — مؤيداً مُعَاناً ، وأمعِنْ فى معاقبتِهم ومعاقبةِ من والاهم إمعاناً ، وشرِّد بهم من خَلْفِهم حتّى يقرّوا إقراراً ويُذعنوا إذعانا ، واضرب العاصىَ بالمطيع ، والفئةَ الباغيةَ بالجميع ، والله يمدُّنا وإيَّاك على من حادَّه وشاقَّه بعذابِه الأليم وعقابِه السَّريع .

والحزمَ — أعزَّك اللّهُ — فى هذا السَّفيهِ الخائِنِ إن تبعثَه مستوثقاً منه إلى أبى الحسن على بن أبى بكر بن إبراهيم[٢٦] — أيَّده اللَّهُ — ليركبَه البحرَ من وَهْران[٢٧] ، وتتيمَّمَ به حاملة ذلك المكان ، ويلزم فى ثقافِه الصَّغار ويُسام الهوان ، واللّهُ المستعان على من على الإسلام أجلب وأعان ، والسَّلام .

---

(٢١) التوبة : ١١٤

(٢٢) سبق التعريف به .

(٢٣) ميورقة : إحدى الجزائر الشرقية فى البحر الزّقاق ، وقد فتحها المسلمون سنة ٢٩٠ هـ ، واختلفت عليها ولاة المرابطين ثم وليها محمد بن على بن عانية المسوفى وهو أول ولاة بنى غانية ثم تعاقبوا على ولايتها إلى أن كان آخرهم عبد الله بن إسحق ، ثم آل حكمها للموحدين وظلت بحوزتهم الى أن استولى عليها النصارى سنة ٦٢٧ هـ [صفة جزيرة الاندلس ١٨٨]

(٢٤) فى الأصل : بجزيرة .

(٢٥) نهد بمعنى نهض .

(٢٦) أبو الحسن على بن أبى بكر إبراهيم (؟)

(٢٧) وهران : مدينة قديمة تقع على ساحل البحر المتوسِّط .

[٢٣]

وكتب* أيضاً مُراجعا للوزير الكاتب أبى مروان بن زكريا[١] جواباً عن رسالةٍ خاطبَه بها[٢]

أطال الله بقاءَك[٣] وعزُّك منيعٌ ، وجنابُك وَسِيع ، والزَّمان بمحاسِنِكَ رَبيع

كتبتُه وقد وصلت معجزاتُك ، وبهرتْ آياتُك ، مع بُشرى تخلُّصِك للوَطَن ، واشتياقِك للزَّمن ، من بعد شدائدَ شِمْتَ برقَها ، وسُقيتَ وُدْقَها[٤] ، وبتَّ بمدرجة سيولِها ، كالحِبَّة فى حميلها ، حتَّى كدتَ تكونُ فيها زَبَداً رابياً ، وغثَّاً طافياً ، لولا وجارٌ[٥] أضمرك كالسَّقطِ فى زَنْدهِ ، والنَّصْلِ فى غمده ، إلى سائرِ ماأوردتَ من أوصافِ المطر ، وعوائق السَّفر[٦] ، فوددتُ من غير شيءٍ يُضيرُك أن يمتدَّ مسيرُك حتَّى تقصَّ فأسمعَ سحرَ بيانِك ، وأجدَ حكمةً من لسانِك ، وإنَّ سلامتَك لهى سلامةُ المجدِ ، ومطلقةُ لِسانِ الحَمْد ، وقد كُنَّا بعدَك فى أحوالٍ مختلِفة ، وأمورٍ لا تُحْصر بصفة ، [٢٣/أ] فأوَّلُ ذلك غَمامٌ تتبَّع ذا المحلِ فشفاه ، وعفَّا على آثارِ الجدبِ فأنساه ، وضرب مزنُهُ ميْتَ النَّباتِ فأحياه ، حتَّى إذا أشفى البسيطةَ وألبَسَها زيَّها فجاب[٧] عن

* الضمير فى « كتب » عائد على أبى مروان بن أبى الخصال صاحب الرسالة المتقدمة رقم (٢٢) ، وأغلب الظنِّ أن هذه الرسالة ردٌّ على رسالة أبى مروان بن زكرياء رقم (٧) ، ومضمونها ومحتواها يؤكِّد ذلك .

(١) أبو مروان بن زكرياء : صاحب الرسالة رقم (٥) وقد سبق التعريف به .

(٢) هى الرسالة رقم (٧) فى هذه المجموعة .

(٣) فى الأصل : بقاك .

(٤) الودق : المطر ، وفى الأصل : وذقها ، تصحيف (٥) الوجار : حجر الضبع والأسد والذئب

(٦) قوله : « إلى سائر ما أوردتَ من أوصافِ المطر ، وعوائق السَّفر » يتفق مع ما جاء فى رسالة أبى مروان بن زكرياء رقم (٧) .

(٧) كذا فى الأصل ، وجاب : قطع وخرق

عَصْبِ [٨] نَشْرِهِ على النَّجدِ والغور ، وطوى نظمه فى سالِفِ النَّوْر ، برزتْ عنه الدُّنا موشيّة ، والأرضُ سُنْدُسيَّة ، فبيْنا هى كذلك قد لبست زخارفَها ، وفاحَ عَرارُها ونمَّت أزهارُها ، وهبَّ نسيمُها عليلاً ، وعقدتْ كُلُّ رابيةٍ فى مفرقِها إكليلاً ، انقلب المجرُّ لظهرهِ ، وأتى اللّهُ بأمره ، فهبَّت الرِّيحُ عاصفاً ، واستهلَّ الرَّعدُ قاصِفا ، ولمعَ البرقُ خاطِفاً ، ثم انبعثَ غماماً ، وأقام لزاماً ، وفى مثلِ ارتدادِ الطَّرفِ احتشكتْ ضروعُه ، وتفجَّر يُنبوعُه ، ووافى عبابُ السَّيلِ يلتطم ، وأقبلت غوارِبُ الموج ترتكم[٩] ، وتدارك حتَّى مجّتْهُ الأشْراج[١٠] ، وضاقت عن تَدافُعهِ الفِجاج ، وما راعنا إلاَّ السَّرْحُ طافياً فى آذيِّه ، والعُصْمُ غرقى فى آتيِّه ، والضِّبابُ قد ولجَ عليها أنفاقَها ، وأعجزَها عن النَّجاء فساقَها ، ومنَّ على الشنفيرة[١١] فألقى بركَه على البرك هجوداً ، وأمطرَها من الموتِ سحائبَ سوداً ، وأكبَّها على الأذقان[١٢] ولم تنوِ سجوداً فمصارعها هناك قد سال بعضُها على بعض ، كأنْ لم تَغْنَ فى حَرَضٍ وحِمْض[١٣] ، وإذ انتظمَ هذه الأصناف ، وجمعَ هذه الأوصاف ، فما ظنُّك بالدِّيارِ وأُسُّها مَدَر[١٤] ، والمصانعُ وليس فيها حَجَر ، لقد أسقطها على الهام ، وجمعَ بين نواصيها والأقدام ، فأنت إن اطَّلعتَ لم تَر إلاَّ رسوماً ، وربْعاً بالخرابِ موسوماً ، تُنكرُهُ بعد العِرفان ، وتستعظمُ فيه حادثةَ الزَّمان ، فكم شهيدٍ تحت ذلك الهَدْم ، وملحودٍ بين ذلك الرَّدم ، قد ذاق الموتَ قبلَ ذوقِه ، وخرَّ عليه السَّقفُ من فوقِه ، ففى كُلِّ دارٍ رنَّة ، وعند كُلِّ جِدارٍ زفرةٌ وأنَّة ، ونحن ننتظرُ

---

(٨) العَصْب : ضرب من برود اليمن ، والعصب : السحاب ، والغيم الأحمر .

(٩) ترتكم : يتجمع بعضها فوق بعض .

(١٠) الأشراج : جمع (الشَّرج) ، وهو مسيلُ الماء من الحرَّة إلى السَّهل .

(١١) شنفيرة : حصن على أربع مراحل من مرسية بالأندلس فى شرقيها . (صفة جزيرة الأندلس ١١٦)

(١٢) ينظر إلى قول امرىء القيس — وقد استعار (الأذقان) للشَّجر وهو يصف السَّحاب :

فأضحى يسحُّ الماءَ عن كل فيقةٍ يكبُّ على الأذقانِ دوح الكَنَهبَل

(١٣) الحرض : ضرب من الشَّجر (شجر الأشنان) ، والحمض من النبات : كل نبت مالح أو حامض يقوم على سُوق ، ولا أصل له

(١٤) المدر : قطع الطين اليابس ، وأسَّها : ساؤها.

الفَرَجَ بالصَّبْر ، ونستدفعُ بالدُّعاء أذى القَطْر ، ثبَّت اللَّهَ قواعد بُنيانِك ، وجعلكَ فى حِرز إيمانِك ، وكتب عهدَ نجاتِك وأمانِك ، إنَّه سميعٌ قريبٌ ، كريمٌ [٢٣/ب] مُجيبٌ ، وأقرأُ عليك من سلامى أذكاهُ عَبَقا ، وأعطرَه نسيماً مُنْتَشَقا ، ورحمةُ اللَّهِ وبركاته .

[٢٤]

وكتب* عهداً عن أبى يعقوب ينتان بن علىّ :[١]

كتابُ برٍّ منشور ، وإجمالٌ موفور ، واهتبال موصولٌ باللّدوامِ مشكور ، أمرَ به الرئيسُ الأجلُّ أبو يعقوب ينتان — أيّده اللّهُ — لذى الوزارتين الأجلِّ أبى الحسن بن طاهر[٢] — أعزَّه اللّه وأدامَ كرامتَه بتقواه ، عنايةً بجانبهِ ، ورعايةً تقتضى بعضَ واجبهِ ، واهتماماً بحملهِ على كاهلِ البرِّ وغاربهِ ، أسقط به عنه نصف جميع مايلزمه [من][٣] أملاكه بمرسية[٤] وماله[٥] من المعادن على اختلافِها ، والتكاليف على أصنافها ، ولايلزمه سوى ذلك غُرْمٌ ، ولا يجوزُ عليه فى غيرِ النِّصفِ المعيّن حُكْمٌ ، ويتقضى منه على أجملِ الوجوهِ وعلى سَنَنِ البرِّ يكونُ كالترفيهِ ثم يُحمل بعد ذلك فى خدمتهِ وبنيه ، وأشراكِه عامةً ومُناصفيه ، على أوضح سُبُلِ الإكرام ، وأبينِ طُرقِ الدِّعايةِ والاهتمام ، فمن قرأ هذا أو قُرِىء عليه من جميع العُمَّال وجُباةِ الأعمال[٦] ، فليحمل على

* الضمير فى « كتب » يعود على أبى مروان بن أبى الخصال صاحب الرسالتين المتقدمتين (٢٢ - ٢٣)

(١) أبو يعقوب ينتان بن على هو الإبن الأصغر لعلى بن يوسف بن تاشفين ، وكان قائداً مشهوراً ، شارك فى معركة قشتالة سنة ٥١٤ هـ حين كان قائداً على مرسية ، وعندما توفى محمد بن يوسف بن يلّو والى بلنسية سنة ٥٢٤ هـ عُيِّن ينتان بن على مكانه ، وخرج بقواته غازياً فى أراضى أراجون وهزم النصارى . وقتل الكونت جاستون دى بيارن ، وسيق رأسه إلى غرناطة ، ثم حملت إلى أمير المسلمين بمراكش (عصر المرابطين والموحدين — عنان — ١٣٤/١)

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسى ، من أهل مرسية ، ورئيسها فى الفتنة بعد انقطاع أمر المرابطين ، وتوفى بمراكش سنة ٥٧٤ هـ (التكملة ت ١٤١٨)

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) مُرسية : مدينة قديمة بالأندلس ، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢١٦ هـ وهى قاعدة تُدمير ، وتقع على نهر جليل [صفة جزيرة الأندلس : ١٨١]

(٥) فى الأصل : ومولِه

(٦) كذا بالأصل ، ولعلها · الأموال

حدوده ، ولا يخل بمواثيقهِ الوكيدةِ وعهوده ، ومَنْ عارضَها بنقْض ، أو أخلَّ منها بفرْض ، فقد زلَّتْ به القَدَم ، وحاقَ به النَّدم ، وبَرِئتْ منه الذِّمم[7] ، وبالله التوفيق .

(٧) في الأصل : الذمم ؛ تصحيف

[٢٥]

وكتب* عن نفسه إلى أبى زكريا يحيى بن على[١] معزّياً[٢] :

بمن نتّقى الأيامَ إنْ حادِثٌ أمّا ... ومَنْ ذا الذّى يمضى الأمورَ إذا همّا
ولم نقنَ[٣] إذْ أودى علىُّ بنُ يوسفٍ ... سوى أنَّ صرفَ الزّهرِ نوسِعُهُ ذمّا
وقد كان سهماً فى الكنانةِ واحداً ... وفى الدّهرِ ما يفنى الكنانة[٤] والسّهما

أطالَ اللّهُ بقاءَ الرئيسِ الأجلّ ، السيِّد الأفضل ، والمواهِبُ إليه تتوافى ، والنّوائب عنه تتجافى ، وأعداؤه تتخاذلُ وتتلافى ، ولا زال يُكلأُ ويُعافى .

كُتُبتُه ـــ كتبَ اللّهُ له الصبَّرَ جميلاً ، والأنس من الوحشةِ بديلاً ، والسُّرورِ من الحُزْنِ مذيلاً ، ولا جعل لحادثةٍ [٢٤/أ] عليه سبيلاً ، من الحضرةِ[٥] ـــ حرسَها الله ـــ وقد أوسعها غمماً مُطْبُقاً ، وأودَعها للجوانح هَمّاً مُحرِقاً ، وأشعرها خوفاً بالنفوسِ محيطاً مُحِدقاً ، منعى[٦] حامى الذّمار ، وخائض الغمار ، ولابس النّقع المثار ، وناقض الأوتار ، وسدَّاد الثغرِ ، وكاشف الأذعار :

لايُبْعِدُ اللّهُ ابنَ يوسفَ من فتىً ... عفِّ السَّريرةِ ، طيّبِ الأخبارِ

أمَا والغيثِ النَّجيع ، والرَّوضِ المريع ، والغوثِ السَّريع ، ومجدِهِ العالى الرَّفيع ، لقد فارقناه فقدانَ الرَّبيع :

* الضمير فى كتب يعود على أبى مروان بن أبى الخصال صاحب الرسائل الثلاث المتقدّمة (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) .

(١) هو أبو زكريا يحيى بن على بن غانية ، وقد سبق التعريف به .
(٢) يعزى فى وفاة على بن يوسف بن تاشفين ، ثانى امراء المرابطين وكانت وفاته سنة ٥٣٧ هـ
(٣) قنى الرجل يقنى قِنى : رضى .
(٤) فى الأصل : الكتابة ؛ تصحيف .
(٥) أى حضرة مراكش : عاصمة المرابطين آنذاك .
(٦) المنعى والمنعاة : خبر الموت .

فتىً لا يحبُّ المال إلاَّ من التّقى[٧]   ولا الموتَ إلاَّ من قنىً وسيوفِ

وكم تعرَّض لنِزالها ، وتلمَّظ[٨] بسجالِها ، وحام على آجالِها ، وخيَّمَ تحت ظلالِها ، وتوسَّعَ فى ضيقِ مجالِها ، وكانَ بقيَّة قومٍ منايا السّيوفِ من مناها وآماها ، فتخطّته مهابةً وإكراماً ، وكانت عليه برداً وسلاماً ، وإنَّها لعبرةٌ توقِظُ الجَنان ، وتعظُ الجِنان[٩] وله أسوةٌ فى أبى سُليمان ، وحسبهُ أن ذهب وادعاً مهيداً ، [بعد أن تمنّى][١٠] أن يكونَ على فراشه شهيداً :[١١]

شقَّ النَّسيمُ عليه بُردتَه   وبكتْ عليه ثواكِلُ الدِّيَمِ
وتغَمدتْهُ رحمةٌ ورضىً   تغشاهُ من قَرْنٍ إلى قَدَمِ
لو أنصفت عينى ــ وحقَّ لها ــ   لبكتْ أعزَّةَ قومِها بدَمِ
أو ماتراهم وهو آخرُهُم   بادوا كما حدَّثتَ عن إرمِ
الموتُ يستجليهمُ أبداً   فهمُ لوافدِهِ على قدَمِ
ياموتُ حَسْبُك قد سدكت بهم[١٢]   وتركتهم لحماً على وَضَمٍ[١٣]
هلاَّ وقد أفنيتَ سادَتَهم   أبقيتَ منهمْ كافِلَ الحُرُمِ
يا أرضُ كفِّى عن وجوهِهِمُ   إن كنتِ تستحيين من كَرَمِ
اللَّهُ جابرهم[١٤] وحافظهُم   من كُلِّ مايعدو على الذِّمَمِ
وصلاتُه تترى ورحمتُه   فى حيث ما كانوا من الأُمَمِ

(٧) فى الأصل : تقى ، ومراعاة الوزن الشعرى تقتضى ما أثبتناه .

(٨) تلمَّظ : تذوق ، واستعاره للحرب والطعن ، وقد فعل ذلك الرَّاجز من قبل فقال :

يُخميه طَعْناً لم يكن إلماظا

(٩) الجَنان (الأولى) ــ بالفتح ــ القلب . والجِنان (الثانية) ــ بالكسر ــ الجنّ .

(١٠) زيادة يتطلبها السياق   (١١) لعله يشير إلى خالد بن الوليد وله كلام فى هذا المعنى .

(١٢) سدك به : لزمه وأولع به ، ورجل سدِك : خفيف اليدين فى العمل .

(١٣) الوضم : كل شىء يُوضع عليه اللحم من خشب وغيره يوقى به من الأرض . وفى المثل : تركهم لحما على وضم : يُضرب لمن يوقع بهم ويُذلون ، ومنه قول عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ : « إنّما النساء لحم على وضم إلا ماذُبّ عنه » (اللسان : وضم)

(١٤) فى الأصل : جارهم . ولعل الصواب ما أثبتناه

[٢٦]

[٢/ب] وكتبَ * عن عليّ بن يوسف[١] إلى يحيى بن عليّ[٢] بولاية بلنسية ــ حماها اللّهُ ــ :

كتابُنا ــ أعزَّك اللّهُ بتقواه ، ورفعَ قدرَك وأسماه ، وأيَّد عزمَك فى ذاتِهِ وقوَّاه ، ولازلت تتقلَّبُ فى عوارفِهِ المقيمةِ ونُعماه ، من حضرةِ مراكش ــ حَرَسها اللّهُ ــ لأربعٍ خلون لجمادى الأولى سنة أربعٍ وعشرين وخمسمائة ؛ وإنَّا بما نعرفُه من صفوِ ولائِك ، وصدقِ غنائِك[٣] ، وظاهرِ استقلالِك واكتفائك ، نرى أنْ نرفعَك بمقتضى حقِّك فى الأحوال ، ونُوسعَ لك فى الأعمال ، ونعقدَ بطوقك منها مانعلمُ أنَّكَ به ناهِضٌ مُضطِلع ، ونضيف إليك من جسيمِها ما أنت بشروطِهِ والقيامِ بحقوقِهِ رَحْبُ الصَّدْر مُتَّسع ، ولضبطِ جوانبِهِ ومراعاةِ لوازمه منتظمُ الأمرِ مُجْتَمِع ، فقلَّدْناك ــ بعد استخارةِ اللّهِ تعالى ــ والابتهالِ إليه فى اطِّلاعِنا على مواقعِ السَّداد ، وإمدادِنا بُحسْنِ التوفيقِ والإرشاد ، ولايةَ بلنسية وأعمالَها ــ حماها اللّهُ ــ تقليداً جمعنا لك به بين الولايتين[٤] ، وملَّكناك به أمرَ كريمتين ، وزمامَ جحْفلين ، فتقلَّدْ ما قلَّدناك على الطائرِ السَّعيد وتظاهُرِ التأييد ، وتولَّهُ معرفاً فيه يمنَ التقليد ، وتوالى الصُّنعِ الحميد ، وانقدْ إلى عملِك وتسلَّمْهُ من المصروفِ بك ، واستقبلْ الأمرَ بأقوى عزيمةٍ وجد ، وأنفذ مضاءٍ وأمضى حَدّ ، وكُن جدّ ناهِضٍ مُستبِّد ، وتلك حالٌ خطيرةٌ قد جَذبْنا إليكَ زمامَ قيادِها ، وتوخَّينا بك إقامة منآدِها ، وثغورٌ قد رميناها منك بسدادِها ، وأمورٌ صارتْ بتصيُّرها إليك عند عالمٍ بإصدارِها

---

* رسالة أخرى لأبى مروان بن أبى الخصال صاحب الرسائل المقتدمة [٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥]

(١) سبق التعريف به .

(٢) هو يحيى بن على بن غانية ، وقد سبق التعريف به .

(٣) فى الأصل : عنايك ، تصحيف .

(٤) أى الجمع بين ولايته على شاطبة وبلنسية ، وكان علىّ بن يوسف قد ولاَّه هاتين الولايتين ثم عزله عنهما وولاه قرطبة (المعجب ٣٤٣)

وإيرادِها ، وقد أغناك علمُك بالسياسات ، فى جميع الطَّبقات ، عن أن تفصِّلها تفصيلاً ، أو نأتيك بها قبيلا ، وإنَّما أعطيناكها جملة لايؤودُك[٥] تدبيرُها ، ولايذهبُ [٢٥/أ] عنك تفسيرُها ، لأنَّك إنَّما تقدمُ على بلدٍ صاقبتَه كثيراً ، وجاورتَه دهراً طويلاً ، فشئونُه فى صدرِك مجتمعة ، وإلى فكرِك مُنحصِرة ، مع تكرُّرِك على المكان ، واطِّلاعِك عليه تارةً بالخبرِ وتارةً بالعيان ، وقديماً تمنَّى أن يُلقى إليك قيادَه ، وخبرتَ سادتَه ورعاياه وأجنادَه ، فاجزهم الآنَ بودادهم ، وحُظَّهم فى أنفسِهم وأموالِهم وبلادِهم ، وعُمَّ جميعَ الأحوالِ بتصفُّحِك ، ومتِّع الجميعَ بتأمُّلك ، واعطِ كُلاًّ حقهَّ من نَصَفتِك[٦] وحُسْنِ رعايتك ، وأذقهم حلاوةَ الأمنِ والعَدْل فى ولايتِك ، إن شاءَ اللَّهُ ، وموضعُ إقامتِك هناك أنت تختارُه حيث تهوى لنفسِك ، فتبوأْ مكاناً يصلحُ لأمرِك ، ولا تبعدْ به كُلَّ البعدِ عن قاصيةِ ثغرِك ، فترجَّح ما بين شاطبةَ[٧] وبلنسية أو منزلة بينهما ، ذلك مصروفٌ إلى اختيارِك ، والشَّاهدُ يرى ما لايرى الغائب ، ونحن بعيد وأنت قريب[٨] ، وإنَّكَ ــ كما علمنا ــ موفَّقُ الرأيِ مُصيب[٩] ، واللَّهُ ــ تعالى ــ مؤيدُك ومُرشدُك ، ومعينك ومنجدُك بجودِه ومجدِه ، لاربَّ غيرُه ، فإنْ احتجتَ أن تستعينَ بأبى عبد اللَّه محمد بن علىّ أخيك ــ أعزَّه اللَّه ــ فاستقدمْه[١٠] يقدمْ عليك ، واستدعِه يُسرِعْ إليك ، واستنبْ مكانَه بميورقة[١١] محمودَ المناب ، ناقداً فى ذلك الباب ، إن شاءَ اللَّه ، عرَّفكَ اللَّهُ يُمْنَ ماوليت ، وأعانك على حفظِ ما استرعيت بفضلِه ، وجميلِ صُنْعِه ، لا إلهَ غيرُه ، والسَّلام .

---

(٥) لايؤوده : لا يُثقله .

(٦) النَّصَفة : العدل وإعطاء الحق .

(٧) شاطبة : مدينة أندلسية من مدن شرق الأندلس ، كانت تابعة لولاية بلنسية ثم نشزت عليها فى مدة ملوك الطوائف حيث اقتطعها مظفر مولى بنى أبى عامر ، ثم توالت عليها ولاة بنى هود ثم ولاة المرابطين ثم الموحدين ، ثم صارت لابن هود حتى خضعت بعد ذلك للنصارى .

(٨) فى الأصل : قرهب ؛ تصحيف .

(٩) فى الأصل : نصب ؛ تصحيف .

(١٠) فى الأصل : فاستعرفه ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(١١) ميورقة : من جزر الأندلس الشرقية ، وسبق التعريف بها .

[٢٧]

وكتب * عنه[١] أيضاً إلى أهلِ بلنسية فى ذلك :[٢]

كتابُنا ـــ كتبَ اللّهُ لكم تمهُّدَ الأحوالِ والجهات ، وأمدَّكم بسوابغِ الأجمال والهِبَات ، ويسَّركم للأعمالِ الصَّالحاتِ والمساعى المُرْضِيات ، من حضرةِ مراكش ـــ حرسَها اللّهُ ـــ لأربعٍ خلونَ لجمادِى الأولى سنة أربعٍ وعشرين وخمسمائة[٣] .

فقد رأينا بعد استخارةِ اللّهِ التى يُتوصَّلُ إلى المراشِدِ من بابِها ، وتُدرَكُ المناجِحُ من أسبابها ، أن نولىَ عليكم [٢٥/ب] أبا زكريا يحيى بن على[٤] ـــ أعزَّه اللّهُ بتقواه ، فقد قلَّدناه أعمالكم ، ووصلنا به حِبالَكم ، نظراً منّا لكم بمكانِه ، وإلقاءً بأزمَّتكم إلى حازمِ وقتِهِ وأوانِه ، فإنَّه واللّهُ يُنْجِدُه ، ويُسْعِدُه بحيثُ علمتم حُسْنَ سيرةٍ وعدْل ، ومتانةَ دينٍ وفضل ، وتمسكاً من التَّقوى بأقوى حبل ، مع صالحِ مشهدٍ وبلاء ، وصادقِ حفاظٍ وغناء ، ونفاذِ عزيمةٍ ومضاء[٥] ، فآثرناكم منه بحافظٍ لنظامِكم ، ومُصرِّفٍ لذِمامكم ، وسادٍّ لثغورِكم ، وقوَّامٍ بأمورِكم ، فهو يُقلِّبُها على الحزم[٦] ويُديرُها ، ويمضى على

---

* رسالة أخرى لأبى مروان بن أبى الخصال .

(١) أى عن على بن يوسف بن تاشفين .

(٢) أى فى ولاية يحيى بن على على بلنسية ، كما مرَّ فى الرسالة المتقدمة [٢٦] .

(٣) بعدها فى الأصل : « وإنَّا بما نعرفه من صفو ولائك ، وصدق غنائك » وقد تداخل هذا الكلام هنا من الرسالة السابقة وهذا وهم من النّاسخ .

(٤) سبق التعريف به .

(٥) هذا الكلام يتفق مع ماذكره المراكشى عن صفات يحيى بن على بن غانية اذ قال عنه : « فأمّا يحيى .... فكان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس ، فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله ـــ عز وجَلّ ـــ والتعظيم له والاحترام للصالحين ؛ هذا مع علوّ قدم فى الفقه واتساع رواية للحديث ؛ وكان مع هذا شجاعاً فارساً ، إذا ركب عُدَّ وحده بخمسمائة فارس ، وكان على بن يوسف يعليه للعظائم ، ويستدفع به المهمّات .... » المعجب ٣٤٢ .

(٦) فى الأصل : الحرم ؛ تصحيف .

مايراه[٧] ويحكُمه تدبيرُها ، وحسبنا فى تمهيدِ أكنافكم ، وحراسةِ أطوافِكم ، أن نجعلها وإيَّاكم فى كفالتِه ، ونختارَ لها ولكم حُسْنَ إنابته . وقد فزعنا إليكم به من شئونكم ، وقضيناكم به ممطول ديونِكم ، فما ترجعون بعده بتباعة ، ولا تخشوْنَ معه إن شاءَ اللَّهُ من جَوْزَةٍ مُضَاعة ، فعليكم ــ رحمكم اللَّهُ ــ أن تتلقَّوا أمرَه بأتمِّ سَمْعٍ وطَاعة ، وتتوخَّوْا نُصحَه بكُلِّ جهدٍ واستطاعة ، ثم إنَّه لا يستغنى أن تكونوا ظهراً فى المجاشمِ التى يتوخَّى بها جبرَ أحوالكم ، ورمَّ مارثَّ من حِبالِكم ، فليجدْكُم عندَها أمامَ كُلِّ إرادة ، ولتنجذِبوا فى يدِه بأسمحِ مَقَادة ، فإنَّه لا يحملكم إلاَّ على الذّى فيه عن حوزتِكم دفاع ، ولمصالحكم انتظامٌ واجتماع ، وأنتم عنده على منازِلكم ، يُقدِّرُ كُلّاً قَدْرَه ، ويقضى إليه أمرَه ، فما فى برِّه ولا فى سياستِهِ تقصير ، ولا عنده فى غيرِ كُنهِهِ جانِبُ عسير ، وعلى ذلكم فقد وصَّيناه بجانبكم من غير أن نخافَ منه عن القصدِ انحرافاً ، أو نحذرَ[٨] من جهتِه نكوباً عن الواجبِ أو خِلافاً ، وإنَّما قصدنا معه الذِّكرى فإنَّها توقظ[٩] ذا الحَجَا وتنبِّه ، وتبيِّنُ لذى الحلم والنُّهى ما يُشتَبَه . عرَّفنا اللَّهُ وإيَّاكم ميامينَ هذا التقليد ، وجعله كافِلاً بالأمرِ السعِّيد ، والصنُّع الحميد ، إنَّه المنعمُ الكريم ، والسلام .

(٧) فى الأصل : ما براه ، تصحيف .
(٨) فى الأصل : نحذر ؛ تصحيف .
(٩) ،، ،، : توقض ؛ تصحيف .

[٢٨]

[٢٦/أ] وكتبَ* إلى العسكريَّةِ بها[١] فى الغرضِ المذكور[٢] :

كتابُنا ــ أبقاكُمُ اللَّهُ وعَصَمكم بتقواه ، وأجزلَ حظوظَكم من حُسناه ، وجعلكم سابقينَ إلى طاعتهِ ورِضاه ، متقلِّبين فى عوارفِهِ ونُعماه ، من حضرةِ مراكش ــ حرسَها اللَّهُ ــ فى تاريخ كذا من سنة كذا[٣] ، وقد وليَّنا أمرَكُم أبا زكريا يحيى بن على[٤] ــ أعزَّه اللَّهُ بتقواه ، وقلَّدناه[٥] تصريفَ أعنَّتِكم ، وأرخينا[٦] إليه بأزمَّتِكم ، ومكانُه حيثُ لم تجهلوه خيراً وخيماً ، ونِصاباً كريماً ، وهَدْيَاً قويماً ، وإقداماً وتصميماً ، ومضاءً كان به إذا رُفع اللِّواءُ على الخميسِ زعيماً ، والآنَ بولايته إيَّاكُم فقدْ آنَ أنْ تتضاعفَ نجداتكم ، وتصدقَ عزماتُكم ، فإنَّه يقودكُم من يُرسِلُ أمامَ أعنَّتِكم عنانَه ، ويروى قبل أسنَّتِكم سنانَه ، وأنتم مع ذلك بحُكمِه مُصرَّفون ، وبالتزامِ طاعتهِ مُكلَّفون ، وإلى رايته مجتمعون ، وتحتها متألِّفون ، فإذا أمرَ فأتمروا ، وإذا رمى بكم جانباً فابتدروا ، وإذا أوردَكُم فَرِدوا ، وإذا أصدركُم فاصدروا ، فإنَّ حسنَ الطَّاعةِ بركةٌ وجمال ، ويمنٌ وإقبال ، كما أنَّ الاستعصاء مبنىٌّ على الأخلاقِ اللئيمة ، ومجنبةٌ للنُّفوسِ الكريمة ، فأطيعوه كما فرضَ عليكم فى المكروهِ والمحبوب ، وانضموا عليه راشدين مُسْعِفين[٧] انضمامَ الجوانج على القلوب ، فإنَّ لكم فى حُسْنِ الائتمار

* رسالة أخرى لأبى مروان بن أبى الخصال .

(١) بها : أى ببلنسية .

(٢) أى فى أمر أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بولاية يحيى بن غانية على بلنسية ، كما مرَّ فى الرسالة رقم (٢٦)

(٣) سبق أن ذكر تاريخ ولاية يحيى بن غانية لبلنسية أنظر الرسالة رقم (٢٦)

(٤) سبق التعريف به

(٥) فى الأصل : وقلَّدنا ، والصواب ما أثبتناه .

(٦) ،، ،، : وأرضينا ؛ تصحيف .

(٧) فى الأصل . مشفقين ؛ تصحيف .

جزاءَ الحُسْنى والحِباءَ[٨] الأتمَّ الأسنى ، جعلكم اللّهُ مِمَّن أصحبَ فى القِياد ، وأجابَ داعى الرَّشاد ، وآثَرَ التَّقوى واعتقدَها خيرَ زاد ، بمنِّه ، والسَّلام .

(٨) الحباء (بالكسر) : ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به ، وقيل : الحباء : العطاء بلا منٍّ ولا جزاء ، ومنه اشتقت المحاباة . (اللسان ــ حبا)

[٢٩]

وكتب * إلى القاضى أبى مروان بن عبد الملك[1] :

أيّدَ اللّهُ الفقيه الأجلَّ ، القاضى الأعدل ، السيِّدَ الأكمل ، وفسحَ أملَه فى عزٍّ مَشِيد ، وجدٍّ سعيد ، وصُنـعٍ مُبَاركٍ حميد ، ولباسٍ من النِّعمة والتَّقوى جديد .

كتبتُه ـــ أعزَّه اللّهُ ـــ مُعظِّما لمقدارِه ، وملتزِماً لإكبارِه ، ومتقدِّماً فى [٢٦/ب] برِّه بتقدُّمَ السَّابقِ فى مِضْمارِه ، وقد وردنـى كتابُـه العزيز الذى عذل به فى الإغباب[2] ، وأدارَ فيه مُلحَ العِتاب ، وكساه من رائقِ الكلام ما أخذَ بالمسامعِ والألباب ، فكدتُ أعيا عن الجواب ، ومن ذا الذى يطيقُ براعة الكُتَّاب ، وإنَّه أعزَّه اللّهُ لمجدودٌ[3] فى أصحابِه ، محسودٌ فى كُتَّابِه ، فما يصطفى منهم إلاَّ كُلَّ مبرَّز فى ميدانِه ، آتٍ فى حَلْبَةِ السباقِ ثانياً من عنانِه ، فبُورِكَ فى مَخْبَرَة[4] السَّيِّد الأجلّ[5] من خطيبٍ صائبِ البيان ، رقيقِ حاشيةِ اللِّسان ، فلقد انتظمَ المحاسِنَ واللُّمَع ، وحازَ فى البلاغةِ المدى الأوسع ،

رسالة أخرى لأبى مروان بن أبى الخصال صاحب الرسائل المتقدمة [٢٢ – ٢٣ – ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨]

(١) لعله عبد الملك بن محمد بن عيسى الهمذانى ، ويكنى أبا مروان ، وكان حيّاً سنة ثلاثين وخمسمائة . [الإحاطة فى أخبار غرناطة ـــ نصوص جديدة لم تنشر ـــ تحقيق عبد السلام شقور ـــ تطوان ص ٢٢٩ ، صلة الصلة ١١٦]

(٢) الإغباب : قلّةُ المراسلة .

(٣) مجدود : محظوظ .

(٤) المخبرة والخبرة : العلم بالشيء ، وفى الأصل : محرة ؛ تصحيف .

(٥) فى الأصل : المجمل ، ولعل الصواب ما أثبته

وأطلع من آدابه وجوهاً رهاها الحسنُ أن تتقنَّع[٦] ، ثم رجع فنصل ما انقطع ، ونأتى الحديث كما وقع ، فنقول إنَّ السيِّدَ الأعزَّ ــ أعزَّه اللّهُ ــ ينبغى له إذا ملكَ أن يسْجِحَ[٧] فى القول ، ويبسطَ فى التجاورِ يدَ الطَّوْل ، ويتناولُ فى إغبابِنا ما يرانا به من أحوالٍ لا تُضبط ، وتقلُّبنا فيها بين مزارٍ يشحط ، وأمورٍ لا تدخلُ تحت ما يُشترط ، فنحن ننجذِبُ فى أعنَّةِ الأقدار ، ونتصرَّفُ كيفما تصرَّفتْ بنا غُرُبَاتُ الدَّار ، ثم إذا نحن ألممنا يوماً بالخِيام ، وحطَطنا للمقام ، ووصلنا شدَّة الأيَّام ، وردْنا على مزدحمات الأشغال ، ورمينا عن مجاشمِ العملِ بفادحاتِ الأثقال ، والعوائقُ عن اللوازمِ لاخَفَاءَ بمكانِها ، ولا افتقارَ بنا مع وضوحِها إلى بيانِها ، وعلى ذلك قد قدمتْ من هذه الحضرةِ مخاطبةٌ على يدِ طالبٍ من عُمَّالِهِ يُسمى يحيى بن العافية ، تزيًّا بسمْتٍ وسكونْ ، وأبدى عن جانبِ مصون ، وظنِّى به أن يصدق المخيلة فيورد الأمانة موردَها ، ويؤديَها مصونةً كما تقلَّدَها ، وعلينا الكتابُ وعلى اللَّهِ البلاغ ، وما أنا مِمَّن يحولُ عن عهدِه ، ولا من يقبلُ الدُّنيا عِوَضاً عن ودِّه ، ولا من ينتقلُ عنْ أوّله فى حالتى السيِّدِ المعظَّم من رغبتهِ فينا أو زُهْدِه ، فإنِّى فى هذا المكانِ [رَهْنُ عيونهِ][٨] وعند أحسنِ ظنونهِ ، ولا أدَّعى غناء ولا أملكُ [٢٧/أ] اغتناء ، غيرَ أنِّى أملكُ ذكراً جميلاً وثناءً ، وما احتاجَ جانبُه العزيزُ أن يُدْعم ، ولاخِفْنا على رُكنهِ السَّديدِ أن يُزحم[٩] ، فمكانُه ــ والحمدُ للَّهِ ــ مكين ، وماءُ البُسْرِ[١٠] له مَعين ، واللَّهُ يهنئُه النُّعمى ، ويُبوِّئُه الجانبَ الأحمى ، بعزَّتهِ ، والسَّلام .

---

(٦) يضَّمن قول عمر بن أبى ربيعة (الحماسة ٢ : ٧٧)

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرتْ ‏ وجوهٌ زهاها الحُسْنُ أن تتقنَّعا

(٧) فى المثل : « ملكت فأسجحْ » ، والإسجاح : حسن العفو ، أى ملكت الأمر علىَّ فأحسن العفو . (الميدانى ٢/٢٣٧)
ومنه قول جميل .

أبثين إنَّك قد ملكتِ فأسجحى ‏ وخذى بحظِّك من كريمٍ واصلِ

(٨) غير واضحة فى الأصل ، وهى مستجلاة ‏ (٩) فى الأصل يُرْحمْ

(١٠) البُسْر الماء المطرىّ الحديث العهد بالمطر ساعة ينزل من المزن . والجمع بسار (اللسان —)

[٣٠]

المقـــامة القُرطبيَّــــة*

وتُنسَبُ إلى أبى عَبد اللهِ بن أبى الخصال فتبرأ منها (١) ـــ رحمه الله ـــ

عنوانُها : ميـــزانُ الأعيـــان بحـــكم الزَّمـــان
إنشـــاء فـــلان بن فـــلان

قال فلان بن فلان : لما اختللت فى سفرتى هذه مدينةَ كُذَىّ ، لأقتنى بأسبابِ نشأتها ، وشئونِ هيأتِها ، وحينَ أذنَ اللّهُ بالانفصالِ عنها ، لم أبعدْ كثيراً منها ، حتّى لقيتُ وقد متعَ النّهار(٢) ، فتىً حديثَ السنِّ فى أطمار(٣) ،

* اختلط أمر هذه المقامة لدى الباحثين ، فخلطوا بينها وبين مقامة الفتح بن خاقان فى ذم شيخه البطليوسى ، ومن هؤلاء : بروكلمان (١٠٨/٦) ، والدكتور إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسى ـــ عصر الطوائف والمرابطين ـــ ٣١٤) فقد علّق على مقامة الفتح بن خاقان بقوله : « تُسمى أيضاً المقامة القرطبية وهى على نسيج المقامة المشرقية فى أن بطلها المتخيّل يحمل اسم على بن هشام يرتحل من أرض الشام قاصداً بلاد الأندلس طلباً للتعرُّف على الأدب والأدباء » ، وتردد هذا الوهم عنده مرة أخرى فقال : « هذه المقامة تسمى القرطبية ، وقد قيل إنّ الفتح بن خاقان هو الذى صنعها على ابن السيد البطليوسى ... » ثم ذكر أن « المقامة القرطبية » موجودة فى مخطوطة « رسائل إخوانية ـــ الورقة ١٢ - ١٤) [الذخيرة ٨٠١/٢١٣ (ح) .

والواقع أن الموجود فى المخطوطة المذكورة ليس « المقامة القرطبية » وإنما هو مقامة الفتح بن خاقان ، وقد نشرنا هذه المخطوطة باسم (رسائل أندلسية) وعالجنا فيها هذه القضية بشىء من التفصيل .

(١) كتب أبو عبد الله بن أبى الخصال رسالة إلى صديقه الوزير الكاتب أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج يتبرأ فيها عمّا نُسب إليه من تأليف المقامة القرطبية ، وقد وردت هذه الرسالة فى « ترسل ابن أبى الخصال [ورقة ٧٣/ب ، ٧٤/أ] ، كما سيرد فى الرسالة التالية (رقم ٣١) ردّ أبى جعفر بن أحمد على صاحب هذه المقامة .

(٢) متع النّهار : ارتفع وبلغ غاية ارتفاعة قبل الزوال ، ومنه قول الشاعر :

وأدركنا بها حَكَمَ بنَ عمرٍو ... وقد متعَ النّهـارُ بنا فـزالا

(اللسان ـــ متع)

(٣) أطمار : (جمع : الطِّمْرُ) : وهو الثوب الخلَق ، والكساء البالى .

ينقدُ أثناءها وسَامة ، ويتّقِدُ شَهامة ، فقلتُ فى نفسى : زميلٌ فيه خيرٌ وخَبر ، ويشهدُ له عينٌ وأثر ، فسلّمت فأحسنَ الردَّ وأثنى الحدَّ ، فأنشدتُه :

تحميه لألاؤهُ ولو ذعيتُـــهُ   عن أن يُقالَ : بمن أو مِمَّن الرَّجُل[٤]

فقال : اللهمَّ غُفْراً ، بَذاذَةُ الرِّواء[٥] ، تمنعُ من الاعتزاء ، فاستجمعتُ وحرصتُ على ماكان قبله ، ولم أزلْ آخُذُ به فى أساليبِ الحديث حتّى أعلن بعد التحييث ، فإذا به قُرْطبىُّ الدَّار ، يقضى له النُّبلُ بكرمِ النِّجار ، فقلتُ : طال بالحَضْرةِ عهدى ، وحدثتْ[٦] بها الحوادثُ بعدى ، فما عندك من أخبارها ؟

فقال : أنا ابنُ بجْدَتِها[٧] ، فسلْ عمَّا شئتَ فيها ، فقلتُ : قاضيها[٨] ! فقال : حوَّلَ القضاءَ رياسة ، ووسعَ الأمورَ سياسة ، فتألَّفَ الدَّهْمَاءَ ، وكفَّ العدد والأعداء ، من رجلٍ له صَبَابةٌ بالشرِّ ، لا يصحو عن المطالبةِ فواقاً[٩] ، ولا يُرسِلُ السَّاقَ فيها إلاَّ مُمسِكاً ساقاً ، يفزعُ من ذا إلى ذلك ، ويضربُ هنا وهنالِك ، وهَبْهُ قد استضلعَ واكتفى ، أيعلمُ كيف تكونُ العُقبى ؟ وأنشد :

*** والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ[١٠] ***

(٤) البيت لأبى تمَّام من قصيدة فى مدح المعتصم (ديوانه ٢٠٢)

(٥) البذاذة : رثاثة الهيئة ، وفى الأصل : بذادة ؛ تصحيف ، والرِّواء : المنظر

(٦) فى الأصل : حدث

(٧) يقال : هو ابن بجْدَتها ، للعالم بالشىء المُتْقن له ، وعنده بجلة ذلك : أى علمه ، وبجد بالمكان : أقام به ولزمه ، و (أنا ابن بجدتها) مثل فى الميدانى (١ /٢٤) وفى الأصل : أنا ابن نجدتها ؛ تصحيف .

(٨) المراد هنا هو محمد بن على بن حمدين قاضى الجماعة بقرطبة ، والذى يؤكد ذلك إشارته لابنه أبى القاسم ، وقد ذكره ابن بشكوال فى الصلة (٢ : ٥٧٠ ت ١٢٥٤) ووصفه بأنه « كان من أهل التفنن فى العلوم والافتنان بها وبمذاكرتها ، وكان حافظاً ذكياً فطِنا أديباً شاعراً لغوياً أصولياً ، ولى القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ هـ وتولاه بسياسة محمودة وسيرة بيهة ، وكان من أهل الجزالة والصرامة ، ومن بيتة علمونباهةوفضل وجلالة ، وتوفى سنة ٥٠٨ هـ ، وصلى عليه ابنه أبو القاسم » .

(٩) الفواق (بالضم والفتح) : ما بين الحلبتين من الوقت ، و (الفواق) بالضم : ترديد الشهقة العالية

(١٠) عجز بيت لعبيد بن الأبرص ، وصدره الخير يبقى وإن طال الزمان به (العمدة ١ ١٨٨)

[٢٧/ب] قلتُ : صدقتَ ، وحقَّقت !

قلتُ : فأبو القاسم ابنه(١١) ؟!

قال : ثانى يحيى بن زكريًا ، أُوتِىَ الحُكْمَ صبيًا(١٢) !

قلتُ : فكيفَ حالُه فيهم ؟

قال : يعرفُ المقاييس(١٣) والأشباه ، ويملأُ المسامعَ والأفواه .

قلت : فأبو بكرٍ ابنُ عَمِّه ؟

فقال : ولىُّ أيتام ، وموضعُ كلام !

قلتُ : واها لك ، أىُّ إيماض ما أحلاه ، وأمراض(١٤) ما أجلاه ! .

قلتُ : فالقُرشِىُّ صِهْرُه ؟

فقال : بنى دنياه ، وهدَم أُخراه ، وقد فَدِم(١٥) فعلم ، وتمسك عن ذى قَرم(١٦) !

قلتُ : فما عندك فى كاتبهِ ابن أبى السَّداد(١٧) ؟

فقال : نصرانى الأعراق ، يهودىُّ الأخلاق ، اختيارٌ حارَ فيه النَّاس ، حتَّى وجد النصَّ والقياس ، فوأبيه لقد استجليتها فيه !

قلتُ : فما عندك فى أبى الوليد بن طريف(١٨) ؟

(١١) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن على بن حمدين صاحب أحكام القضاء لقرطبة (الصلة ٢ : ٥٧٠ ت ١٢٥٤)

(١٢) يقتبس من قوله تعالى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » مريم : ١٢

(١٣) فى الأصل : المقابس .

(١٤) المَرَض : الغمز .

(١٥) الفَدْم من الناس : العَيىُّ عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم ، وهو أيضا : الغليظ السمين الأحمق الجافى .

(١٦) القَرَم : شدة الشهوة إلى اللحم وغيره ، وفى الأصل : قبر ؛ تحريف .

(١٧) ستأتى إشارة فيما بعد إلى أبى السَّداد . وفى الإحاطة (١٣٩/٢) إشارة إلى من يُسمى أبا محمد ابن أبى السداد الباهلى .

(١٨) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف ،وصفهابن بسام بأنه « أحد كُتَّاب العصر ، وفرسان النظم والنثر » [الذخيرة ٨١٨/٢١٢] وقد روى أبو الوليد بن طريف عن شيوخ قرطبة ، ومن بينهم أبو مروان بن سراج ، وابن حيان ، وكان أديباً نحوياً كاتباً بليغاً ، وهو أحد

قال : مكفوف الأذى ، مغلول الشبا[19] .

قلتُ : فكيف حالهُ معهم ؟

قال : تعبٌ كثير ، ونَفْعٌ يسير !

قلتُ : فما عندك فى أصبغ بن محمد[20] ؟

قال : رجلٌ اغترَّ بحالهِ ، ولم ير المطالبَ من رجالِه ، وأشهدُ له بجهله إلاَّ أنَّه فى السرِّ أجودُ بصراً ، وأبعدُ أثراً ، أمَّا هذا الرَّجلُ فحالهُ حَالَة ، وخِصَالُهُ حُصَالة[21] ، لا يدفعُ النَّهار ، ويردُّ المثَلَ السيَّار ، إلا أنَّ للشرِّ عصابةً حلبوه أشطاراً ، وجرَّبوه[22] عُرْفاً ومُنكَراً[23] ، فجاءوا كنضائض لا يُبَلُّ سليمُهُم ، وشياطينَ لايُفلُّ رجيمُهم :

وإنَّ للحربِ أقـواماً لها خُلِقوا ... وللدَّواوينِ حُسَّـابٌ وكُتَّـابُ

قلتُ : فصاحبُهُ أبو الوليد ؟

فقال : نزا نزوَ القَرار واستجهل القرار[24] ، أو كما قال :

وهلْ أنا إلاَّ من غُزيَّةَ إن غوتْ ... غويتُ وإنْ ترشُدْ غُزيَّةُ أرشُدِ[25]

شيوخ ابن بشكوال ، وكانت وفاته سنة ٥٢٠ هـ .

[الصلة ٧٩ - ٨٠ ، الذخيرة ٢/٢/٨٠٩]

(١٩) الشَّبا : (جمع : الشباة) وشَبَاة كل شيء : حَدُّ طَرَفه ، وقيل : حَدُّه .

(٢٠) هو أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدى ، كبير المفتين بقرطبة ، يعرف بابن المناصِف ، ويكنى أبا القاسم ، روى عن أبيه قاضى الجماعة أبى عبد الله ، وعن أبى محمد بن عتاب ، وأبى مروان بن سراج وغيرهم ، « وكان من جلة العلماء ، وكبار الفقهاء ، حافظا للفقه على مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بالفتوى ، مقدّما فى الشّورى ، عارفاً بالشروط وعللها ، مدققا لمعانيها ، لايجاريه فى ذلك أحد من أصحابه ، وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة » [الصلة : ١٠٩ ت ٢٥٧ ، التكملة : ٢٠٧ ت ٥٥١]

(٢١) الحُصَالة : (بالضم) : الكُناسة .

(٢٢) فى الأصل : وحربوه .

(٢٣) العرف : ضد النُّكر .

(٢٤) القَرار (الأولى) : ضرب من الغنم قصار الأرجل ، قباح الوجوه ، والقرار (الثانية) : القاع المستدير يستقر فيه الماء .

(٢٥) البيت لدريد بن الصِّمّة ، (الأصمعيات : ١٠٧ ، الحماسة ٢/٨١٥) وروايته : « وما أنا إلا من غزية ..... »

وإنى مع هذا أقول : وا أسفا عليه من عِلْقٍ بيع وفَتىً أُضيع !

قلتُ : فالشَّيخُ ابن عتّاب[٢٦] ؟

فقال : يقول كما قال الببغاء ، وأنشد :

عزُبَتْ حلومهم وما مِن معشرٍ إلاَّ وهم منه ألبُّ وأحزَمُ[٢٧]

وإنّا للّهِ على زمانٍ سعى فى فسادِ أحوالهم ، وأماتهم قبل حلولِ آجالهم

قلتُ : فما عندك فى الفقيهِ أبى عبد اللّهِ بن الحاج[٢٨] ؟

فأنشد[٢٩] :

خلتِ الدِّيارُ فسدتُ غيرَ مسوَّدِ ومن الشَّقاءِ تفرُّدِى بالسُّؤددِ

فقلتُ : فكيف حالُه فيهم ؟

فقال : أشفقُ من رسم الأغفال ، وتقويمِ الجُهَّال [٢٨/أ] ﴿ كذلك كُنتُم من قبلُ فمنَّ اللَّهُ عليكم ﴾[٣٠] .

قلتُ : فما عندك فى أبى جعفر ابن سفير[٣١] ؟

---

(٢٦) هو محمد بن عتَّاب بن محسن ، مولى عبد الملك بن سليمان بن أبى عتَّاب الجذامى ، من أهل قرطبة ، وكبير المفتين بها ، يكنى أبا عبد الله ، كان فقيهاً عالماً ، عاملاً ورعاً عاقلاً بصيراً بالحديث وطرقه ... متفنناً فى فنون العلم ، حافظاً للأخبار والأمثال والأشعار ، صليباً فى الحق ، مؤيداً له ، وكان شيخ أهل الشورى فى زمانه ، وعليه كان مدار الفتوى فى وقته ، ودُعى إلى قضاء قرطبة مِراراً فأبى من ذلك وامتنع ، [الصلة ٥٤٤/٢] ،المغرب ١ : ١٦٥ ، بغية الملتمس : ١٨٦]

(٢٧) البيت لأبى تمام من قصيدة يمدح فيها مالك بن طوق (ديوانه ٢٤٢) وألبّ : أعقل وأحزم وأضبط للأمور ، عزبت : غابت .

(٢٨) هو محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبى ، المعروف بأبى عبد الله بن الحاج ، قاضى الجماعة بقرطبة ، « وكان من جلّة الفقهاء ، وكبار العلماء ، معدوداً فى المحدثين والأدباء ... ودارت الفتوى فى وقته عليه ، ونوظر فى المدونة وغيرها لديه ، وتقلّد القضاء مرّتين إلى أن قُتِل ظُلما بالمسجد الجامع بقرطبة سنة ٥٢٩ هـ » (معجم ابن الأبار : ١١٨ - ١١٩)

(٢٩) البيت لحارثة بن بدر (البيان والتبيين ٤٩٤)

(٣٠) النِّساء : بعض آية ٩٤

(٣١) لم أعثر له على ترجمة .

فقال : لا فى العير ولا فى النَّفير[٣٢] ، مِعزى مكيرة ، عليها قشعريرة !

قلتُ : فما عندك فى أبى الوليد بن عواد[٣٣] ؟

قال : قيَّدتْه الزَّمانةُ لا الدِّيانة ، ﴿ ولو علم اللَّهُ فيهم خيرًا لأسمعهم ﴾[٣٤] !

قلتُ : ففى أىِّ حيِّزٍ هو ؟

قال : اعتزَلَ النَّاحيتين ، واحتجز الطَّائفتين ، فهو يشتم هنا وهنا ، ويقول : أنا وأنا !

قلتُ : فما عندك فى أبى الإصبغ بن حزمون[٣٥] ؟

قال : ابنُ لبون[٣٦] ، لا ظهرَ فيُركَب ، ولا لبنَ فيحلب ،

* رأى السَّلامةَ منها ترك ما فيها[٣٧] *

فربضَ حجراً ، وابتغى من عشيقتهِ وَطَراً ، واستردَّ صِباه ، وحطَّ فى هواه ، مُطَّرِحاً للرِّياء ، نابِذاً للحياء ، يُنشد فى سكينة ، بيتى عروة بن أُذينة :[٣٨]

قالتْ وأبثثُها شجـوى فبحـتُ به قد كنت عندى تحبُّ السّتر فاستترِ
ألستَ تُبصر من حـولى فقـلتُ لهـا غطى[٣٩] هواك وما أبقى على بَصَرى

(٣٢) مثل مشهور ، قال المفضَّل إنّ أول من قاله أبو سفيان بن حرب ، وله خبر فى (الميدانى ١٧٢/٢) .

(٣٣) هو هشام بن أحمد بن سعيد ، يعرف بابن العوَّاد ، ويكنى أبا الوليد ، من أهل قرطبة ، وكان من جلة الفقهاء وكبارهم ، وعلمائهم وخيارهم ، حافظاً للرأى ، بصيراً بالفتيا ... مع دين وفضل وورع .. ودعى إلى القضاء بغير موضع فامتنع من ذلك ، وتوفى سنة ٥٠٩ هـ (الصلة ٢ : ٦٥٤ ت ١٤٣٩)

(٣٤) الأنفال : بعض آية ٢٣

(٣٥) هو عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن حزمون ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا الأصبغ ، كان فقيهاً مشاوراً فى الأحكام بقرطبة ، صدراً فى المفتين بها ، حافظاً للرأى ، بصيراً بالفتيا ، وناظر الناس عليه فى الفقه وانتفع بعلمه ، وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وتوفى سنة ٥٠٨ هـ (الصلة ٢ : ٣٧٢ ت ٧٩٧)

(٣٦) الملبون : الناقة ذات اللبن .

(٣٧) عجز بيت ورد فى مجمع الأمثال للميدانى (١ : ٢٠) بروايه : إنّ السلامة ، أما روايه صدره فهى : والنفس تكلف بالدنيا وقد علمتْ

(٣٨) هو عروة بن أذينة بن الليث ، عاش فى عصر بنى أمية ، ووفد على هشام بن عبد الملك ، وكان شريفا ثبتا ــ يُحمل عنه الحديث . كما كان عالما شاعرا حاذقا [معجم الشعراء ٥٤] وقد ورد البيتان فى الشعر والشعراء ١٣٨ برواية « وأبثثُها وجدى »

(٣٩) بالأصل : عطى

قلتُ : فما تقولُ فى الوزير أبى الحسن بن سراج(٤٠) ؟

قال : رأسُ الجلسية ، ورئيسُ المعتزلية ، [به](٤١) ثارت الثَّورات ، وجالت الجولات ، حُلَلٌ من العين والأثر ، وتمثُّل الكلابِ على البقر !

قلتُ : فصاحبُه أبو عبد اللّه بن مكىٌّ(٤٢) ؟

قال : ساكن القَدْر(٤٣) ، قريب الغَوْر ..

قلتُ : فثالثُهما أبو الحَسَن بن المصحفىّ(٤٤) ؟

قال : مصدور لا يملك أن ينفث(٤٥) ، ويحلف ألا فرج رجاءَ أن يحنث !

قلتُ : فما عندك فى أبى الحسن بن الصفَّار(٤٦) ؟

---

(٤٠) هو سراج بن عبد الملك بن سراج ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا الحسين ، وهو من أسرة قرطبية مشهورة ، وكانت له عناية كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد ، وكان حسن الخلق ، كامل المروءة ، من بيئة علم ونباهة وفضل وجلالة [الصلة ١ /٢٢٧] وقد أثنى عليه ابن بسام فقال : « اسمٌ وافق مسمّاه ، ولفظ طابق معناه ، فإنه سراج علم وأدب ، وبحرُ لغة لسان العرب ، وإليه فى وقتنا هذا بحضرة قرطبة شدُّ الأقتاب ، وإنضاء الركاب فى الاقتباس منه ... » وكانت وفاته سنة ٥٠٨ هـ

انظر فى ترجمته : [الذخيرة ٢/٢/٨٢٢ ، المغرب ١ : ١١٦ ، قلائد العقيان : ٢٠٢ ، المطرب : ١٢٣ ، الصلة ١ : ٢٢٧ ، المعجم لابن الأبار : ٣٠٥]

(٤١) زيادة يقتضيها السياق .

(٤٢) هو الوزير الفقيه أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكّى بن أبى طالب القيسى ، جده مكى بن أبى طالب المقرىء المشهور . أمّا هو فكان عالماً باللغات والآداب ، ضابطاً ، جماعة للكتب فى هذا الشأن ، وتتلمذ عليه ابن دحية وابن بشكوال ، وتوفى سنة ٥٣٥ هـ [الصلة ١ : ١٢٩ ، التكملة ت ٢٩٤ ، المغرب ١ : ١٠٨ ، بغية الوعاة رقم ٦١٧]

(٤٣) بالأصل : النور .

(٤٤) لعله حفيد أبى جعفر المصحفى الذى اشتهر فى فترة الحجابة .

(٤٥) فى المثل : « لابدَّ للمصدور أن ينفث » والمصدور : الذى يشتكى صدره ، والنفث : البزق ، وفى حديث الزُّهرى قيل له : إنَّ عبيد الله يقول الشعر ، قال : ويستطيع المصدور ألا ينفث ؟! شبه الشعر بالنفث (اللسان : نفث) .

(٤٦) هو أبو الحسن على بن الصفّار ، من أسرة قرطبيه مشهورة ، ذُكِرَ أنَّ له تاريخاً فى جزيرة الأندلس ، ووصِف بالدُّعابة والمرح ، وله رواية عن يوسى بن مغيث وهو جده . [المغرب ١ : ١٦٥]

قال : عاطٍ بغير أنواط[47] ، [و] سكَّيتٌ[48] يتعاطى السباق ، ومتأخِّرٌ يدَّعي اللَّحاق !

قلتُ : فما يعتقدُ النَّاسُ فيه ؟

قال : كُلٌّ يعلمُ تخلُّفَه ، ويُبغِضُ جِدَّتَه وتصلُّفَه ، حاشى قويم من جيرانِه ، فإنَّ من آمالِهم ، لو اشتروْا له لحيةً بأنصافِ أموالِهم !

قلتُ : فصاحبُهُ أبو القاسِمُ بن بقيٍّ[49] ؟

قال : يساويه في التخلُّفِ ، ويَفْضُلُه في كثرةِ التكلُّف !

قلتُ : فأخوهُ صاحبُ الأحكام ؟!

قال : حمارٌ في مسخ[50] إنسان! ، الاشتغال بذكرِه مُضَيِّعٌ [٢٨/أ] للزَّمان !

قلتُ : فأبو عامر بن فلفل ؟!

قال : غادرَ داءً ونحا صَحْصَحاً[51] ، بعد ما توجه الحكمُ عليه ، وتلمَّظَ الخَصْمُ إليه !

قلتُ : فهو مع ذلك كيف ؟

قال : لحمٌ على وضم ، لولا ما ذبَّ عنه[52] !

---

(٤٧) عاطٍ بغير أنواط : مثل يضرب لمن يدَّعي ما ليس يملكه . (اللسان : نوط)

(٤٨) السُّكيت : آخر ما يجيء من الخيل في الحَلْبَة .

(٤٩) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن بقى ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا القاسم ، شوور في الأحكام بقرطبة ، فصار صدراً في المفتين بها لسنِّه وتقدُّمه ، وهو من بيت علم ونباهة ، وكان ذاكراً للمسائل والنَّوازل ، دَرِباً بالفتوى ، بصيراً بعقد الشروط وعللها ، أخذ الناس عنه ، واختلف إليه ابن بشكوال وأخذ عنه وأجاز له بخطه غير مرَّة ، وتوفي سنة ٥٣٢ هـ . [الصلة ١ : ٧٩ - ٨٠ ت ١٧٤]

(٥٠) في الأصل : مسلخ ؛ تصحيف ، والمسخ : تحويل صورة إلى صورة أقبح منها

(٥١) الصَحْصَح : الأرض المستوية ، ورجل صحصح : يتتبع دقائق الأمور فيحصيها ويعلمها

(٥٢) في حديث عمر بن الخطَّاب — رضي الله عنه — أنه قال : إنَّما النِّساءُ لحمٌ على وضم ، إلاَّ ماذُبَّ عنه » أي هنَّ في الضعف مثل ذلك اللَّحم لا يمتنع من أحدٍ إلاَّ أن يُذبَّ عنه ويُدْفع والوضم : الخشبة أو البارية التي يوضع عليها اللحم (اللسان — وضم)

قلتُ . فما عندك فى الشّيخ أبى عمران بن أحطل[٥٣] ؟!

فأنشد[٥٤] .

لا قُدِّستْ نُعمى تسربلتها كم حجَّةٍ فيها لزنديقِ

قلتُ : فما عندك فى أبى جعفر بن أُبَّى[٥٥] ؟

قال : هو شيطانٌ فى كُلِّ طريق ، ومع كُلِّ فريق ، تميميًّا مرَّة ، وقيسيًّا أُخرى ، يسلم على اختلاف الدُّول ، مع التقحُّمِ فى القولِ والعمل ، وأظنُّه من المُنْظَرينَ إلى يوم الدِّين !

قلتُ : فقريبُه أبو الحسن ؟!

قال : ذَنْبٌ من ذنوبِه ، وعَيْبٌ من عيوبِه ، فى حماه يرتع ، وإلى يومِه يرفع !

قلتُ : فأخوهُ عيسى ؟!

قال : هو منه كهرون من موسى ، وأنشدنى ساخراً :

خُذْ ما تراهُ وَدَعْ شيئاً سمعتَ بـه فى طلعةِ الشَّمسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ[٥٦]

قلتُ : فابنا أخيهما أُبىّ وربيع ؟

قال :

أعن سعدٍ تُسائِلُ أم سَعادَةْ كِلا الكلبين فى الهيجا جَرَادَةْ

---

(٥٣) لعله أحمد بن عبد الله بن أحطل ، قرطبى ، وكنيته أبو عمر ، وكانت له رحلة إلى المشرق [الذيل والتكملة ١ : ١٣٧ ترجمة رقم ٢١١]

(٥٤) البيت لابن الرومى (ديوانه ٤ : ١٧٠٤)

(٥٥) هو أحمد بن أبى الحسن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى ، قرطبى ، ويلّقب بذى الوزارتين أبى جعفر بن أُبىّ ، مدحه الأعمى التُّطيلى بقصيدة طويلة ، منها قوله : [الذخيرة ٢/٢ : ٧٤٤]

أبا جعفرٍ هذى المكارمُ والعُلا دعاءُ بحقٍّ وادّعاءٌ على عِلْمِ
تسمَّيتَ بالفضلِ الذى أنت أهله ومعناهُ والمذمومُ أجدرُ بالذَّمِّ
وألبستَ من مثنى الوزارة حُلّةً تقومُ لها تلك المآثرُ بالرَّقْمِ

وذكر عبدُ الملك المراكشى أنه « كان من بيت علم وجلالة ، ذا عناية بالعلم »

[الذيل والتكملة ١ : ١٩٣ - ١٩٤]

(٥٦) البيت للمتنبى ، (ديوانه : ٣ : ٢٠٥)

قلتُ : فما عندك فى صاحب السِّكة وأخيـه ؟!

فقال : القـزَّازُ والخـزَّاز ؟!

نسبٌ كأنَّ عليه منشمسِ الضُّحى نوراً ومن فَلَقِ الصَّباح عمـودا[٥٧]

قلتُ : فما عندَك فى أبى عبد اللّهِ الحضرمىّ[٥٨] ؟!

فقال : طلبَ الزِّيادةَ فنقص ، ومشى الغد منه فنكص ، وتلك عادةُ اللّهِ فيمن تجاوز[٥٩] حدّه ، ولم ينظرْ قصدَه .

قلتُ : فما عندك فى أبى علىّ بن كامل[٦٠] ؟!

فقال : ارتجعَ بعد التطليق ، ورقع بعد التمزيق !

قلتُ : فما عندك فى الموزورىّ[٦١] أبى عبد اللّه[٦٢] ؟!

قال : [سفيه][٦٣] زمانهِ ، واللّهُ أعلمُ بشانه ، فاستمْلَحْتُ طَنْزَته[٦٤] !

قلتُ : فما تقول فى أبى بكر بن المرعزى[٦٥] ؟

فقال : ضعيفٌ أضاقَ الحَسَدُ عَطَنَه ، وأجْرَى السَّفَهُ [٢٩/أ] رسنَه ، فآلتْ به الحال إلى أن فارقَ الأهلَ والولد ، وسرى سُرى الأبد .

---

(٥٧) البيت لأبى تمام من قصيدة فى مدح خالد بن يزيد الشيبانى (ديوانه ٨٠ ط . بيروت)

(٥٨) هو عبد الله بن عمر بن هشام الحضرمى ، أصله من إشبيلية ، ونزح أهله إلى قرطبة ، وبها ولد ونشأ ، وكان مقرئاً نحوياً ، أديباً شاعراً ، وله تصانيف عدة ، وتوفى بعد سنة ٥٥٠ هـ [التكملة رقم ٣١٧٢].

(٥٩) بالأصل : تجاور ؛ تصحيف .

(٦٠) لم أعثر له على ترجمة .

(٦١) فى الأصل : المرورى ، والصواب ما أثبتناه ، وهو نسبة إلى موزور : كورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة (معجم البلدان ٨ : ١٩٣) .

(٦٢) هو محمد بن عبد العزيز بن أبى الخير ابن على الأنصارى : أبو عبد الله ، المعروف بالموزورى ، من أهل (سرقسطة » وسكن قرطبة وكان قاضياً ، وله رواية عن الباجى وغيره ، وتوفى بقرطبة سنة ٥١٨ هـ . [معجم الصدفى : ١٠٦] ولأخيه أحمد بن عبد العزيز الموروروىّ ترجمة [بمعجم الصدفى : ٧]

(٦٣) غير واضحة بالأصل ، وما أثبتناه أقرب إلى رسم الكلمة

(٦٤) الطَّنز : السخرية والاستهزاء

(٦٥) لعله حفيد ابن المرعزى كاتب المنصور بن أبى عامر . انظر الإحاطة (١ : ٤٦٦)

قلتُ : فما تقولُ فى ابنى ملامس[٦٦] ؟!

فقال : قبَّحهما اللّهُ من خبيثين مُخَنثين ، أسديا الشرَّ وألحماه ، فلَّما انتهى البلاءُ مُنتهاه ، وفغر العدوُّ عليهما فاه ، لاذا بالفَرار ، وتركا العارَ لصاحبة الدَّار ؟!

قلتُ : فما عندك فى أبى الحسن بن عبد الصمد[٦٧] ؟!

قال : مومسةٌ تعصفرُ أثوابَها ، وتُحاسنُ أترابها !

قلتُ : فما عندك فى الهُراء[٦٨] أبى القاسم بن النخَّاس[٦٩] ؟

فصاح : آهٍ آهٍ لكتابِ اللّه بشيخٍ مع صبيان ، فى تباريحَ من الوصلِ والهجران ، يُهانُ شيبهُ ، ويُذَاعُ عَيْبُه .

قلتُ : فما عندك فى ابنه ؟

فقال : لم يسعدْ فى الزواج ، وهو مِمَّن مُلِّسٍ بالعَاج .

قلتُ : فما تقولُ فى أبى العبَّاس بن جُرج[٧٠] ؟!

فقال : مخبَّأَةٌ مُخَدَّرة[٧١] ، * وعلى الغانياتِ جرُّ الذيولِ[٧٢] * !

قلتُ : فعمُّهُ أبو الوليد ؟!

---

(٦٦) كذا فى الأصل ، وفى الذيل والتكملة (٤ : ٦٠) ترجمة لمن يدعى سليمان بن إبراهيم بن ملاس ، أبو أيوب ، وأشار إلى أن له أخوين هما (أحمد وعمر) ، وذكر أنه روى عن شريح المتوفى بعد سنة ٥٣٤ هـ .

(٦٧) أبو الحسن بن عبد الصمد (؟)

(٦٨) رجل هُرَاء : كثير الكلام ، والهُراء : اسم شيطان موكَّل بقبيح الأحلام (اللسان : هرأ)

(٦٩) هو أبو القاسم خلف بن إبراهيم النخَّاس ــ بالخاء معجمة ــ من أبرز علماء قرطبة فى القراءات ، وقد أخذ عنه كثيرون (الذيل والتكملة ١ : ١٠٧ – التكملة . رقم ١٣٣ – ١٥٢ – ٤٤٧) .

(٧٠) ترجم عبد الملك المراكشى فى الذيل والتكملة (١ : ١ ٨) لابنه أحمد بن جرج وستأتى ترجمته فى الحاشية رقم (٧٤)

(٧١) يشبهه بالمرأة المخدرة ، أى التى لزمت الخِدْر .

(٧٢) هذا عجز بيت لعمر بن أبى ربيعة ، وصدره : (ديوانه ١٧٦)

* كُتِب القتلُ والقِتالُ علينا *

قال : في عِداد الموتى وفي غابرِ[73] الدُّنيا !

قلتُ : فأبو جعفرٍ ابنهُ[74] ؟!

فأنشد[75] :

ويخطو على الأيْنِ خطوَ الظَّليـ ـمِ ويعلو الرِّجالَ بجسـمٍ عَمَمْ

فاستغربت ضحكاً ، [و] قلت : فما عندك في أبي محمد بن أخطل[76] ؟!

فقال : وزيرُ غَوان ، وزيرُ دنان ، وهو من شرِّ الغُلْمَةِ[77] في أمان [وهذا][78] لأبي محمَّد كثير .

قلتُ : فأبو العباس بن عبدوس ؟

قال : لكع بن لكع ، فخُذْ في غيرهِ أو فدعْ !

قلتُ : فما تقولُ في الشَّيخ أبي الوليد بن عامر[79] ؟!

فزوى وجهَه وأنشد[80] :

ألا حيِّ أطلالَ الرِّسومِ البواليا لبِسنَ البِلى مِمَّا لبسنَ اللَّياليا

وفهمت أنَّه يكره المسألة ، عن تلك السَّفلة ، فأضربتُ عن ذكره !

قلتُ : فما عندك في أبي العَبَّاس البيَّاس[81] ؟!

---

(٧٣) في الأصل : عامر ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٧٤) هو أحمد بن جرج القرطبي ، أبو جعفر ، ابن أبي العبّاس بن حرج ، كان أديباً شاعراً ، من بيت علم وجلالة ، وتوفي بعد سنة ٥٧٠ هـ (الذيل والتكملة ١ : ٨١)

(٧٥) البيت لشاعر يقال له العماني في مدح هارون الرشيد ، وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذَنَبين عن يمين وشمال ثم طاف بأوسع من خطو الظليم (البيان والتبيين ٠ ٨١)

(٧٦) لعله قريب أبي عمران بن أحطل المذكور في الحاشية رقم (٥٣)

(٧٧) الغُلمة (بالضم) : شهوة الضراب ، وفي الأصل (العلفة) ولا وجه له .

(٧٨) زيادة يقتضيها السياق .

(٧٩) هو أحد علماء قرطبة المبرزين في الفقه والحديث ، وقد اعتمد عليه الضبيّ في رواية بعض أخبارهم (بغية الملتمس : ٥١٦ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١)

(٨٠) البيت لأبي حية النميرى (البيان والتبيين ٣٢٧)

(٨١) لم أقف له على ترجمة .

فأنشد[٨٢] :

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نســاءُ

قلتُ : فما عندك فى أبى حفصٍ صاحبِ أحكامِ كدنة ؟!

فقال : السَّيفُ والقلم ، والحُكْمُ والحِكَم ، ما كان أحوجَ ذلك الكمال إلى عيبٍ يوقيه من العين !

قلتُ : فما عندك فى ابن فرج[٨٣] ؟!

قال : أعبدَ اللّه ؟

[٢٩/ب] قلتُ : نعم !

فأنشد :

أمَّا ابنُ قروةَ يوسفٌ فكأنَّه من كبرِهِ أيرُ الحمارِ القائمُ

ما النَّاسُ عندك غيرُنفسِك وحدَها والنَّاسُ عندك ماعداك بهائِمُ

قلتُ : هذا هو عندَ نفسِه ، فما هو عند النَّاس ؟

قال : قالس[٨٤] مشئوم ، وأمسكَ مُبتسماً ، فقلتُ : مبادراً : وأسفل محجوم ، فقال : أرى شيطانَنا واحداً ، فقلتُ : كذا وحبَّذا !

قلتُ : فما عندك فى ابن شمَّاخ[٨٥] ؟!

قال : الصَّبيحُ الفصيحُ !

---

(٨٢) البيت لزهير بن أبى سُلمى (ديوانه : ٩٧)

(٨٣) ابن فرج ، من علماء قرطبة المبرزين فى الفقه ، كان يحدِّث بالموطأ ، وأخذ عنه ابن بشكوال ، وصحبه كثيراً ، ولازمه طويلاً (الصلة ٢ : ٣٦٦)

(٨٤) القالس : الذليل الخاضع ، مأخوذ من التقليس : وهو وضع اليدين على الصدر خضوعاً كما تفعل النَّصارى قبل أن تُكفِّر (أى قبل أن تسجد) ، والتقليس أيضاً : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو واللعب بين أيديهم . (اللسان : قلس)

(٨٥) هو الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شمَّاخ ، كان وزيراً لسيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود بقرطبة ، وعندما ثار أهل قرطبة على ابن هود سنة ٥٣٩ هـ هاجموا قصره وقتلوا ابن شمَّاخ وعدَّة من أصحابه ، وفرَّ ابن هود ناجياً بنفسه .
[الحلة السيراء ٢ : ٢٠٧]

قلتُ : لا ، العكلى[٨٦] ، ذاك الفتى القبداق[٨٧] صاحبنا !

قال : سيما لا تشقُّ على البصر :

كأنَّ الثريَّا عُلِّقتْ فى جبينهِ وفى أنفهِ الشِّعرى وفى جيدِه القَمرْ[٨٨]

قلتُ : فما تقولُ فى أبى الحكم بن المطرّف[٨٩] ؟!

فأنشد[٩٠] :

لو كان يخفى على الرَّحمنِ خافيةٌ من خلقهِ خَفِيتْ عنه بنو أسدِ

قلتُ : فما تقول فى القُرشى أبى عبد اللَّه[٩١] ؟

قال : أحيمر عاد[٩٢] !

قلتُ : نعم

قال : لحاه اللَّه ، وعاء خبائثٍ وفسوق ، ولصٌّ فى ضَجَّةِ سُوق ، لو لم يكن بمصطبحِه ذَنْبٌ سواه ، لكفاه !

قلتُ : فما عندك فى ابن مديد[٩٣] ؟!

---

(٨٦) العكلُّ : اللئيم من الرجال .

(٨٧) القبذاق : نسبة إلى القبذاق وهى قرية من قُرى أشونة (المغرب ١ : ٤١٣)

(٨٨) البيت لأسيد بن عنقاء الفزارى (الإيضاح للقزوينى : ١٩٥) ورواية عجزه * وفى خده الشِّعرى وفى وجهِهِ البدرُ *

(٨٩) هو يحيى بن محمد بن أبى المطرف ، من أهل قرطبة ، يكنَّى أبا الحكم ، روى كثيراً من كتب الأدب واللغة ، وقد أخذ عنها بعضها ، ولم يكن عنده ضبط ولا إتقان لما رواه ، وتوفى سنة ٥٢٦ هـ (الصلة ٦٧٣/٢)

(٩٠) البيت للطرماح بن حكيم (عيار الشعر : ٤٥) ، الشعر والشعراء ، الأغانى ١٠ : ١٢٨ ، خزانة الأدب ٣ : ٢١٨)

(٩١) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حكم ، القرشى ، المروانى ، الناصرى ، ويعرف بابن الأحمر ، كان حافظا للفقه ، متفننا فى المعارف ، وتتلمذ على أبى مروان بن سراج ، وتوفى سنة ٥٤٢ هـ [الصلة ٥٨٩/٢]

(٩٢) المألوف أن يقال . أحمر ثمود وهو لقب قدار بن سالف عاقر ناقة صالح ، وهو هنا يتهكم بالقرشى لأنه عرف بابن الأحمر

(٩٣) بن مديد (؟)

قال : أكاتب أبى السداد[٩٤] ؟

قلتُ : نعم ، قال : حنَّ قِدْحٌ ليس منها[٩٥] .

قلتُ : وكيف حالُه مع هذا ؟

قال : وقاح يغيظُ الأحرار ، ويغضُّ الأبصار :

ولو أنَّ عبدَ اللّهِ مولىً هجوتُه ولكنَّ عبدَ اللّهِ مَولى مواليا[٩٦]

قلتُ : فما تقولُ فى أبى بكر بن سكرون[٩٧] ؟!

فقال : لحيةٌ تهوء[٩٨] ، ومشيةٌ تنوء ، وفى أسفلهِ داءٌ بعيدٌ عنكم السوء !

قلتُ : فما تقول فى ابن جابر[٩٩] ؟

فقال : أعن أَخْيَلِ الذَنَب[١٠٠] ، وعيانِ المحتسِب ، تسأل ؟!

فقلتُ : أجـل !

فقال : [فيه دَيْدَنٌ][١٠١] وشَرْطٌ . تفقدُ أكبر هَمِّه ، إذاعةُ قَطْمِهِ !

قلتُ : فما تقولُ فى الكريمِ أبى عامر بن شهيد[١٠٢] ؟!

(٩٤) أبو السُّداد : أحد ولاة المرابطين ، شارك فى معركة ميورقة سنة ٥٠٩ هـ وأسند إليه على بن يوسف ولايتها ولكنه لم يحسن السيرة فى أهلها (عصر المرابطين والموحدين ــ عنان ص ١٥٢)

(٩٥) مثل يُضْرَب للرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدَّح بما لايوجد فيه والقدح : أحد قداح الميسر ، وإذا كان أحد القداح من غير جوهر أخواته ثم أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها فيعرف به أنه ليس من جُملة القداح . [الميدانى ١/١٠٠]

(٩٦) البيت للفرزدق فى هجاء عبد الله بن إسحاق الحضرمى ، وله خبر طريف (الشعر والشعراء : ١٢)

(٩٧) أبو بكر بن سكرون (؟)

(٩٨) الهوء : الهمة ، وهاء بنفسه إلى المعالى يهوء هَوْءاً : رفعها وسما بها

(٩٩) ابن جابر (؟)

(١٠٠) العرب تقول : أشأم من أَخْيَل ، والأخيل : هو الشِّقراق ، وهو مشئوم . قال ثعلب : وهو يقع على دبر البعير ، يقال إنه لا ينقُرُ دَبَرَةَ بعير إلاَّ خَزَل ظهره ، وهم يتشاءمون به لذلك . (اللسان : حيل)

(١٠١) غير واضحة بالأصل .

(١٠٢) لا أظنُّ أنه يقصد أبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب لأنه توفى سنة ٤٢٦ هـ بينما أحداث المقامة تدور بعد ذلك بكثير

فأطرق حيناً ، ثم قلتُ له : ما بالك ، فقد [٣٠/أ / تغيَّرت حالُك ؟! فأنشد :

تفرَّقتِ الظباءُ على خداشٍ فما يدرى خُداشٌ ما يصيدُ(١٠٣)

ثمّ قال :

واعلمْ بأنّ من السّكوتِ إبانةً ومن التكلُّمِ ما يكونُ خَبَالا(١٠٤)

فقلتُ : لاها الله ! ما رأيتُ كاليومِ معضلة ، وتذكرتُ ماذهبَ إليه فى أبى عامرٍ من قولِ بعضهم(١٠٥) :

بما أهجوك لا أدرى لسانى فيكَ لا يجرى
إذا فكَّرتُ فى عِرْضِـك أشفقتُ على شِعرى

قلتُ : فتلك الطائفةُ المروَّعة عندكم سجناً وتشريداً ، ما صنعتْ ؟

فقال : أعن هؤلاء تسأل ! لقد تتبعتُ المسألةَ ، فللّهِ زعنفة(١٠٦) بعدتْ أطوارُها ، فعُرِفَتْ أقدارُها !

قلتُ : فما صُنِعَ فى كتابِ الغزالى(١٠٧) ؟

---

(١٠٣) ورد هذا البيت فى الأغانى (١٢ : ٢٢٧) وقد ذكره أبو الفرج فى سياق خبرٍ عن خارجىّ يقال له ابن معاوية ظهر بالكوفة ودعا لنفسه فى عهد يزيد بن معاوية ، فخرج إليه عاملها عبد الله بن عمر وقاتله ، فانهزم من معه ولم يبق غير ابن معاوية ، فجعل يقاتل وحده ويقول : تفرقت الظباء ... البيت » برواية « خراش » فى الموضعين .

(١٠٤) ورد هذا البيت فى (البيان والتبيين ٨٥) منسوباً لبعض الكلابيين وقبله :

وإذا حطبت على الرجال فلا تكن خطل الكلامِ تقولُه مُختالا

(١٠٥) البيتان لأبى نواس ، قالهما فى رجل هجاه وهو بمصر يعرف بالحسن بن عمر وكان كما تصفه رواية ابن خلكان من أقبح الناس صورة ، فقال له أبو نواس : بم أهجوك ؟ وبأى شىء أصفك ؟ وقد سبقى الله تعالى إلى توحش منظرك ، وتقبيح مخبرك ؟ فقال له بعض الجالسين : اهجه لئلا يقال إنه أفحمك ، فهجاه بالبيتين المذكورين ، ورواية البيت الثانى فى وفيات الأعيان (٢ : ١٠٠) « إذا فكرت فى هجو ك أبقيت على شعرى » .

(١٠٦) الزعنفة : أسفل الثوب المتخرّق وطرفه ، والزعنمة : القصير ، وسُمّى رذال الناس زعانف على التشبيه بزعانف الثوب والأديم .

(١٠٧) المراد : كتاب الإحياء لأبى حامد الغزالى ، ويذكر المراكشى فى المعجب (٢٣٧) أنه « لمّا دخلتْ كُتب أبى حامد الغزالى ــ رحمه الله ــ المغرب ، أمر أميرُ المسلمين ــ على بن

قال : قِيلتْ فيه أقوال ، وعُملت به أعمال ، ولبئس ما عمل ، ولبئس ما قيل ، أساءوا الفهمَ فأساءوا التأويل ، وويلٌ للشّعرِ من الرواةِ السوء ، وأحسبهُ قد استحق الذى عملوا ، وصحّ فيه ماقالوا وتأوّلوا إذْ ليس اللّهُ تعالى يُرضيه إلاّ ما اعتمدَ رضاه فيه .

قلتُ له : إيهٍ يالله ، فواليك بن رنغى[108] فقد نسيناه !

قال : خليقٌ أن يُنسى ، وحقيقٌ أن يُقلى ، حديثُ أمتين ، كذبٌ ومين ، لولا عفافُ إزارِه ، وكرمٌ غطّى على عوارِه ، لما كانت له حسنةٌ تُتلى ، ولا خطّةٌ تُستثنى ، « ومثلما تكونون يُولّ عليكم » .

قلتُ : فكاتبُه ابن أُبّى ؟

قال : بائِسٌ مغترّ ، وفقيرٌ مُضطر ، حصل على مالم تطمحْ هِمّتُه إليه ، فهو يحملُ من صاحبِه ما لاصبرَ لأحدٍ عليه !

قلتُ : للّهِ أنت ، فما أحسنَ بيانَك ، ولو علمت المقصد ، ليمّمت نحوكَ اليد ، فتنفّس الصُّعداء ، وأنشد[109] :

وسائلةٍ بالغيبِ عنّى وسائلٍ ومن يسألِ الصُّعلوكَ أين مذاهبُه

فقلتُ فى نفسى : لقد ألطفَ الاستمناح ، هذا أبو فتح زماننا لامحالة ، ولم أجدْ ما [٣٠/ب] عندى يفى لمكانه من نفسى ، فتغابيتُ له وأنشدْتُه[110] :

يوسف بن تاشفين — بإحراقها ، وتقدّم بالوعيد الشديد ، من سفك الدماء ، واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شىء منها ، واشتدّ الأمر فى ذلك »

وأنظر فى ذلك أيضاً : رسالة تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين إلى الفقهاء ، والوزراء والأخيار ، والكافة ببلنسية ، فى كتاب « رسائل أندلسية » ، وفيها يقول : « ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، أو صاحب بدعة ، فإياكم وإياه ، وخاصة — وفقكم الله — كتب أبى حامد الغزالى ، فليتبع أثرها ، وليُقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عنها ، وتغلظ الإيمان على من يتهم بكتمانها » .

(١٠٨) كذا بالأصل .

(١٠٩) البيت لأبى النَّشناش ، وهو شاعر إسلامى كان لصاً من لصوص بنى تميم بين الحجاز والشام أيام مروان بن الحكم ، وقد ورد فى الحماسة (بشرح التبريزى ١ : ١١٦ ط . بيروت)

(١١٠) الشعر للبحترى (عدا المصراع الأخير) وقد قاله فى وداع أبى جعفر بن سهل المروزىّ وإلى

اللّـهُ جـارُك فى انطلاقِـك
تلقـاءَ شامِـك أو عِـراقِـك
إنّـى بكيـتُ علـى فِـراقـك

إذهبْ مُصَاحباً ، صنعَ اللّهُ لك الصَّنْعَ الجميـل .

الخراج بقسرين والعواصم ، حين أراد البحترى الخروج إلى مسج ، وكان معه بحلب ، فخرج ولم يودعه ، وروايته فى الديوان [٣ : ١٤٩٥ ق ٥٧٩]

الله جـارُك فى انطـلاقـك تلقـاء شـامك أو عـراقِـك
لا تعـدلَنـى فى مسـيـرى يـوم سـرت ولم ألاقـك

[٣١]

رسالةُ الانتصار* في الردِّ على صاحب المقامة [القرطبية](١) كتب بها أبو جعفر بن أحمد(٢) ــ رحمه الله

الحمدُ للّهِ المنفردِ بالعِزَّةِ والجلال ، المتوحِّدِ بالعظمةِ والكمال ، الذى تعالى عن صفاتِ العالمين ، وجعل النَّقصَ(٣) من صفاتِ المخلوقين ، واطّلعَ على مكنونِ الفؤادِ فستر ، ومنعَ أعراضَ العبادِ أن تُهْتَر(٤) ، أحمدُهُ حمدَ مستديمٍ لنعمهِ ، مقيمٍ على شُكرِ كرمِه ، وأقرُّ له ــ سبحانه ــ بعظائمَ قد أوبقت ، وجرائمَ قد أوثقت ، وعيوبٍ فيها شغلٌ ، وذنوبٍ هو لمغفرتِها أهل ،

وأسأله أن يُصلّي على مُحَمَّدٍ سيِّدِ رُسُلهِ ، وعلى أصحابه الأكرمين وأهلِه ، ولا يعدمنا الاهتداءَ بقولِه ، والاقتداءَ بفعله ، وتبًّا لمن جعل رأسَ مالِه الخُسْران ، وأنفسَ خِلاله البُهتان ، ويقرفُ(٥) بالمحُال ، ويقذِفُ عِليَةَ

* هذه الرسالة ليست ردًّا على مقامة الفتح بن خاقان فى ذم شيخه البطليوس كما ظنَّ ذلك د . إحسان عباس (تاريخ الأدب الأندلسى ــ عصر الطوائف والمرابطين : ٣١٥) ولكنَّها ردّ على المقامة القرطبية المتقدمة (رقم ٢٨) لاسيما وأنَّ رسالة الفتح بن خاقان لم ترد فى هذا الكتاب ، ولكنها وردت فى كتاب (رسائل أندلسية ــ بتحقيقنا) ، وقد أثبت المؤلف بعدها رسالة الانتصار بعد أن أسقط المقامة القرطبية ولم يثبتها لما فيها من فحش ــ على حد تعبيره ــ وقد أدى هذا إلى اللَّبس والوهم الذى وقع فيه الباحثون ، فخلطوا بين مقامة الفتح والمقامة القرطبية ، وظنوا ــ خطأ ــ أنَّ رسالة الانتصار ردٌّ على مقامة الفتح .

(١) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٢) ترجم ابن بسَّام للكاتب أبى جعفر بن أحمد وأشار إلى أنه من مدينة دانية وأنه تبوَّأ مكانة كبيرة عند ملوك الطوائف « وله إحسان كثير ، منظوم ومنثور » الذخيرة (٢/٣ : ٧٥٧) .

(٣) فى الأصل : النقص .

(٤) الهتْر : مزْق العرض .

(٥) يقرف : يتَّهم ، وقارف الشىء : داناه ، ولا تكون المقارفة إلا فى الأشياء الدَّنيَّة .

الرِّجال ، وينسبُ إلى الجِلَّةِ النُّقصان ، ويُغضب[٦] فى أهلِ المِلَّةِ الرَّحمن ، ويُرضى الشَّيطان ، فيقعُ فى لحمِ أخيه سبعاً ، ويرتع فيما يخريه ضبعاً ، كلامُه زُور ، ونظامُه فجور ، ونثارُه كذِب ، ومضمارُه لعِب ، إنْ ذكرَ العلماءَ أفحش ، أو وصفَ الفقهاء أوحش ، أو جلى الأخيارَ ثلب ، أو تلا الأخبارَ قلب ، فالقضاةُ عنده خَدَمٌ سَدَنة ، والولاةُ ظَلَمَةٌ خونَة ، والسياسة حَبَالة ، والرِّياسة إبَّالة[٧] ، والخيرُ رياءٌ وسُمعة ، والبِرُّ حيلةٌ وخُدْعة ، له فى كُلِّ مصرٍ مقالة ، وعلى أهلِ كُلِّ عصرٍ استطالة ، وفى كُلِّ قومٍ قصيد ، وفى كُلِّ يومٍ نشيد ، قد طَوَّقَ نفسَه عاراً ، وألحق بأهلِ الأدبِ شناراً[٨] ، فهم بغير سماتِهم موسومون ، وبعكس أناتِهم مرسومون ، تمقتُهم القلوبُ والأبصار ، [٣١/أ] وتنحتُ[٩] أثلتَهم الأسمار ، وتشرَقُ بموضعِهم الأقطار ، ويلحقُهم — حيث حَلُّوا — الصَّغار ، فلا يردونَ الأنداءَ إلاَّ تقنُّعاً ، ولايطرقون الأفياءَ إلاَّ تصنُّعاً ، ولا يغشوْنَ المشاهِدَ إلاَّ ناكِسى الرءووس ، ولا يخلون المحافِلَ إلاَّ مستوحِشى النُّفوس ، لبئسَ ماسلكه فى كُلِّ طريق ، وتركَه عند كُلِّ فريق ، وأبقاهُ من ذميمِ الأثر ، وتوخَّاهُ من سقيمِ النَّظر ، ماكان أولاهُ أن يتأملَ حالَ نفسِه ، قبلَ تأمُّلِ سواه ، وينظر فى خاصَّةِ أمره دونَ مَنْ سواه ، وأحراهُ أن يبدأ بتأديبِ أخلاقِه ، ويأخذَ فى تهذيبِ أطراقِه[١٠] ، ولا يركبُ مثلَ هذه الشَّنعاءِ فى أهلِ الزَّمان ، ويرغب عن هذه العوراء فى الجماهيرِ والأعيان[١١] ، بل يُصرِّف فى نشرِ مفاخِرهم لسانَه ، ويصرِفُ إلى ذكرِ مآثِرهم عنانَه ، ويُطرِّزُ بعدِّ مناقِبهم مُلاءَتَه ، ويُحرز بحمدِ مذاهِبهم غايتَه ، ويمضى فى تقييدِ محاسِنهم مطيَّه ، وينضى فى تخليدِها جوادَه وبطيَّه ، حتَّى يودعَ جيدَ الدَّهرِ من

---

(٦) فى الأصل : يعصب ، تصحيف .

(٧) الإبالة : الولاية والإمارة .

(٨) الشنار : العيب والعار .

(٩) فى الأصل : تنحت ، تحريف .

(١٠) الطرق : الماء المجتمع الذى خيض فيه وبيل وبعر فكدر ، والجمع أطراق .

(١١) لاحظ أن عنوان مقدمة القرطبية هو « ميزان الأعيان ، حكم الزمان » ممّا يؤكد أن هذه الرسالة ردٌّ عليه

ذلك قِلادة ، ويجعلَ فضائلَهم لفضلهِ شهادة ، إذ كانوا أئمةَ الإسلام ، والمسموعَ منهم فى الحلالِ والحرام ، والصِّنفَ المخصوصَ بالتقديم والتفضيل ، والنَّوعَ المتأوَّل له أحسنَ التأويل ، وقد أبتِ الدِّيانةُ أنْ تتسامحَ فيهم لإنسان ، أو يُغضى فى الإنحاءِ عليهم لقاصٍ أو لدان ، أو يُداهِنَ فى ذلك حميم ، أو يجرِرَ رسَنَه فيهم مُليم ، مع ما منعه الشَّرْعُ من الإملاقِ على بشر ، والتطرُّق[١٢] إلى أحدٍ من الخَلْقِ بضَرر[١٣] ، وعساهُ أن لو جارى بعضَهم فى ميدان أو باراهُ فى محاورةٍ أو بيان ، لجاء سكِّيتَ الحلبة ، وبلغ متأخِّر الرُّتبة ، فأضحى لا يُطاولُهم فِتْراً[١٤] ولا باعاً ، ولا يُكايلُهم مُدّاً ولا صاعاً[١٥] ، فليستُر هناتِه فى هذه العورة ، وليقصرْ شَبَاته عن هذه السَّورة ، وليكفَّ من غَرَبِ لسانِه ، وليكلفْ بالأمثلِ بمكانِه ، فهو له أنفع ، ولقدرِهِ فى الدَّارين أرفع ، إن شاءَ اللَّهُ — تعالى — وإيَّاهُ — جلَّت قدرتُه أسألُ أن يجعلنا مِمَّن أرشدَ أفعاله ، وسدَّدَ أقواله ، ويحبُّ [٣١/ب] النَّاس ويحبُّونه ، فقد قال رسولُ اللَّهِ — صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم — « شِرارُكم من يُبغض النَّاسَ ويُبغضونه » فهو ولىُّ التوفيق ، والهادى إلى سواءِ الطريق ، لاربَّ غيرُه ، ولاخيرَ إلاَّ خيرُه .

(١٢) فى الأصل : والتطرق : تحريف .

(١٣) فى الأصل : بضرر : تحريف

(١٤) الفتر ما بين طرف السبابة والإبهام اذا فتحتهما ، وفتر الشيءَ : قدَّره ، وكاله بفتره ، كشبره : كاله بشبره .

(١٥) الصَّاع : مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد ، والمُدُّ : مختلف فيه ، فقيل هو رطل وثلث بالعراق ، وقيل هو رطلان

[٣٢]

المقامة الشلبيَّة

وتُعزى لأبى الوليد بن سنيد أمير[1] ـــ رحمه الله

حدَّث سمان بن زمان ، أو أبان بن شيبان ، عن حيَّان بن عيان ، وليس يُعرف ابن من كان ، صاحب فلان بن فلان ، الذى أنشأ « ميزان الأعيان بحكم الزَّمان »[2] ، قال :

قذفت بى غربةُ النَّوى إلى الغرب[3] ، فأشلْتُ النعامة[4] على ابن النَّعامة إلى شلْب[5] ، مسقطِ رأسى ، ومكانِ أُنسى ، ومعى غدى من الدَّهرِ وأمسى ،

كُتبت هذه المقامة تقليداً للمقامة القرطبية ، فكانتها يتعرض بالطعن والذم والهجاء لجماعة من أدباء وأعيان مدينة شلب فى القرن السادس الهجرى ، وقد أشار صاحبها صراحة إلى المقامة القرطبية واعتمد سبعها وصياغتها فى مقامته .

(١) لم أعثر على ترجمة له فى المصادر الأندلسية وإن كنت قد وقفت على ترجمة فى التكملة (رقم ٢٠٧٥) لعبد الله بن سيد أمير اللخمى ، ذكر فيها ابن الأبار أنه من أهل شلب ، من ناحية الغرب ، وأنه برع فى الحديث والنحو ، وكانت له مشاركة فى علم الطب عرف بها ، وانتفع به » فلعله هو صاحب المقامة . وإن كانت عبارة صاحب المجموع فى التقديم للمقامة تشكك فى نسبتها إلى أبى الوليد بن سيد أمير .

(٢) هذا هو عنوان المقامة القرطبية كما مرَّ فى تقديم صاحب المجموع لها ، وهو ما يقطع بوقوف أبى الوليد بن سيد أمير عليها وتأثره بها .

(٣) الغرب : غرب الأندلس . وفى الأصل : الغرت .

(٤) شالت نعامته : خفَّ وغضب ثم سكن ، وشالت نعامتهم : تفرقوا وذهب عِزُّهم والنعامة : جماعة .

(٥) شلب Silves : من مدن غرب الأندلس ، وهى قاعدة كورة أكشونبة على مقربة من البحر المحيط (الأطلسى) وهى قبلى مدينة باجه ، وقد حكمها بنو عباد ثم خضعت للمرابطين والموحدين حتى سقطت سنة ٦٤٠ هـ [صفة جزيرة الأندلس : ١٠٦ المغرب ١ : ٣٨١]

فلما قاربتُ الإشراف[٦] عليها ، وقد أبرحَ الشَّوقُ إليها ، لقيتُ وقد انتصفَ النَّهار ، شيخاً فى أطمار ، على حمار ، وهو يسيرُ الهوينى ، ويقدِّمُ يديه ، أمام عينيه ، ليوهمَ أنَّه أبو العينا ، فقلتُ فى نفسى : بقيَّة عينٍ تحيلُ على آثارِهم ،

* شـيمُ الزَّمانِ عـداوةُ الأحـرارِ[٧] *

فلَّما ولاَّنى قفاه ، رفعتُ عقيرتى مُنشِداً ، كأنى أُريدُ سواه :

دارَ الزَّمـانُ مخاتِـلاً فى كُـلِّ حـالْ
مُذْراحَ هذا الدَّهرُ أشعـثَ ذا مُحـال
لا بـدَّ يرتـادُ الحقيقـةَ بالخيـالْ

فقال : إنِّى عرَّضت ، أم لبيانى تعرّضت ؟! فقلتُ : يرحمك اللَّه ، نفسى عَنيت ، وحنيناً إلى أوَّليَّةِ حالى غنَّيت ، فعطفَ بجَنان ، وحيَّا بلَبان ، وقال : يا ابنَ الكِرامِ أرى عليك أثرة السَّرو ، أمِن بلْخٍ أم مرو[٨] ؟ فقلتُ : أجلْ ، من أحدهما ، فقال : نسيبٌ أو خليل ؟ أو فراسةُ المؤمنِ لا تخيل ؟ أُنشدُكَ اللَّهَ والرَّحِم ، ألا ما قصصتَ على عَمِّك ، أُفرِّجْ عن غمِّك ، وأُوصلك إلى أقصى هَمِّك ؟ قلتُ : أهلُ هذا القُطر[٩] ! فقال : أصرَعهم الخذلان ، وتملَّكهم الحِرمان ، حتَّى كانَ من أمرِهم ما كان ، فرعاهم ابنُ كيلة سهلاً وحَزْناً ، وأبادَهم كَيْلاً[١٠] ووزْناً ، ﴿ وإذا أرادَ اللَّهُ بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له [٣٢/أ] وما لهم من دونِه مِن وال ﴾[١١] .

قلتُ : غيرَ هذا أُريد !

فقال : سقطتَ على الخبير ، فسلْ عن الصَّغيرِ منهم والكبير .

---

(٦) بالأصل : الإسراف ؛ تصحيف .
(٨) بلخ ومرو مدينتان من أشهر مدن خراسان (معجم البلدان ٣ : ١١٢)
(٩) يعنى أهل شلب .
(١٠) فى الأصل : كملاً ؛ تصحيف .
(١١) الرعد : ١١

قلتُ : قاضيها ابنُ أبي حبيبٍ[١٢] ؟

فقال : آلٌ[١٣] وحلال ، ومالٌ وجمال ، رأسَ فقاد ، وتَعلّم فساد ، وأرضى الآباءَ والأجداد ، مع أنّه جمع الرِّوايةَ مع الدِّراية ، ولم يعدم الرِّضا بعين النهاية ، غيرَ أنّه ظاهِريُّ النِّحلة ، قد اطَّرحَ الرِّحلة ، وأقامَ بأرضهِ مقامَ أبي الطيِّبِ بأرضِ نخلة[١٤] يُزيِّفُ الأقوال ، ويُنشدُ إثرَ كُلِّ مقال :

ألم تــر أنّــي ظاهِــريٌّ وأنّــني　　　علـى ما بدا حتّى يقومَ دليـلُ[١٥]

وعلى حالهِ ، فوا أسفاً عليه ، وواهاً لدهرٍ أساقَ الحقوقَ إليه ؛

فإنْ تنجُ منها تنجُ مِن ذي عظيمـةٍ　　　وإلاَّ فإنِّي لا إخـالك ناجيـا[١٦]

قلتُ : فأخــوه ؟!

قـال : رياش[١٧] رائق ، وريشٌ خافق ، سعيٌ مُضِلّ ، وظِلّ لا يُظِلُّ !

---

(١٢) هو عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أبي حبيب ، من أهل شلب ؛ وقاضيها ، يكنى أبا محمد . كان من أهل العلم والدين والخير والزهد ، وامتحن بالأمراء في قضاء بلده لإقامته الحق ، وإظهار العدل حتى أدى ذلك إلى اعتقاله ثم سُرِّح فرحل حاجاً إلى المشرق ، ودخل العراق وخراسان ، وأقام بها أعواماً ، وطار ذكره في هذه البلاد ، وتوفي بهراة سنة ٥٤٨ أو سنة ٥٥١ هـ ، ومولده بشلب سنة ٤٨٤ هـ ولبيته نباهة ووجاهة وثروة . (التكملة ترجمة رقم ٢٠٣١ ص ٨٣٤ ، الخريدة ١ : ٣٩٣).

(١٣) في الأصل : إلى ؛ تصحيف .

(١٤) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبي (ديوانه ٢ : ٤٤)

ما مقامي بأرض نخـــلة إلاّ　　　كمقام المسـيح بين اليهـودِ

(١٥) البيت لأبي محمد بن حزم (الذخيرة ١/١ : ١٧٥ ، المغرب ١ : ٣٥٦) وروايته في المغرب : « على ما أرى ..... » .

(١٦) البيت للأسود بن سريع (البيان والتبيين ١٩٢)
وفي الأصل : تنج في الموضعين ، و (ناجيا) : تصحيف .

(١٧) في الأصل : ريس

قلتُ : فأصهـارُه بنو فنْدِلة[18] ؟

فقال : عبءٌ من أعبائهِ ، وقذاةٌ فى مائهِ ، لا يُحسنون صُنْعاً ، ولا يملكون دَفْعاً .

قلتُ : لا إلهَ إلاَّ اللّه ، أحاسِدٌ أم واجِد ؟ فما هذا الصِّيتُ المسموع ، والشَّرَفُ المرفوع ؟! فأنشد :[19]

رأيتُ الغنى فى أهلهِ يُوردُ الفتى   بغيرِ لسانٍ ناطقاً بلسانِ

قلتُ : فما تقول فى أبى القاسم بن الطَّلاع[20] ؟

فقال : رجلٌ سمعَ فعلم ، وسكتَ فسلِم ، وخافَ مهانة الرِّجال ، وأنشد :

ولستُ بسائلِ الأعراب شيئاً   حمدتُ اللّهَ إذْ لم يأكلونى

قلتُ : فما تقول فى أبى محمد بن حُبَىّ ؟!

فقال : رجلٌ جمعَ ذهبَه ، فحرَّك ذَنَبَه !

قلتُ : فكيف هو فى جيرانِه ؟

فقال : بغيضٌ مقيت ، وحجرٌ كبريت ، إن صادفَ شراراً ، أضرَمَها ناراً !

* وموقدُ النَّارِ لا ينجو من الشَّررِ *

---

(١٨) بنو فَنْدلة : أسرة مشهورة بشلب ، وأصلهم من مارتلة ، ومنهم علماء مبرزون على شاكلة أبى بكر بن فندلة (التكملة ص ٦٩٥ ت ١٧٤٨) .
وأبو القاسم محمد بن عبيد الله بن محمد بن فندلة (الذيل والتكملة ٥/٢ : ٥٢٦)

(١٩) ورد البيت فى (البيان والتبيين ١٣٠) منسوباً لأعرابى من باهلة . وروايته :

كأنَّ الغنى فى أهله يورك الغنى   بغير لسانٍ ناطق بلسانِ

(٢٠) كذا بالأصل ، ولعل المراد (أبو الحسين بن الطلاَّء) وهو عبد الملك بن محمد بن هشام بن سعد القيسى ، شلبى ، كان محدثاً متسع الرواية ، عارفاً بالفقه وأصوله وعلم الكلام ، وشورور ببلده ، وخطب به ، واختلف إليه العلماء من شتى بقاع الأندلس للأخذ عنه ، وتوفى سنة ٥٥١ هـ .
[الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٢ – التكملة رقم ١٧١٥ ، معجم الصدفى ٢٥١ ، بغية الملتمس ١٠٥٥] أمَّا بعد الطَّلاع فهو من أهل قرطبة ، وزعيم المفتين بها (الصلة : ٥٦٤ ت ١٢٣٩]

قلتُ : فما تقولُ فى أبى القاسم بن جسَّاس[٢١] ؟

فقال : ما به مِن باس ، قد سالم النَّاس فسلِم من النَّاس ، فليس فى العيرِ يوم يحدون بالعير ، ولا فى [**٣٢/ب**] النَّفيرِ يومَ النَّفير[٢٢] !

قلتُ : فما تقولُ فى أبى بكر بن سعيد[٢٣] ؟!

فقال : قلَّت النُّوبُ شَباه ، وكفَّ الجَزَعُ أذاه ، حتَّى عادَ عيراً[٢٤] مركوباً ، وريداً مضروباً .

(٢٥)

* **وما المرءُ إلاّ حيثُ يجعلُ نفسَهُ** *

قلتُ : فما تقولُ فى أبى بكرٍ الخولانى[٢٦] ؟

فقال : واصل رواحَه وابتكارَه ، حتَّى حطَّ بباجَّة[٢٧] أوزارَه ، وقضى من تهامة[٢٨] أوطارَه ، وأنشد[٢٩] :

---

(٢١) لم أعثر له على ترجمة .

(٢٢) من الأمثال : لا فى العير ولا فى النفير ، وقد سبق .

(٢٣) هو محمد بن إبراهيم بن سعيد العامرى ، يكنى أبا بكر ، من أهل شلب ، كان واسع الأدب ، مشهوراً بمعرفته ، وتولى الخطبة ببلده مدة طويلة ، وتوفى سنة ٥٣٢ هـ

(الصلة : ٥٨٢ ت ١٢٨١)

(٢٤) فى الأصل : عيراً ؛ تصحيف .

(٢٥) صدر بيت لمعقر بن فروة المنقرى ، وعجزه : فعى صالح الأعمال نفسك فاجعل * (البيان والتبيين ٤٩٨)

(٢٦) ذكره الضبى فى (البغية : ٥١٧ - ٥١٨ ت ١٥١٥) فقال : « أبو بكر الخولانى الباجى ، من أهل باجة ، سكن إشبيلية ، من الشعراء المشهورين » ، وفى (الخريدة ٢ : ٥٨٤) : أبو بكر الخولانى المنجم (؟) وقال : إنه منجِّم المعتمد بن عبَّاد ، كما ذكره ابن بسَّام واعتمد عليه فى رواية بعض الأخبار وأورد كتابين لابن الحداد وابن القزاز فى مخاطبته [الذخيرة ١/١ ٧٩٧ - ٨٠٢ - ٨٠٤]

(٢٧) باجَة : من أقدم مدن الأندلس ، بنيت فى أيام الأقاصرة ، وبينها وبين قرطبة مائة فرسخ ، ومنها أبو الوليد الباجىّ (سليمان بن خلف) [صفة جزيرة الأندلس : ٣٦]

(٢٨) تهامة: أرض واسعة بالجزيرة العربية (معجم البلدان ١ ، ٦٣)

(٢٩) ورد هذا البيت فى أمالى القالى (١ : ٢٨) ثانى أربعة أبيات منسوبا للعلاء بن حذيفة الغنوى ، وقبله :

يقولون من هذا الغريبُ بأرضنا   أما والهدايا إننى لغريبُ

غريبٌ دعاه الشّوقُ واقتاده الهوى كما قيل عود بالزّمامِ أديبُ

قلتُ : فما تقولُ فى الوزير أبى القاسم بن الملح[٣٠] ؟

فقال : شاعِرُ قُطْرِه ، وحِجا عصرِه !

قلتُ : فأخوهُ عبد الملك[٣١] ؟

فقال : خبيثٌ مخبث ، إنْ حلفَ نكر وحَنَث ، أو عاهدَ مكرَ ونكث ، وأُقسمُ إنَّه ليحقدُ على أخيه ، ولا يصغى لأبيه !

قلتُ : فما تقولُ فى أبى عبد الملك بن الملاَّح[٣٢] ؟

قال : صَلَفٌ بادٍ ، ونوْك[٣٣] متمادٍ !

قلتُ : فأبو بكرٍ بن عَمِّــه[٣٤] ؟!

قال : صبيحٌ فصيح ، إنْ نطقَ فليطلع ، وإن اَخرنبق[٣٥] فليُبع !

له حقّ وليس عليه حــقٌ ومهما قـالَ فالحَسَنُ الجميــل[٣٦]

قلتُ : فأبو الحسن أخوه ؟

قال : تنفَّس وأنَّ ، وذكرَ فحنّ ، وكثيراً ما تلقاهُ يثنى عطفيه ، ويصفِّقُ بكفَّيه ، ويقول : كان وكان ، ورحمَ الله الزّمان ، وما النّاسُ الآن !

---

(٣٠) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن الملح ، والده أبو بكر بن الملح أحد ندماء المعتضد بن عبَّاد ثم تزهد وصار خطيب شلب ، وقد ذكرهما ابن سعيد فى (رايات المبرزين : ٩١) فى أعيان المائة السادسة ، كما ترجم لهما ابن سعيد فى (المغرب ١ : ٣٨٤) وقال عن أبى القاسم : « نشأ على عفة وطهارة وزهد ، فكان أبوه يلومه على إفراطه فى الزهد والاقتصار على كتب المتصوفين ، ويحضه على الأدب ، إلى أن اشتهر فى الانخلاع ، وفرَّ إلى إشبيلية ... » وترجم له ابن الأبار وقال عنه إنه « كان أديباً شاعراً » التكملة (١ : ٥١)

(٣١) هو عبد الملك بن محمد بن الملح ، له ترجمة فى التكملة رقم ١٧٠٥ ، الذيل والتكملة (٥ : ٣٢) .

(٣٢) يعرفون ببنى الملح أو الملاَّح (الذخيرة ٢/١ : ٤٥٢ (ح) .

(٣٣) النَّوْك : الحمق .

(٣٤) أنظر فى بنى الملاح ، [الذخيرة ٢] : ٤٥٢ ، المغرب ١ : ٣٨٣ – ٣٨٤ ، القلائد : ١٨٧ ، رايات المبرزين : ٩١ ، الذيل والتكملة ٥ : ٣٢]

(٣٥) كذا بالأصل .

(٣٦) البيت لمحمد بن حمزة السلمى فى الحسن بن زيد بن الحسن بن على (جوهر الكنز : ٣٠٥) برواية : « فمهما ... »

قلتُ : فأبو الحسن بن حبيب[٣٧] ؟

فقال : رجلٌ سَعِدَ بأيره ، ورقصَ بكمّى غيره ، وقد قال ﷺ « من سعادةِ المرء خِفَّةُ عارضيْه[٣٨] » .

قلتُ : فما تقولُ فى أبى الحسن بن شبطيل[٣٩] ؟

فقال : أأنصِفُ أم أتعسف ؟ فقلتُ : بل أنصِف !

فقال : عَشِقَ المدادَ لسوادِه ، فكانَ سببَ مُطالعتِه واجتهادِه ، فليس بقصير اللّسان ، ولا منقوصِ البيان ، وأنشد :

أحبُّ لحِبِّهـا السـودانَ حتَّى ... أحـبَّ لحبّها سـودَ الكِـلابِ[٤٠]

فقلتُ ، أنصفتَ [.......][٤١] فصديقهُ أبو مهدى بن الشرشالة[٤٢] ، فأنشد : [٣٣/أ]

إذا ما اجتمعـا فى مجلـسٍ ... دعـوتُ لـه اللّه أن يسـكتا[٤٣]

قلتُ : فما تقولُ فى ابن حفصون[٤٤] ؟

قال : ضرسٌ أَكَلَةٌ ، ونَفْسٌ وَكِلة ، وأنشد :

إذا كنتُ فى رَغْدٍ من العيشِ لم أبلْ ... على أىِّ وجهٍ عارضتنى النوائِبُ

---

(٣٧) بنو حبيب : من أعيان شلب ، ومنهم قاضيها ابن أبى حبيب الذى سبق التعريف به ، ومنهم أبو الوليد بن أبى حبيب (المغرب ١ : ٣٨٣) ومنهم أيضاً ابن أبى حبيب الوشاح (المغرب ١ : ٣٨٧)

(٣٨) ورد هذا الحديث فى (اللسان — عرض) ، وعارضة الإنسان : صفحتا خدَّيه ، وقولهم : فلان خفيف العارضين يراد به خفة شعر عارضيه ، وخفّتهما كناية عن كثرة الذكر لله تعالى وحركتهما به .

(٣٩) (؟)

(٤٠) ورد هذا البيت فى عيون الأخبار (٤ : ٤٤) بدون نسبة .

(٤١) مطموسة بمقدار كلمتين أو ثلاث .

(٤٢) (؟)

(٤٣) كذا فى الأصل ، وهو مختل عروضيا ، والأقرب إلى الوزن :

إذا ما تكلّم فى مجلسٍ ... دعوتُ له الله أن يسكتا

(٤٤) ابن حفصون (؟)

قلتُ : فما تقولُ فى بنى المنذر ؟ فمطَّ حاجبيه ، ونفضَ يديه ، وأنشد(٤٥) :

ويهلكُ وسطَها المرئُّ لغـواً كما ألغيتَ فى الدِّيـةِ الحُـوارا

قلتُ : فأبو الوليد منهم ؟!

فقال : أخٍ بخٍ إنَّ فيما سمَّعتَ(٤٦) به على أخيك ، ما يكفيك !

قلتُ : فما تقولُ فى أبى القاسم بن زكريا؟! فتنهَّد(٤٧) وأنشد :

ذهبَ الجودُ والجنيدُ جميعـاً فعلى الجودِ والجنيدِ السَّلامُ(٤٨)

فقلتُ : يرحمكَ اللَّهُ أبا القاسم !

[و] قلتُ : فما تقولُ فى ابن عمِّه أبى بكر ؟

فقال : أكَلَ زرعِ الغَضَا فريكا(٤٩) ، فآلَ به التقشُّفُ والإلحاح ، إلى الإراحةِ والاطِّراح ، * **كذاك من لا يسوسُ المُلكَ يخلعُهُ**(٥٠) *

قلتُ : فما تقولُ فى صاحبِ الأحكام ابن سوار ؟(٥١) ؟

---

(٤٥) هذا البيت له قصة طريفة ؛ فقد عمله جرير وأعطاه لذى الرُّمة ليهجو به هشام بن قيس المرئى — أحد بنى امرىء القيس بن زيد مناة — وحدث أن لقى الفرزدق ذا الرمة ، فقال : أنشدنى شعرك فى المرئى ، فأنشده ، فلما بلغ هذا البيت قال له الفرزدق : أعدْ علىّ ، فأعاد ، فقال : لاكها والله من هو أشد فكّين منك (اللسان : لغا — قراضة الذهب ٦٨ — العمدة ٢ : ٢٦٨) وشاة لغو : لا يعتد بها فى المعاملة .

(٤٦) فى الأصل : إنَّ فيما دون سمعت به .... وهو قلق ، ولعل الصواب ما أثبتناه وسمَّع به : شهرَّ وفضح ، والتسميع : التشهير .

(٤٧) فى الأصل : قال فتنهد ، وقد أسقطنا [قال] لأنها حشو وفى غير موضعها

(٤٨) البيت لأبى الجويرية العبدى وبعده :

أصبحا ثاويـين فى بـطن مـروٍ ما تغنّت عـلى الغصـونِ الحمـامُ

(أمالى القالى ١ : ١٠٤ ، أمالى المرتضى ٤ : ٩)

(٤٩) يقال أفرك السُّنبل : صار فريكا ، وهو حين يصلح أن يفرك فيؤكل .

(٥٠)

(٥١) لم أعثر إلا على ترجمة لشخصين يحملان هذا اللقب ولكنهما من قرطُبة ؛ أحدهما أحمد بن محمد ابن سوار ، استقضى بقرطبة وقتاً ، والآخر عبد الرحمن بن سوار قاضى الجماعة بقرطبة (الصلة ١ : ٣٢٣)

وهناك أيضاً الشاعر أبو بكر بن سوار ، وله مرثية فى يوسف بن تاشفين (عصر المرابطين والموحدين ، عنان ١ : ٥٤)

فقال : يغصّ بأهل المجلس ، ويكره خصومة المفلس !

قلتُ : فما قولُه فى الحال ؟!

فقال يُظهِرُ الجُرْحَ[٥٢] ، ويدعو إلى اللّهِ ألا فرح !

قلتُ : فما تقولُ فى أبى محمد بن بدرون[٥٣] ؟

قال : هو حفيدُ بن مكنون ، دعى الانتساب ، فأنكره سام ، وأثبتَ نسبَه فى حام ؟!

قلتُ : فما تقولُ فى فقيهِ شُوراها ، وعَاطِفِ أولاها على أُخراها ، أبى الحسين بن نهبك[٥٤] ؟

فأطبقَ أذنيه ، والتفت حواليه ، وأنشد[٥٥] :

خفِّضِ الصــوتَ إن نطقــتَ بليـلٍ   وتلفَّتْ بالنهـارِ قبـلَ الـكلامِ

فقلتُ : عهدَ اللّهِ لتقولنَّ !

فقال : سبحانَ اللّه ، ما رأيتُ كاليومِ معضلة ، أخافُه إنْ صدقتَ ، وأخافُ اللّهَ إنْ كذبت ، فعذرتُه ، واستكتمَته مااستخبرتُه .

قلتُ : فما تقولُ فى أبى الحسين بن اللّبلى[٥٦] ؟

قال : حنّ قَدْحٌ ليس منها[٥٧] !

قلتُ : على ما به ؟!

قال : أسألُكَ الإعفاء ، ولقائـلٍ أن يقولَ ما يشاء :

---

(٥٢) فى الأصل : الحرج ؛ تصحيف .

(٥٣) هو عبد الله بن بدرون الحضرمى الشلبى ، وهو والد عبد الملك بن بدرون الحضرمى الكاتب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون فى رثاء المتوكل وتوفى ابن بدرون (الإبن) بشلب فى سنة ٦٠٨ هـ .

(٥٤) هو عبد الملك بن أحمد بن سعيد بن نهبك ، الزهرى ، الشلبى ، كان محدثاً راوية ، وكان حياً حتى سنة ٥٨٠ هـ (الذيل والتكملة ٥/١ : ص ٩)

(٥٥) ورد هذا البيت فى البيان والتبيين ١٤٥ بدون نسبة) برواية : « إخفض .. والتفت)

(٥٦) هو محمد بن خلف بن صاعد الغسانى ، ويُعرف بأبى الحسين اللَبلى ، من أهل شلب ، روى عن ابن شبرين ، وابن النحاس ، وابن عتاب ، وابن رشد وغيرهم ، وولى قضاء « شلب » وتوفى سنة ٥٤٧ هـ [معجم الصدفى ١٦٥ ، التكملة لابن الأبار ــ ت ١٣١٤]

(٥٧) مثل يضرب للرجل يتمدّح بما ليس فيه (الميدانى ١ : ٢٠٠) وقد سبق

* فظنَّ خيراً ولا تسأَلْ عن الخبرِ *(٥٨)

[٣٣/ب] قُلت : إيهٍ بالله ، فعبدُ الله بن عائشة(٥٩) ؟!

فقال : خِلْقةُ الشَّيطانِ ، وعقلُ الصبيانِ ، وهو بالجملة منتهى عار ، ومقرُّ شَنَار(٦٠) ، وقد أحلتُك فيه على بيت ابن عمّار(٦١) :

قِصارُ القدودِ ولكنَّهم   أقاموا عليها قروناً طوالا

قلتُ : فما تقولُ فى أبى القاسم بن درامة(٦٢) ؟!

فقال : تلوّن تلوُّن الحِرْباء ، وركَض حتى كبا ، فتفرَّقتْ مذاهبُه أيادىَ سبا(٦٣) ، فهو يُرى كما ترى ، فقيهاً مرَّةً ، وطبيباً أُخرى :

فلا مع السُّوقةِ فى سوقِهم   ولا مع الأجنادِ فى العَسْكَرِ

قلتُ : فما تقولُ فى القُرَشىّ الأستاذ(٦٤) ؟

قال : وما عسى أن أقول فيه ؟ هو فلذةُ حَسَب ، وذماء أدب !

---

(٥٨) عجز بيت ، وصدره :

* قد كان ما كان مِمَّا لست أذكرُهُ *

(٥٩) المشهور بهذا الاسم هو عبد الله محمد بن عائشة البلنسى ، كان صديقاً لابن حفاجة الشاعر ، ولم أجد فى تراجم أهل شلب من يحمل هذا الاسم .

(٦٠) الشنار : العيب والعار .

(٦١) ابن عمار : هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمَّار ، صحب المعتمد بن عبَّاد ووزر له إلى أن داخله العُجْبُ ، وسمت به نفسه إلى محاذبة رداء المُلك ، فوثب على مرسية ، وانفرد بها لنفسه ، وهجا المعتمد وروجه الرُّميكية بقصيدة ذائعة الصيت ، منها هذا البيت ، وقتل ابن عمار سنة ٤٧٧ هـ ، وله ديوان مطبوع .

[المعرب ١ : ٣٨٩ ــ الذخيرة ٢/١ : ٣٦٨ - ٤٣٣ ــ القلائد : ٨٣ ، البغية رقم ٢٢٧ - المعرب : ١٦٩ ــ المعجب : ٧٧ ــ الحلة السيراء ٢ : ١٣١]

(٦٢) ذكره ابن خير فى فهرسه ص ٤١٨ ووصفه بـ « الشيخ الأديب الموثق أبى القاسم محمد بن أبى درامة الشلبى » وذكر أنه جمع كتاباً فى المراثى وأنه روى عن ابن خير وقرأ عليه بشلب .

(٦٣) من المثل : تفرقوا أيدى سبأ

(٦٤) هو الشيخ الأديب الخطيب أبو بكر محمد بن إبراهيم بن غالب القرشى العامرى . ذكره ابن خير فى فهرسه وأشار إلى أنه أجاز له بخط يده من شلب . (فهرسة ابن خير ٣٢١)

قلتُ : فهل أنجب فيمن أعقب ؟

قال : خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشّهوات ، فسوف يلقون غيّاً

قلتُ : فما حالتهُ فى خطابتِهِ إذا اسحنفر ، وركب المنبر ؟ فأنشد(٦٥) :

ملءٍ ببهرٍ والتفاتٍ وسَعْلةٍ(٦٦)   ومسحيةٍ عثنونٍ وفَتْلٍ أصابع

قلتُ : فما تقولُ فى المشرفِ بن قسيٍّ(٦٧) ؟

فقال : درهمُ فنسى ، وشيطانٌ يترجمُ عنه أُنسى !

قلتُ : فكيف نظرُهُ فى الرُّعية ؟!

فقال : لا يقسم بالسويَّة ، ولايعدل فى القضية ، ومن استرعى الذئب ظَلَم(٦٨) .

قلتُ : للّهِ دَرّكَ(٦٩) ، لا فُضَّ فوك ، ولا مَلَّكَ مضيفوك ، فما أرقَّ أخبارَك ، وأصدقَ إخبارَك ، أُقسِمُ لو تحققتُ بعد الطيَّة ، لوهبتُكَ المطيَّة ، فلمَّا زجرَ حمارَه ، وقع فى نفسى أن أقفوَ آثارَه ،

فناديته : نشدتُكَ اللّهُ ـــ كيف تركتَ حانوتَ أبى عبد اللّهِ بن الهرَّة ؟

فقال : مهبَّةٌ للنُّبلاء ، ومسبَّةٌ للفضلاء ،

قلتُ : فما هذه القصائد الطارئة ، والفوائدُ الناشئة ؟

فقال : زِيدَ فيها زوائد ، والنَّاس بعدَك صنفانِ : مثنٍ وحاسدٍ ، وكلاهما هذيانٌ زادَ القرائحَ فساداً ، وسوقَ الشّعرِ كساداً ، فوهبتُه نَزْراً ، وسألتهُ عذراً ، فأنشد : [٣٤/أ]

(٦٥) ورد البيت فى البيان والتبيين ١٧ بدون نسبة .

(٦٦) فى الأصل : وسلعة ؛ تحريف .

(٦٧) المشرف بن قسى : أحد المتثزين بشلب ، وفى ترجمة ابن الطلاء أنه استقضى بحصن مرجيق فى فتنة ابن قسى (الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٢)

(٦٨) مثل يضرب لمن يولى غير الأمين ، وله خبر فى (الميدانى ٢ : ٢٥٧ - ٢٥٨)

(٦٩) مثل يقال لكل متعجب منه (الميدانى ٢ . ١٤٠)

رقَّ الصديقُ لِما رأى من اختلالى   باللَّيالى فى التلبُّثِ ثَمّ بالِ[٧٠]
أودتْ بمالى ثم قد حالتْ بحالى   فلذاك مازجِتُ[٧١] الحقيقة بالمحالِ

ثم اضطربَ ، فغرب ، فكان آخرَ العهدِ به .

(٧٠) كذا بالأصل وهو قلق عروضياً .
(٧١) فى الأصل : ما اردتُ ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

[٣٣]

كتبَ الوزيرُ الكاتبُ أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهريّ ثم اليابريّ(١) ــ رحمه الله ــ إلى الوزيرِ الفقيهِ الأجلّ الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال(٢) ــ رحمهما الله :

أنا مع عمادى الأعظم ــ أطال اللَّهُ علوَّه ــ كغريبٍ طواه الجهْدُ ، فآواه من تهامةَ وَهْدٌ(٣) وماله بريحِها العقيم ، ولا بحرِها المقعدِ المُقيم عَهْدٌ ، فَرَقَصتْ به(٤) من سرابِها المُغرِق(٥) ، وشرابها المُحرِق ، فى حَمَّام ، فأشرفَ من ذلك الجحيم ، وضرَمِه ، لولا تنفُّسُ(٦) الرحيمِ ، عنه بكرمِه ، على الحِمَام ، فوأَلَ(٧) إلى ربوةٍ من رُباها ، وسأَلَ جبالَ فاران(٨) عن مهبِّ صِباها ، ليلقطَ(٩) من

---

(١) هو عبد المجيد بن عبد الله بن عبد ربّه الفهرى اليابرى ، من أهل يابرة ، يكنى أبا محمد ، كان أديباً مقدَّماً ، شاعراً ، عالماً بالخبر والأثر ومعانى الحديث ، استوزره بنو الأفطس أصحاب بطليوس وله قصيدة مشهورة فى رثاء دولتهم بعد سقوطها ، تدعى البسَّامة ، ومطلعها :

الدّهرُ يفجعُ بعد العينِ بالأثرِ فما البكاء على الأشباح والصُّوَرِ ؟

كما خدم ابن عبدون فى دولة المرابطين ، وكانت وفاته سنة ٥٢٩ هـ .

[الصلة ٣٨٨ ، المغرب ١ : ٣٧٤ ، القلائد ١٤٥ ، الذخيرة ٢/٢ : ٦٦٨ ، الرايات : ٣٢ المعجب : ١٢٨ ، ٢٢٨ ، التكملة ٢٠٧ ، المطرب : ١٢٧ ، الخريدة ٢ : ١٠٣)

وقد وردت رسالة ابن عبدون فى المعجب . ٢٣٢ - ٢٣٤ ، وقال فى تقديمها : « ومن رسائله الإخوانيات رسالة كتب بها إلى أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال يخطب مودته ، ويستدعى من إخائه جدته » كما وردت رسالة ابن عبدون فى ترسل ابن أبى الخصال ، وسأقابل عليه مشيراً له حرف (ت) ، كما سأقابل على (المعجب) .

(٢) سبق التعريف به

(٣) الوهد : المكان المنخفض ؛ وتهامة : أرض بالجزيرة العربية .

(٤) رقص البعير : أسرع فى سيره ، والرقص : الخبب .

(٥) فى الأصل : المغرق .

(٦) فى ت : تنفيس ، وكذلك فى المعجب أيضاً .

(٧) وأل : بادر وخلص .

(٨) فاران : من أسماء مكة المكرمة ، وهى كلمة معربة (معجم البلدان ٤ : ٢٢٥)

(٩) فى ت : يلتقط ، وكذلك فى المعجب .

أنفاسِها بوساطةِ نجد ، بَرْدَاً يُهديه إلى حرِّ الوجد ، فحيَّته ببليل[10] ، من نسيمِها العليل ، فأحيته [بعد التعليل][11] وأنا ما قصدتُ فيما خطبتُ[12] به إليك لآخذَ عليك بفضلِ الابتداء ، وإنّما سلكتُ[13] سبيلَ الاقتداء ، واتَّبعْتُ دليلَ الاهتداء ، وأردتُ أن أستنيرَ بأضوائِك ، وأستثيرَ من سمائِك ، نجوماً تهدينى فى غَسَقِ الظَّلام ، أو رجوماً تُعدينى على مُسْتَرِق سَمْع الكلام[14] ، فإن سمَحَ عمادى بالجوابِ وَرَجْعِهِ ، غالطتُ فيما[15] حَصَلَ منه لدىّ ، ووصل إلىَّ : الحمامَ فى سَجْعِهِ ، والأنصارَ فى حَسَّانِها[16] ، والإعصارَ فى نيسانِها[17] ، وطيِّئاً فى وليدِها وحبيبِها[18] ، وسَعْداً فى خالِدها وشَبيبِها[19] ، وخرقتُ بما أعار مِن مَرَاحٍ ، وأثارَ مِن ارتياحٍ ، جيبَ مُخَارِقٍ طَرَباً[20] ، ولم أدعْ لأبى العتاهية[21] فى ثقيلِهِ المُغْرِب ، ولا فى خفيفِهِ المُطرِب[22] ، أرباً ، وطويتُ كَشْحاً عن أغاريدِ عبيدٍ[23] ، وأضربْتُ صَفْحاً

(١٠) فى الأصل : فجبته بدليل ، وما أثبتناه عن (ت) ، والبليل : الريح البارد مع مطر .

(١١) زيادة من المعجب .

(١٢) فى الأصل : حطبت ؛ تصحيف ، وفى (ت) : خاطبت .

(١٣) فى ت : قصدت .

(١٤) فى القرآن الكريم : « وحفظناها من كُلِّ شيطان رجيم . إلاَّ مَن استرَق السَّمع فأتبعه شهابٌ مُبين » .

(١٥) فى المعجب : غالبتُ بما .

(١٦) هو حسَّان بن ثابت الأنصارى .

(١٧) من المعروف أن العواصف تكثر وتشتد فى نيسان (إبريل) .

(١٨) وليدها : هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله (البحترى) ٢٠٥ هـ ٢٨٤ هـ وهو طائى ، وحبيبها : هو حبيب بن أوس (أبو تمام) ت ٢٣٠ أو ٢٣١ هـ وهو طائى أيضاً .

(١٩) السعود فى قبائل العرب كثيرة ، مثل سعد بن زيد مناة وسعد بن قيس عيلان ... إلخ ، ولعلّ المراد بنى سعد هنا : بنو سعد بن مرّة بن ذهل (جمهرة ابن حزم : ٣٢٦) ، ولعله يشير بـ « خالدها » إلى خالد بن يزيد الشيبانى — وهو أحد ممدوحى أبى تمام وكان قائداً مشهوراً ، ولعله يشير بـ « شبيبها » الى شبيب بن يزيد بن نعيم أحد زعماء الخوارج .

(٢٠) هو أبو المهنّأ بن يحيى الجزار الملقَّب بـ (مخارق) المغنى المشهور ، توفى سنة ٢٣١ هـ (الأغانى ١٨ : ٢٥٣)

(٢١) هو إسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) أبرز شعراء الزهد فى العصر العباسى (١٣٠ - ٢١١ هـ)

(٢٢) الثقيل والخفيف : من مصطلحات الغناء والموسيقى ، وكان شعر أبى العتاهية ممَّا يُغنى به لخفة أوزانه وسهولته ، وفى المعجب « ولم أدع لأبى العتاهية فى المغرب وخفيفه أربا »

(٢٣) هو عبيد بن الأبرص الأسدى ، كان جاهلياً قديماً من المعمّرين ، وقتله المنذر بن امرىء القيس

عن أناشيدِ لبيد[٢٤] ، وطالبتُ بُلَغَاءَ العَصْر ، بالمثلِ المضروبِ فى جَمَلِ مصر[٢٥] ، وقلتُ لهم : هذه القارةُ فرامُوها[٢٦] ، وأنصفوا ، وهذه الغايةُ ، فروموها ، أو نصّفوا ، وإنْ كانت تُوَمُهُ[٢٧] البواهِرُ ما انحلّت فى دُرْجى[٢٨] ، ونجومهِ الزّواهِر ما حلّتْ فى بُرْجِى[٢٩] ، وإنَّ كفّى مِن جَنى ثمارِهِ لصِفْرٌ ، وإنَّ طَرْفى من سنا أقمارِهِ[٣٠] لقفْرٌ ، وإنى من ضنّه[٣١] علىَّ بُدرَّةٍ من بحرِه ، أو نفثةٍ من سِحْرِهِ ؛ لبين ظنّيْن ، لم أحصلْ من تحقيقهما معهُ على أثرٍ ولا عَيْن : أحدُهُما : [أننى][٣٢] قُلت إنَّه أجرى اسمى على خَلَدِه ، فلم يجدْنى مِن أندادِه[٣٣] ولا مِن بَلَدِه[٣٤] ، فقال : وما أنا وفُلان ؟ وهل هو إلاَّ مِن الغَرْب ، وإنِ كان بزعمِهِ[٣٥] فى الصَّميمِ من العُرْب . وهل الغَرْبُ فى الأقطارِ ، إلاَّ كاللاَّحقِ[٣٦] بينَ الأسطار ؟

والآخَرُ رُبَّما يقولُ مالا تقبلُهُ العقول ، إنى لأَنظرُ مِن فلان بأحدَّ مِن بَصَرِ الزَّرقاءِ[٣٧] ، إلى أجَلَّ مِن خَطَرِ العنقاء[٣٨] ، ويُنشدُ قولَ أبى العلاء بن

اللخمى وليس النعمان بن المنذر كما جاء فى (الشعر والشعراء : ٤٨) وقد أورد أبو الفرج ما غُنِّى به من شعره . (الأغانى ٢٣ : ٤٠٤)

(٢٤) هو لبيد بن ربيعة ، أحد شعراء المعلقات ، أدرك الإسلام وأسلم .

(٢٥) كذا بالأصل ، وفى (ت) ولم أقف على المراد من ذلك .

(٢٦) فى المثل : « قد أنصف القارة من راماها » والقارة : قبيلة ، وللمثل خبر فى الميدانى ٤٦/٢ - ٤٧) .

(٢٧) التُّوم : جمع (التومة) : وهو اللؤلؤ أو الحبَّة الكبيرة فى القرط .

(٢٨) فى ت : درجه

(٢٩) فى ت : برجه (٣٠) فى المعجب : أقمارها

(٣١) فى الأصل : ظنه ؛ تصحيف ، وفى المعجب : بضنه .

(٣٢) زيادة من (ت)

(٣٣) فى ت : فى أنداده وكذلك فى المعجب (٣٤) فى المعجب : ولا بلده

(٣٥) فى الأصل : برعمه ؛ تصحيف .

(٣٦) فى المعجب : إلا كاللّحق .

(٣٧) الزرقاء : هى زرقاء اليمامة ، ويضرب بها المثل فى حدّة البصر . فيقال : (أبصر من زرقاء اليمامة) الميدانى ١ : ١٢٠

(٣٨) العنقاء : طائر خرافى لا أصل له ، وقيل هى العقاب . (اللسان : عنق)

سليمان ، شاعر معرَّةِ النُّعمان[٣٩] :

أرى العنقاءَ تكبرُ أن تُصادا فعانِدْ من تُطيقُ له عِنادا

وأنا أُقسِمُ بالرَّبيع المُمطِرِ ، وائتلاف أوانِه ، والبقيعِ المُزهِرِ ، واختلافِ ألوانِه ، والشَّبابِ ودولتِهِ ، والمِضرابِ وصولتِهِ ، والمثانى إذا اتسقت[٤٠] ، والقَنَانى وماوسَقَتْ[٤١] ، وإن أقسمتُ من بعضِها بيمين ، لا أتلَقَّى رايتَها بشمالٍ ولا يمينٍ[٤٢] ؛ أنَّ أسمى فى البُلَغاءِ والفُهَماءِ ، كاسمِ العنقاءِ فى الأسماء ؛ اسمٌ ما وقع على مُسَمَّى ، ولفظٌ مادلَّ على معنى ، وأينَ أقَعُ مِمَّا تُريد[٤٣] وكتابى بين يدى حَمْدى أو عتابى بريد ، ينفض تهائِمَ ظنونى ، وينقضُ تمائِمَ جنونى[٤٤] ، وله الرَّأْىُ العالِى فى الجواب ، على خطإٍ كنتُ من ظَنِّى أو صواب ؛ إن شاءَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ .

ومِن سلامى ، على عمادى الأعظم وإمامى ، أحفلُهُ وأحفاه[٤٥] وأجزلُهُ وأوفاه[٤٦] ، والسَّلامُ الأتمُّ ، الأعمُّ ، عليه ، ورحمةُ اللّه [وبركاته][٤٧] .

---

(٣٩) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان ، أبو العلاء المعرى (٣٦٣ – ٤٤٩ هـ) والبيت من قصيدة طويلة له فى سقط الزند ٢ : ٥٥٣ .
وقد تمثل فى (ت) بصدر البيت دون عجزه ، وكذلك أيضاً فى المعجب .

(٤٠) فى المعجب : نُسقت

(٤١) القنانى : جمع (قنينة) : وهو وعاء يُتخذ من خيزرانٍ أو قضبان قد فصل داخله بحواجز بين مواضع الآنية على صيغة القشوة ، والقنِّينة (بالكسر والتشديد) : زجاجة يجعل الشراب فيها . (اللسان : قنن) ووسقت : جمعت ، وفى الأصل : سقت ، وما أثبتناه عن (ت)

(٤٢) ينظر إلى قول الشمَّاخ فى مدح عرابة الأوسى (ديوانه : ٣٣٦)

إذا ما رايـةٌ رُفِعـت لمجـد تلقَّـاهـا عَـرابـةُ باليمـين

(٤٣) فى (ت) : يريد

(٤٤) فى الأصل : جنونى ؛ تصحيف (٤٥) فى المعجب : وأحفله

(٤٦) فى الأصل : ووفاه ؛ تحريف ، وفى المعجب : وأوفده .

(٤٧) زيادة من المعجب .

[٣٤]

جوابُ* أبي عبد اللّه بن أبي الخِصال ـــ رحمه اللّه ـــ :

السَّيِّدُ الأوحد ، أتمَّ اللَّهُ بالسيادةِ ، ومُضَاعَفِ الزِّيادةِ صلاحَهُ وعلوَّه [٣٥/أ] ، وعمَّ بالسَّعادةِ والخيراتِ المُعادةِ رواحَه وغدوَّه ، فى فوتِهِ ، وبُعْدِ صَوْتِه ، الذى لا يُجحدُ كالطَّامحةِ السَّحوق(١) ، الجامحةِ عن اللُّحوق ، تطَّقت بأعلى الهِضاب ، وتمطَّقت(٢) بأحلى من الرُّضاب ، وابتسمت(٣) عن ظرفِ لَماها ، ثم اعتصمت بطَرْفِ حِماها ، وأقسمتْ بشرَفِ مُنتَماها(٤) ، لتُمرَّنَّ(٥) صاعدةً إلى الأفلاكِ فى علوائِها ، ولَتَجذَنَّ قاعِدةً على السِّماكِ عذبَ(٦) لوائِها ، ولتُكاثِرَنَّ السَّماءَ من قُنوانِها(٧). الأفوافِ(٨) ، وصنِوانِها الألفافِ(٩) ، بسواكبِ نِطافِ(١٠) ثَرَّة ، وكواكب قِطافٍ برَّة ، يودُّ مُسترِقُ

* ورد جواب ابن أبي الخصال فى ترسله (٦٣/أ - ٦٧ ب) وصُدِّر بقوله : « مراجعة ذى الوزارتين الأجلّ : أبي عبد الله ـــ رحمه الله ـــ » وسأقابله على ما ورد بنسخة الأصل ، مشيراً له برمز « ت » .

وقد أشار المراكشى فى المعجب ص ٢٣٤ إلى رسالة ابن أبي الخصال هذه وأثنى عليها وسمَّاها « الحوليّة » فقال عقب رسالة ابن عبدون المتقدمة : « فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يُكتب مثلها فى بابها ، أبدع فيها غاية الإبداع ، وإن كان فيها بعض تكلف ، وتسمى هذه الرسالة « الحولية » ، منعنى من إيرادها فى هذا المرسوم ما فيها من الطول » .

(١) يقال : طمح الفرس : اذا رفع يديه ، والسحوق : الفرس المرتفعة الطول

(٢) تمطقت : تذوّقت

(٣) فى ت : فابتسمت .

(٤) فى الأصل : منتهاها ، وما أثبتناه عن (ت).

(٥) فى ت : لتمدّنّ .

(٦) العدب : الطَرَق .

(٧) القُنوان : العذق

(٨) الأفواف : الثياب الموشاة .

(٩) الصنوان : مثنى صنو ، وهو المثل ، والألفاف : الأشجار الملتفّة (جمع لفيف) ومنه قوله تعالى : « لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّاتٍ ألفافاً » النبأ : ١٦

(١٠) النطاف : المياه الصافية (جمع نطف) .

سِرَارِها[١١] ، لو يحترِقُ بأنوارِها ، ويتمنَّى مُرتقِبُ سجومِها[١٢] ، أن يُعنى بتصوُّبِ نجومِها ، ويُمنى بتلوُّبِ رجومِها ، فلَّما طالتْ كُلَّ ما عالتْ يداها ، ونالتْ ـــ حسب ما آلت ـــ مداها ، ارتدَّتْ فاخِرةً إلى الحضيض ، ومدَّتْ ساخِرةً بطرْفٍ غضيض ؛ فبصرتْ فى البيدِ[١٣] بذاتِ الهبَيد[١٤] ، واسطةً فى المهوى البعيد ، باسطةً ذراعيْها بالصَّعيد ، فبادَتْها عالمةً بقصورِها ، ونادتْها ظالمةً بغُرورِها ؛ يا أُمَّ الصَّرايةِ[١٥] : أنتِ صاحبةُ الرَّاية ، فاظهرى بنضارتِك لمستواىَ ، واشهدى بزيارتِك مثواىَ ، وانظُرِى إيَّاىَ[١٦] ، ثمَّ افترِّى عن مثلِ جناىَ ، فقالتْ : ياسبحانَ اللّه ! لشدَّ ما مدحتِ فأطريتِ[١٧] ، ولجدَّ ما مَزَحْتِ فأزريتِ . أمَّا أنتِ فأصل فى التُّخومِ ثابت ، وفرعٌ فى النُّجومِ نابت ، أُكْلُكِ نجيعٌ[١٨] ، وثُكْلُكِ فجيع[١٩] ، وردَ الكتابُ بتفضيلِكِ ، وانفردَ المؤمنُ بتمثيلِكِ ، هُزَّ جِذْعٌ من جذوعِك لابن البتُولِ[٢٠] فتهافتَ وارجحَنَّ[٢١] ، وبُزَّ ثانٍ موقف الرَّسولِ فتخافتَ[٢٢] وحَنَّ[٢٣] ، لو شئتِ بما أُودِعتِ مِن الفِطَن ، وأُوسعتِ مِن الإعجازِ المُستَبطن ، لا نثنيتِ[٢٤] فى البَشَر ، وأُوتيتِ بكُلِّ مُؤدَمٍ مُبْشَر[٢٥] ، ورمَيتِ معشراً كِراماً بمعشر !

(١١) السرار : آخر ليلة من الشهر .

(١٢) فى الأصل : شحومها ؛ تصحيف ، وسجمت السحابة مطرها : إذا صبَّته ، وسجم يسجم سجوماً : سال وانسجم .

(١٣) فى الأصل : اليد

(١٤) الهبيد : الحنظل

(١٥) الصراية : الحنظلة إذا اصفرَّت . وفى ت : أيَّام الصَّراية .

(١٦) فى الأصل : أناى ؛ تصحيف .

(١٧) فى الأصل : فأطريت.

(١٨) النَّجيع : الدَّم

(١٩) فى ت : وجيع

(٢٠) ابن البتول : هو عيسى بن مريم عليه السَّلام .

(٢١) إشارة إلى قوله تعالى : « وهُزِّى إليك بجذع النَّخلة تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جنيًا » .

(٢٢) فى الأصل : فتحافت .

(٢٣) إشارة إلى حديث حنين الجذع .

(٢٤) فى ت : لانتميت .

(٢٥) كناية عن المهارة والحذق ، ورجل مؤدم مبشر : حاذق مجرب قد جمع ليناً وشدة مع المعرفة بالأمور ، وأصله من أدَمة الجلد وبشرته ؛ فالبشرة ظاهِره ، وهو منبت الشَّعر ، والأدَمة : باطنه ، وهو الذى يلى اللحم (اللسان : أدم)

وأمَّا أنا[٢٦] فقرينةُ اجتثاث[٢٧] ، ورهينةُ انتكاث ، أصلٌ ، لا انشمَر[٢٨] ولا استقلّ ، وفَرْعٌ لا أثمَرَ ولا أظَلّ ، وخُطْبانٌ[٢٩] شَوْبُها خطوب ، وقُضْبانٌ ذَوْبُها سَلَعٌ[٣٠] بالمنيَّةِ مقطوب[٣١] ، وخدٌّ تَرِبٌ[٣٢] يحرجُ[٣٣] [٣٥/ب] بتعبيسِهِ الرُّغام ، وحَدٌّ ذَرِبٌ يُخرِجُ من خيسه الضِّرغام ، فخرجت الحنظَلَةُ مِن الغَمرة ، وقطعتْ بالحجَّةِ لسانَ التَّمَرةِ[٣٤] ، أو كالغضنفرِ الرئبال ، المزعْفَرِ أبي الأشبال[٣٥] ، تميَّز من الحَرْد[٣٦] ، وتحيَّزَ[٣٧] كالسَّيفِ الفَرْد ، بمذروبةٍ كالنِّبال ، فاستنفرَ بما عفَّر مَنْ فى السُّهولِ والجبال ، حتَّى إذا أخرسَ مِمَّا[٣٨] افترسَ كُلَّ ناد ، وأترعَ بالبسالةِ والأنفُسِ المُسالةِ كُلَّ واد ، مرَّ بزئيرِه المِجْرِس على الهِجْرِس[٣٩] ، وقد عاذَ مِن شفقِه بنفَقِه ، ولاذَ من خِوارِهِ[٤٠] بوجارِه[٤١] ، فأنشأ يُبهرجُه فى الاعتزال ، ويستدرجُه

---

(٢٦) فى ت : وأمَّا أنا — وما أنا — !

(٢٧) فى الأصل : احتثاث .

(٢٨) انشمر : تهيَّأ .

(٢٩) الخطبان : نبتة فى آخر الحشيش شديدة المرارة ، والخطبان (جمع الخطبانة) وهى الحنظلة الصفراء فيها خطوط خضر ، واخطب الحنظل : اصفرَّ .

(٣٠) السَّلَع : نبات مُرّ .

(٣١) مقطوب : ممزوج .

(٣٢) فى الأصل : ثرب ، وما أثبتناه عن (ت)

(٣٣) حرج الغبار : ثار فى موضع ضيِّق ، فانضمَّ إلى حائط أو سند ، ومنه قول القائل : (اللسان — حرج)

وغـارةٍ يحـرجُ القتـامُ لهـا   يهـلِكُ فيـها المناجـدُ البَطَلُ

(٣٤) فى ت : التَمرة .

(٣٥) المزعفر : الأسد الورد ، وأبو الأشبال : كُنيته .

(٣٦) الحرْد : (بسكون الراء) : المنع والغيظ والغضب ، والحَرَد (بالتحريك) : داء يُصيب العصب ، والأول هو المراد .

(٣٧) فى الأصل : وتحير : تصحيف .

(٣٨) فى ت : بما

(٣٩) الجرس : الذى له صوت كالجرس ، وفلان مجرس لفلان أى يأخذ منه ويأكل من عنده ، والهجرس : الثعلب أو ولده . وفى الأصل : المحوس على الهحوس وهو تصحيف .

(٤٠) فى الأصل : حواره ، وما أثبتناه عن (ت)

(٤١) الوجار : جحر الضبع والثعلب والذئب والأسد .

للنِّزال ، فقال : هذا تنويهٌ ، تحتَ تمويه ، وإجلالٌ فى طيّه إخلال ، دَأْبُ أُسامة[٤٢] أن يختِلَ ويُرِيع[٤٣] ، ودَأْبُ ثُعالةَ[٤٤] أنْ يروغ[٤٥] ويزيغ ، وسأساهِلُك ، إذا استوى كاهلى وكاهِلُك ، وأساعِدُك متى التقى ساعدى وساعِدُك ، ثم تمكّنَ[٤٦] فى الإهاب ، وانفصلَ عمّا أصّلَ كالشّهاب .

وأنا ــ فما أردتُ ــ بما أوردتُ [من][٤٧] مثلٍ ، فى بَدَلٍ ، ضربتهُ ولا خلوتُ بما جَلوتُ ، من لجاجٍ[٤٨] قَرَبْتُه ؛ إلاَّ لأعتذرَ فى النُّكول ، وتعبير[٤٩] الشُّكولِ بالشّكول ، وإلاَّ فمن عذيرىَ منه ؟ ما نبذَ بالعُقْمِ ، حتَّى أخذ بالفُقْمِ[٥٠] ، ولا تحدَّى بالمعجِز ، حتَّى أبدى صفحةَ المستنجز ، فياوحشةَ من جاوره بِفِلّ[٥١] ، أو حاورَهُ بكلامٍ لم يخرجْ مِن إِلّ ، وما كنتُ أخشى أن يسقُطَ بِى العَشاءُ ، على مالا أشاء[٥٢] ، فأصبحَ كالعاشى للقيْنِ عثرَ بحجليْه[٥٣] ، والماشى للحيْنِ[٥٤] عبرَ برجليْه . تاللّهِ إنَّها لوهيَةُ عِثارٍ لا تُرْقَع ، ودُجْيَةُ غُبَارٍ بها أتبرقَع ، إنْ صَمَتُّ ــ وحُقَّ ــ فما أنفع ، وإن نطقتُ ــ ولا نُطْقَ ــ فأين أقع ، وعلى ذلك فلأنْ أقضى مُغتصاً[٥٥] ، خيرٌ من أن أمضى مُنْحَصاً[٥٦]

(٤٢) أسامة : من أسماء الأسد .
(٤٣) فى ت : يربع
(٤٤) ثعالة : الثعلب .
(٤٥) فى الأصل : يروع ؛ تصحيف .
(٤٦) فى ت : تكمّى
(٤٧) زيادة يقتضيها السياق .
(٤٨) فى ت : تحاج .
(٤٩) فى ت : ويعتبر
(٥٠) الفُقْم : الفك والفم
(٥١) الفِلّ : الأرض المجدبة .
(٥٢) من المثل : « سقط العشاء به على سرحان » يُضرب فى طلب الحاجة يؤدى صاحبها إلى التلف (الميدانى ٢٤١/١)
(٥٣) الحجْل : القيد
(٥٤) الحين (بالتسكين) : الهلاك
(٥٥) فى الأصل : مقتضا ؛ تصحيف .
(٥٦) إشارة إلى المثل : أفلت وانحصَّ الذَّنَبُ ، يُضرب لمن نجا من الهلاك وذَنَبٌ أحصُّ : لا شعر عليه (اللسان : حصص)

كلاَّ ! إنَّ أبا بشْرٍ ضَجِرَ فجرِضَ[٥٧] ، وإنَّ أبا نصرٍ رهبَ فهرَب ، وأبا حَشْرٍ يئِسَ فبئِس ، فكلا جانبىْ هَرْشى طريق[٥٨] ، وأمامى حيثُ آمَنُ وأخشى فريق .

فأمَّا استهداؤه ــ أيَّده اللّه ــ إيایّ ، وهو ــ فى عقدِنا وعِقدِه ــ الإمامُ الأعظمُ ، والجهْبَذُ الذى على نقدِهِ يُنَثَّرُ الكلامُ ويُنْظَم ، فبدهةٌ[٥٩] تُطوى بها [٣٦/أ] الأمصارُ عَجَلاً ، أو شَدْهةٌ تُزوى لها الأبصارُ خَجَلاً . وكيف والشَّمسُ لا تُحدى على أمْتِ رِكابُها ، ولا يُهْدَى إلى سَمْتٍ طلوعُها وإيابُها ،بل نَصَبُ الماهِرِ الخِرِّيت[٦٠] ، وحَسْبُ السَّاحرِ العِفريت ، أن يلتبِسَ بحياتِها ، ويقتبِسَ شُعلةً من إياتِها[٦١] ، فإذا ضنَّت بالمحيَّا السَّافِر ، وألقتْ يدَهَا فى كافِرٍ[٦٢] ، عطفَ على ما أسأرَتْهُ[٦٣] فى قَعْبِ الهلال ، وانصرَفَ إلى ما مجَّتْه[٦٤] فى وجْهِ بدرِ الكَمَال ، وكحلتْ به طرفَ كُلِّ نجمٍ ساهِرٍ ، مِن سَنَاها الباهِرِ ، فاستنبطَ من الغَزَالةِ[٦٥] ، خَفِيَّ الدَّلالة ، فلهَا الفَضْلُ ساريةً وساربة ، والشُّكْرُ غائِبةً ونائِبَة ، وإنِّى لأرفعُه فيما يَضَعُه عن رفثةِ المُفَاكِه ، وأستميلهُ فيما يُنيلهُ إلى نَفْثَةِ المُشَاكِه[٦٦] ، وأستعفيهِ من مَسيرٍ تكلُّفه جَهْرَاً فى فِتْرٍ ، وأعتفيه لحسيرٍ خلَّفه دهراً فى سِترٍ ، ثم عثرَ عليه أهدى

---

(٥٧) حرض : اغتصَّ

(٥٨) هذا مثل يضرب للأمر يسهل من وجهين . (العسكرى ٢ : ١٤٨)

(٥٩) فى ت : فندهة .

(٦٠) الخِرِّيت : الحاذق .

(٦١) إياة الشّمس : ضوؤها .

(٦٢) الكافر : الظلمة والبحر ، ومنه قول لبيد : (اللسان : كفر)

حتَّى إذا ألقت يداً فى كافِرٍ ... وأجنَّ عوراتِ الثغورِ ظلامُها

(٦٣) أسأر : أبقى ، وفى الحديث : « إذا شربتم فأسئروا » أى ابقوا شيئاً من الشراب فى قعر الإناء : وفى ت : ما أسأرت .

(٦٤) فى ت : مجّت .

(٦٥) الغزالة : الشمس .

(٦٦) المشاكة : المشابه

مِن قطاةٍ[٦٧] بأخرة ، ونبذَ إليه بملتقطاتٍ[٦٨] مُدَّخرة ، تُنزِلُ الأعصمَ من اليَفَع[٦٩] ، ولو اعتصمَ بالمصَامِ الأرفع ، تسرى فى أذْنِ الموقور[٧٠] فتُعْجِبُ ، وتجرى فى عينِ الضَّريرِ فلا تحتجِب،سَحبتْ سَحبان[٧١] فما أبان ، وشَرِقتْ منها نَفْسُ إياسٍ[٧٢] بُغصَّةِ ياس ، وتركتْ عبدَ الحميدِ[٧٣] ، غيرَ حميد ، ولبسَ لها ابنُ العَميدِ[٧٤] ، ثوبَ عمِيد[٧٥] ، ورآها ابن هلالٍ[٧٦] ، أبعدَ من الهِلال ، وقال لها الصَّاحِب[٧٧] : ما أنا لكِ بصاحِب !

وأمَّا شاعِرُ المعرَّة[٧٨] ، ومُشاعِرُ كواكبِ المجرَّة ، فهى عنقاؤه التى أكبرَها أن تُصاد[٧٩] ، وآثرَ على مُعاندتِها الاقتصاد ، فمن يتعاطاها بعده فقد

---

(٦٧) فى المثل : أهدى من قطاة (العسكرى ١ : ١٦٧)

(٦٨) فى الأصل : بمعتلكاه ، تحريف .

(٦٩) ينظر إلى قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى : (المفضليات ١٩٠)

ودعتنــــــى بِرُقــــاهـــا إنَّـــهـــا تُــنزل الأعصــمَ من رأس اليَفَــع

الأعصم : الوعل الذى فى يديه بياض ، اليفع : المرتفع .

(٧٠) الموقور : المصاب بالصمم .

(٧١) سحبان بن وائل ، ويضرب به المثل فى الفصاحة .

(٧٢) إياس بن معاوية ، يضرب به المثل فى الذكاء والفطنة ، وتوفى سنة ١٢٢ هـ .

(٧٣) عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، أبرز كتاب العصر الأموى ، وقيل عنه : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » ومات مقتولاً سنة ١٣٢ هـ .

(٧٤) هو أبو الفضل ابن العميد ، ينتمى إلى أسرة فارسية ، واستوزره ركن الدولة بن بويه ، ولم يقارنه فى الأدب والترسل أحد فى زمانه . وتوفى سنة ٣٦٠ هـ (وفيات الأعيان ٢ : ٨٣)

(٧٥) العميد : المريض .

(٧٦) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابى ، تقلَّد ديوان الرسائل ببغداد سنة ٣٤٩ هـ أيام عز الدولة البويهى واصطنعه المهلبى وقربه إليه ، وتوفى سنة ٣٨٤ هـ . قال الثعالبى عنه : « أوحد العراق فى البلاغة ، ومن به تثنى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة » [يتيمة الدهر ٢ : ٢٣]

(٧٧) هو إسماعيل بن عَبَّاد الملقَّب بالصاحب ، كان كاتبا مترسلاً بليغاً ، وأستوزره مؤيد الدولة البويهى وغيره ، وتوفى سنة ٣٨٥ هـ

(٧٨) شاعرة المعرَّة : هو أبو العلاء المعرى (أحمد بن عبد الله بن سليمان) ت سنة ٤٤٩ هـ

(٧٩) إشارة إلى قول أبى العلاء : (سقط الزند ٢ : ٥٥٣)

* أرى العنقــاء تكبر أن تصــادا *

أُفحِم ، وَوَقَذه[٨٠] العجزُ حتَّى رُجِم ، وأنَّى لى بمن شيَّع بَنَانُه بِجنَان أمَّار ، وشعْشعَ بيانُه بلسانِ ابنِ عَمَّار[٨١] ، ومنطقِ كوشى اليَمْنةِ[٨٢] ، ومنتطِقٍ بما شاء من أَيْدٍ ومُنَّة[٨٣] ؟ فإنْ أبى ـــ وحاشاه ـــ إلاَّ اعتداءً ، وشفتْ منه ـــ وما أراه مُسائِلنى ـــ داءً ، وتسدَّى[٨٤] لدخيلةِ رَيْثٍ ، وتصدَّى نحو مَخِيلةِ غَيْث ، فسأتقدَّمُ خطأً وخَطَلاً ، وأُقْدِمُ مُكْرَهاً لا بطلاً[٨٥] ، وما كلُّ ماشيةٍ برحْلٍ[٨٦] [٣٦/ب] شِملال[٨٧] ، ولا كُلُّ ناشئة مَخْلٍ انسكابٌ وانهلال ، وأَخْلَفُ من سحابةٍ مُمْحِلٍ ، صَبَابةُ منتحِلٍ ، غيَّر من لبوسِها ، وكلَّف نفسَه ماليْس مِن سُوسِها[٨٨] ؛ فازدراه[٨٩] وخيمُها ، وغلبتْه على النَّفسِ سجيَّتها وخِيمُها[٩٠] ، فإنْ مطلت فعن عُسْرٍ ، وإنْ أطَلَّت ففى غيْرِ يُسْر ، ورُبَّ كريمٍ فى الأعزَّةِ مطلول[٩١] ، وغريمٍ كغريمِ عَزَّةَ ممطول[٩٢] ، عَلَّلَتْهُ بمطالعِ سَعْد ، وذلَّلتْهُ بمطامع وَعْد ، ومنَّتْهُ فأصَابتْهُ[٩٣] ، وأدْنتْهُ[٩٤] حتَّى إذا

---

(٨٠) وقذه العجز : أضعفه حتى أشرف على الموت كالموقوذ .

(٨١) هو دو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمَّار الشاعر الأندلسى ، وقد سبق التعريف به .

(٨٢) اليمة : اليمن

(٨٣) المنة (بالضم) : القوة .

(٨٤) تسدَّى الأمر : أخذه وقهره .

(٨٥) إشارة إلى المثل : « مكره أخوك لا بطل » (العسكرى ٢ : ٢٤٢)

(٨٦) فى الأصل : برجل ، وما أثبتناه عن (ت)

(٨٧) شملال : سريعة

(٨٨) السوس : الطبع

(٨٩) فى ت : فأرداه

(٩٠) الخيم : الأصل

(٩١) مطلول : مقتول ، يقال : طل دمه أى هدر

(٩٢) إشارة إلى قول كُثَيِّر عزَّة : (ديوانه : ٥٠٧)

لو انَّ الباخـلينَ ـــ وأنتِ منهم ـــ رأوك تعلَّموا منك المِطَالا

وقوله : (ديوانه : ١٤٣)

قضى كل ذى دين فوفَّى غريمه وعزَّةُ ممطولٌ معنًى غريمُها

(٩٣) ى ت . فأصبته

(٩٤) ى الأصل : وأدنته ؛ تصحيف .

سَبْتُهُ ، بقولٍ يأذَنُ[٩٥] له الجَماد ، ويشقى[٩٦] به الجوَاد ، ويُحدى به الطَّوْد فينقادُ وينآد ، فلَّما سرتْ فيه الأريحيَّة ، وكربتْ تشفيه التحيَّة[٩٧] ، حلى فخانه الأمل ، وحُيِّيَ مكانَه الجَمَل[٩٨] ، وعلى ذلك فما شكا جفاءً إذْ أخلَّتْ ، ولكن بكى وفاءً حيث حلَّت[٩٩] ، وسَوَّغَها صفاءً ما استحلَّتْ[١٠٠] ، فأمَّا ابنُ حُسَين أحمد[١٠١] ، فجارُ أيْنٍ[١٠٢] لا يُحْمَد ، تأمَّل بعينٍ مُمْهاةٍ[١٠٣] ، وتحمَّل إلى مَهاة[١٠٤] ، واشتملَ بصاحبٍ غيرِ غَزِلٍ ولا عِزهاة[١٠٥] ، فبعد خطفةٍ سُفورٍ[١٠٦] لا تُبارى قدراً ، ووقفةٍ كأُظفورِ الحُبارى قِصَراً[١٠٧] ، ثابَ من النَّعيمِ إلى الشَّقاء نفلاتاً ، وجابَ إلى غيرِ اللِّقاءِ فَلاةً ، فما صاحِبُه المرفَّعُ لترقِّيه ، المُدَفَّعُ بين تراقيها وتراقيه ، بأخشنَ حَدّاً ، ولا بأخون عهداً ، ولئِن ناءَ ، بما ساء[١٠٨] ، أبو صخر[١٠٩] ، فلقد باءَ ، بما شاءَ ، من فَخْر ، ولشيءٍ

---

(٩٥) يأذن : يسمع

(٩٦) فى الأصل : وسفى ؛ تحريف .

(٩٧) فى ت : حلىء أى مُنع

(٩٨) إشارة إلى قول كثّير عزة (ديوانه ٤٥٣) :

ليت التحيّة كانت لى فأشكرها مكان (يا جمل) حُيّيتَ يارَجُلُ !

(٩٩) إشارة إلى قول كثير عزة (ديوانه ٩٥) :

خليليَّ هذا رَبْعُ عزَّة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيثُ حلَّتِ

وفى الأصل : جلت ؛ تصحيف .

(١٠٠) إشارة أخرى إلى قول كثير عزة (ديوانه ٩٥)

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لعزَّة من أعراضِنا ما استحلَّتِ

(١٠١) هو أبو الطيب المتنبى (أحمد بن الحسين) توفى سنة ٤٥٣ هـ

(١٠٢) فى الأصل : فجارى بن ، تحريف .

(١٠٣) الممهاة : التى يسيل دمعها ، وفى الأصل : مهاة ، وما أثبتناه عن (ت)

(١٠٤) المهاة : البقرة الوحشية ، والمعنى هنا على المجاز .

(١٠٥) العزهاة : العازف عن اللهو والنِّساء .

(١٠٦) السفور : السَّفر ، وفى الأصل : سقور ؛ تصحيف .

(١٠٧) فى المثل : « أقصر من أظفور الحبارى » و « أقصر من إبهام الحُبارى » ، والحُبارى : الدجاج البرىّ .

(١٠٨) فى الأصل : بما شاء ؛ تصحيف .

(١٠٩) أبو صخر : كنية كثيِّر عزَّة .

ما حازَ البراعة ، أخو خُزَاعة[110] ، ووُقِفتْ عليه رِقَّةُ النَّسيب ، وصُرِفتْ إليهِ رِبقةُ التَّشْبيب .

وأنا أُجِلُّ السيِّدَ الأوحدَ ــ دام عِزُّه ــ أن يقدحَ زَنْداً شَحاحاً[111] ، ويجدحَ[112] صَلداً ، لا مُتفجِّراً ولا شحَّاحاً ، فيحدو بثِفَال[113] ، ويشدو على أثفال[114] ، ومن لم يُنَاجِزْ على لفِئة[115] ، ولم يُحاجِزْ إلى فِئة ، ولا نَجا طَمَعَاً بعقابِ يوم ، فليُمْسِكْ طَبَعا[116] بإعقابِ لُؤْمٍ ولَوْم ، وما لِقرنهِ لا يحيدُ حقيقة ، وهو الوحيدُ إذا ركبَ طريقة ، ومِن الرَّديفِ[117] وقد ركبَ هِزَبْراً ، ومن لم يستطعْ[118] معه صبراً ، ولئِن واقعتُ فى التَّوقّفِ عقوقاً ، ودافعتُ بيد التعسُّفِ حقوقاً ، [٣٧/أ] استوجبْتُ عنه ظُلماً عبقريَّاً ، فإنّى لأرجو منه حِلْماً مِنْقَرِيّاً[119] ، وإنْ كان التوقُّفُ لانحسار ، ولم يكن المطْلُ عن ظهرِ يسار[120] ، فحملُ العَتبِ عِلاوَة ، وأنا من الذَّنبِ فالِجُ بن خَلاوة[121] ، ولو أطَقْتُ براعةَ الكِتَاب ، ودفعتُ[122] متطارداً فى رجعِ الجواب ، مستمِدّاً من تلقائِه لدُرَرٍ تُلْفَظ ، وغُرَرٍ تُحْفَظ ؛ ولو نال وَقْدُهُ من إرجائىْ[123] نَيلَ البَرمِ ،

(١١٠) إشارة إلى كثيِّر عزّة لأن نسبه فى خزاعة .

(١١١) فى الأصل : سحاحا ، تصحيف .

(١١٢) جدح الشيء : خلطه .

(١١٣) الثِفال (بالكسر) : جلد يُبْسط فتوضع فوقه الرَّحى فيطحن باليد ليسقط عليه الدقيق ، فهو يقى الرحى من الأرض .

(١١٤) أثفال : جمع ثفل وهو الحَبُّ والخبز والتمر .

(١١٥) اللفئة : دون الحق ، يقال : لفأت الرجل : اذا نقصته حقه وأعطيته دون الوفاء ، وفى (ت) : تفئة

(١١٦) الطبع : (بالتحريك) : العيب والشين .

(١١٧) الرَّديف : التابع أو الذى يركب خلف الرَّاكب .

(١١٨) فى ت : ومن يستطيع .

(١١٩) الحلم المنقرى : كناية عن حلم الأحنف بن قيس ، وهو من بنى منقر من تميم ، ويضرب به المثل فيقال : « أحلم من أحنف » . (الميدانى ١ : ٢٢٩)

(١٢٠) إشارة إلى الحديث : « مطل الغنى ظلم » والمطل : التسويف .

(١٢١) فى المثل : « أنا منه فالج بن خلاوة » أى برىء حالٍ . (الميدانى ١ : ٤٨)

(١٢٢) فى ت : ووقفت

(١٢٣) فى الأصل : إرجاق ، وما أثبتناه عن (ت)

وسالَ نقدُه بأرجائى سَيْلَ العَرِمِ ، فشرِقْتُ بعُجابِه ، وغرِقتُ فى عُبَابِه ، لكنتُ مغبوطاً[١٢٤] لا مغبوناً ، ومحبوراً لا محسوراً ، بل على منهجِ أُسوةٍ واضحٍ ، ومدْرَجِ قُدوةٍ عن راكبِه فاضِحٍ[١٢٥] .

هذه هَاجَرُ[١٢٦] أخذتْ على فيضِ المعينِ مداه ، وقبضَتْ مِن سَيْبِ المُعينِ ما بسطَتْه يداه ، فألزمت الشُّحَّ ، وقيل : ياماءُ لاتسُحَّ[١٢٧] ، ولو أرسلتْ ينبوعَهُ ، وتركتْه ونبوعَه ، لبَطَلَ عناءً وشقاءً ، وتعطَّل رشاءً وسقاءً ، وقهقهتْ هناك[١٢٨] غدرانٌ ورِدَاه[١٢٩] ، وصافحتْه أيمانٌ وشفاه .

وهذا موسى — عليه السَّلام — رُفِعَ فى العِلْمِ إلى نهاية ، وشُيِّعَ بآيةٍ[١٣٠] ، فتقبَّلَ ما أتاه ، وتحمَّل بفتاه[١٣١] ، وتجهَّزَ بحوتٍ ، فى منحوت[١٣٢] ، فكان شأنه فى البحر عجباً ، ونسيانُه للذِّكْر سبباً[١٣٣] ، فاشتدَّا عند تذكارِهما للبُغية قَنْصا ، وارتدَّا على آثارهما قصصا[١٣٤] ، فلمَّا انتحاه الخِضْرُ[١٣٥] بسرائرَ من الغيب مُشْكِلات ، وظواهرَ للرِّيب محتملات[١٣٦] ، أخذ عليه فى إظهاره

(١٢٤) فى الأصل : معبوطاً ، تصحيف .

(١٢٥) فى ت : ناصح .

(١٢٦) فى (ت) مفاخر ؛ تصحيف ، وهاجر هى زوج إبراهيم عليه السلام .

(١٢٧) فى ت : لا تسح ولا تسح .

(١٢٨) فى ت : ونهقت هنالك .

(١٢٩) الرِّداه (جمع ردهة) ، وهى الحفرة أو النقرة فى الجبل أو الصخر يجتمع فيها الماء .

(١٣٠) بآية : بمعجزة .

(١٣١) فتى موسى الذى كان يضطلع بخدمته ، وخبره فى سورة الكهف : آية ٥٩

(١٣٢) المنحوت : السفينة .

(١٣٣) قال تعالى فى ذلك على لسان موسى — عليه السلام — : « قال أرأيت إذ أوَيْنا إلى الصَّخْرةِ فإنى نسيتُ الحوتَ وما أنسانيه إلا الشيطان أنْ أذكرَه واتخذ سبيله فى البحر عَجَباً » الكهف : ٦٣

(١٣٤) من قوله تعالى : « قال ذلك ماكنَّا نبغِ فارتدَّا على آثارِهما قَصَصًا » الكهف : ٦٤

(١٣٥) الخضر : هو الذى رافق موسى — عليه السلام — ورأى على يديه بعض أسرار الغيب ، وقيل إنَّ الخضر نبىّ ، وقيل إنه عبدٌ صالح ، وقال تعالى فى ذلك : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلَّمناه من لدُنا عِلْماً » الكهف : ٦٥

(١٣٦) إشارة إلى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، وقد ذكر الله تعالى ذلك فى سورة الكهف .

لبدائِعها ، وإيثارِهِ بودائعها ، ميثاق الحلم ، إلى أن يُشْهِدَه مصداق العلم ، عجل إلى فرطِ الإنكار ، وذَهِل عن شَرْط الإذكار(١٣٧) ، ولولا إسراعٌ وهب فى تلك الحِكَم ريْثاً(١٣٨) ، وإشْراعٌ أذهبَ من تلك الدّيمِ غَيْثاً ، لَدَرَّتْ أخلافُ القَصَص ، واستمرَّتْ آلافٌ من القِصَص ، ولو صَبَرَ لابتَلى العَجَب ، فاجتلى منْ أسرارِ الغيبِ ما احتجَب .

وتلك ليلةُ القدْرِ تراءَاها(١٤٠) إعلان ، فدُفِعتْ،وتلاحى فُلانٌ وفُلانٌ ، فرُفِعتْ(١٤١) ، فحسبى أن أنذُرَ للرَّحمنِ صَوْماً(١٤٢) ، وأشكرَ للزَّمانِ يوماً [٣٧/ب] وأفِرَّ من هذا المَرامِ المُتَباعِد العَويص ، والمَقامِ القاعِدِ بالحريص ، إلى ملامِ أبى الشَّيِّص(١٤٣) ، وأخشعَ لحِفاظِه ، وأسمعَ اللُّغةَ التى يَلذُّ بها(١٤٣) سَمْعى حُسْناً ، ولو ضُمِّنَتْ ما يُجْرى دمعى حُزْناً من ألفاته ، وأهلاً بعتابه وإن جرح ، وحلا لكتابه حيث سرح ، فلا عارَ بَرْنَدِ كَلَمَهُ سِوارُه(١٤٤) ، وحدٌّ ثَلَمَهُ غراره(١٤٥) ، فإنَّما هى آثارٌ ، بل أنوار ، صدرتْ عن عينِ الأوانِ وصَدْره ، بل عن شَمْسِ الزَّمان وبدرِهِ ، واستشرفَ ساهِرِ بَرْقِها(١٤٦)

(١٣٧) قال تعالى فى ذلك على لسان الخِضْر : « قال فإنْ اتَّبعتنى فلا تسألنى عن شىءٍ حتَّى أُحدثَ لك منه ذِكْراً » الكهف : ٧٠

(١٣٨) فى المثل : « ربَّ عجلةٍ تهب ريثاً » العسكرى ١ : ٤٨٢

(١٣٩) فى ت : وإقشاع .

(١٤٠) فى ت : تراءى بها .

(١٤١) إشارة إلى حديث ليلة القدر : « تلاحى رجلان فَرُفِعتْ »

(١٤٢) يقتبس من قوله تعالى : « فقولى إنى نذرت للرَّحمن صوماً فلن أُكلِّمَ اليومَ إنسيًا » سورة مريم : ٢٦

(١٤٣) هو محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعى الملقب بأبى الشيص ، شاعر عبَّاسى توفى سنة ١٩٦ هـ ، وفى كلام الكاتب إشارة إلى قول أبى الشيص : (ديوانه ٩٢)

أجِدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرِكِ فليلُمْنى اللُّوَّمُ

(١٤٣) فى ت : يلذها

(١٤٤) لعله ينظر إلى قول المتنبى : (ديوانه ٢/٢١٥)

بنو كعبٍ وما أثَّرتَ فيهم يَدٌ لم يُدْمِها إلاّ السِّوَارُ

(١٤٥) الغرار : المثال الذى تُضرب عليه النعال لتصلح (اللسان : غرر)

(١٤٦) فى ت : نوئها

السَّمَرُ[١٤٧] الرَّاقِد ، وحَسَدنى باهِرُ ضوئِها السُّها والفراقِد ، حاسَنَتْ بها الحَمامَ فى نُضْرَةِ أجيادِها ، والأيَّامَ فى خُضْرَةِ أعيادِها ، والمبانى فى إيوانِها[١٤٨] ، والمغانى فى شِعْبِ بَوَّانِها[١٤٩] وساجلتْ ربيعة فى دَغْفَلِها[١٥٠] ، وأبى بصيرها[١٥١] ، وتميماً فى هَمَّامِها[١٥٢] وجريرِها[١٥٣] ، وهُذيلاً فى أبى ذؤيبِها[١٥٤] وأبى كبيرِها[١٥٥] ، وخُزَاعةَ فى دِعْبِلِها[١٥٦] وكُثَيِّرِها[١٥٧] ، وحَكَماً فى أبى نُواسِها[١٥٨] ، وحنيفةَ فى عَبَّاسِها[١٥٩] ، وتغلبَ فى كُلثومِها[١٦٠] ، وأبى

---

(١٤٧) فى الأصل : السهر ؛ تصحيف .
(١٤٨) الإيوان : الصُفَّة العظيمة ، وهو أعجمى ، ومنه إيوان كسرى ، وهو المراد من التشبيه .
(١٤٩) شعب بوَّان : موضع عند شيراز بأرض فارس كثير الشجر والمياه ، ويعد أحد متنزهات الدنيا وجنانها (معجم البلدان ١ : ٥٠٣) وقد ذكره المتنبى فى مطلع قصيدة فقال : (ديوانه ٣٨٣/٤) .

مغانى الشِّعْبِ طِيباً فى المغانى بمنزلة الرَّبيع مِن الزَّمان

(١٥٠) هو دَغْفَل بن حنظلة بن زيد الشَّيبانى ، نسَّابة العرب ، توفى سنة ٦٥ هـ
(١٥١) أبو بصير : هو ميمون بن قيس بن جندل بن ثعلبة الملَّقب بالأعشى .
(١٥٢) هو همَّام بن غالب بن صعصعة الملَّقب بالفرزدق ، من أبرز شعراء عصر بنى أُمية ، توفى سنة ١١٠ هـ .
(١٥٣) هو جرير بن عطيَّة الخَطَفى ، من فحول شعراء عصر بنى أمية ، توفى سنة ١١٤ هـ على الأرجح . وفى الأصل : حريرها ؛ تصحيف .
(١٥٤) هو خالد بن خويلد (أبو ذؤيب الهذلى) شاعر مخضرم ، توفى سنة ٢٧ هـ واشتهر بقصيدته العينية فى رثاء أبنائه . وفى الأصل : أبى دونها ؛ تصحيف .
(١٥٥) هو عامر بن الحُليس (أبو كبير الهُذلى) شاعر مخضرم .
(١٥٦) هو دعْبل بن على الخُزَاعى ، أحد شعراء العصر العباسى ، اشتهر بالهجاء وتوفى سنة ٢٤٦ هـ . وله تائية مشهورة فى مدح آل البيت ، وأخرى طويلة تبلغ نحو ستمائة بيت فى مدح أهل اليمن (بروكلمان ٢ : ٤٠ — ٤١)
(١٥٧) هو كُثَيِّر بن عبد الرَّحمن الخُزاعى المعروف بـ (كثير عَزَّة) أحد شعراء العصر الأموى توفى سنة ١٠٥ هـ
(١٥٨) هو الحسن بن هانىء الملقب بأبى نواس .
(١٥٩) هو العبَّاس بن الأحنف ، أشهر شعراء الغزل فى عصر بنى العباس ، وهو من أولاد العرب النازلة فى خراسان ، نشأ ببغداد ، ونادم الرَّشيد ، وتوفى سنة ١٨٨ هـ
(١٦٠) هو عمرو بن كلثوم التغلبى ، أحد شعراء المعلقات ، وله خبر مشهور مع عمرو بن هند

فِراسِها[١٦١] ومُزَينةَ فى مَعْنِها[١٦٢] وإياسِها[١٦٣] ، وإياداً فى قَسِّها[١٦٤] وأبى دُوادها[١٦٥] وحَرْباً فى عُتبتِها[١٦٦] وزيادِها[١٦٧] ، وعُقَيلاً فى تَوْبَتِها[١٦٨] وبشَّارِها[١٦٩] ، وأسداً فى عُمْرِها[١٧٠] وعرارِها[١٧١] ، ويَشْكُرَ فى حارثها[١٧٢]

---

(١٦١) هو الحارث بن سعيد بن حمدان (أبو فراس الحمدانى) كان ابن عم سيف الدولة وواليه على منبج ، وأُسر فى قتال الروم ، ولما مات سيف الدولة ٣٥٦ هـ حاول الاستيلاء على حمص ولكنه قُتل سنة ٣٥٧ هـ . وله ديوان مطبوع (بروكلمان ٢ : ٩٢) .

(١٦٢) هو معن بن أوس المُزَنى ، شاعر مخضرم ، توفى سنة ٦٤ هـ

(١٦٣) هو إياس بن معاوية المزنى ، يضرب به المثل فى الذكاء والفطنة ، وقد ذكره أبو تمام فى شعره فقال :

إقدامُ عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنفَ فى ذكاء إياس

وتولى إياس قضاء البصرة ، وتوفى بواسط سنة ١٢٢ هـ (سرح العيون : ١٤١)

(١٦٤) هو قس بن ساعدة الإيادى ، أسقف نجران ، وكان أحد حكماء العرب وخطبائهم ، ويضرب به المثل فى الفصاحة (سرح العيون ٣٧٨)

(١٦٥) أبو دواد ، جويرية بن الحجّاج ، الإيادى ، شاعر جاهلى ، كان معاصراً للمنذر بن ماء السماء ، وهو مشهور بوصف الخيل (بروكلمان ١ : ١١٨)

(١٦٦) هو عتبة بن أبى سفيان بن حرب ، اشتهر بالخطابة والفصاحة فى عصر بنى أمية ، وولاه معاوية ــ أخوه ــ على مصر ، وتوفى سنة ٤٤ هـ .

(١٦٧) هو زياد بن أبى سفيان (زياد بن أبيه) أخو معاوية من أبى سفيان ، اشتهر بالخطابة والدهاء ، وتوفى سنة ٥٣ هـ (الفهرست : ٨٩)

(١٦٨) هو توبة بن الحمَير العامرى ، شاعر أموى ، اشتهر بحبِّه لليلى الأخيلية ــ وكانت من قبيلته ــ وخطبها إلى أبيها ولكنَّ أباها زوجها رجلاً من غير بنى عامر ، وظل توبة وفياً لها إلى أن قتل سنة ٨٥ هـ فى إحدى الغزوات ، فرثته ليلى بمراثٍ كثيرة اشتهرت بها . (بروكلمان ١/٢٣٤) .

(١٦٩) بشار بن برد ، عبَّاسى مشهور ، ولد بالبصرة ، واشتهر بالغزل والهجاء ، وتوفى سنة ١٦٧ هـ .

(١٧٠) هو عمرو بن شأس الأسدى ، ويكنى أبا عِرار ، شاعر مخضرم ، أسلم فى صدر الإسلام ، وشهد القادسية ، وهو من أبرز شعراء بنى أسد ، توفى سنة ٢٠ هـ (معجم الشعراء (المؤتلف والمختلف) ص ٢١٢)

(١٧١) هو عرار بن عمرو بن شأس ، وفيه يقول أبوه حين كانت امرأته ــ امرأة عمرو بن شأس ــ تؤذيه :

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد ... عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم

ولعرار خبر مع عبد الملك بن مروان أعجب فيه بكلامه وفصاحته (معجم الشعراء ٢١٢ - ٢١٣)

(١٧٢) هو الحارث بن حِلِّزة اليشكرى ، أحد شعراء المعلَّقات .

وسويدها[١٧٣] ، وهوازن فى تميمها[١٧٤] ، وطيئاً فى طِرِّماحِها[١٧٦] وزيدها[١٧٧] واستنزلت ــ بما بعث من جَذل[١٧٨] ، ونفثَ من سِحْرٍ بينَ عُذْرٍ وعَذَل ــ أبا عَبَّادٍ عن مُدُنِه ، واستقبلتْه بما يضرب على أُذُنِه[١٧٩] ويستجهلُهُ فى واواتِه ، ويُذهِلُه عن تبختُره فى مُنَمْنَماتِه[١٨٠] ، ويُبرقِعُه بغُبارِه ، ويقطعُه عن مقطع إيغارِه[١٨١] ، بأغراضٍ عَفَّتْ على الغريضِ[١٨٢] واستهلالِه ، وألوتْ بابن سُرَيج[١٨٣] وأرْمَالِه ، وحطَّتْ ابنَ جَامِع[١٨٤] عن درجةِ الإجماع ، واستبدّتْ دعنَه بالأبصارِ والأسماع ، تُسلى أبا دُلَف[١٨٥] عن حنَانه[١٨٦] ، وتُرسِلُ من يد

(١٧٣) هو سويد بن أبى كاهل اليشكرى ، شاعر مخضرم ، عاش إلى مابعد سنة ٦٠ من الهجرة ، وقرنه ابن سلام الجمحى فى طبقاته بعنترة ، وأورد له الضَّبى قصيدة جيدة مطولة فى (المفضليات ص ١٩٠)

(١٧٤) هو تميم بن مقبل ، شاعر مخضرم ، واشتهر ببكاء أهل الجاهلية .

(١٧٥) هو دُرَيْد بن الصمة ، شاعر جاهلى ، فارس ، أدرك الإسلام بأخرة من حياته ولم يسلم ، وقُتل فى غزوة حنين وهو على كُفره .

(١٧٦) هو الطِّرماح بن حكيم الطَّائى ، من أبرز شعراء الخوارج فى عصر بنى أمية .

(١٧٧) هو زيد بن مُهلهل الطائى ، ويكنى : زيد الخيل أو زيد الخير ، فارس من فرسان الجاهلية ، أدرك الإسلام ، وأسلم ، وسمَّاه الرسول ﷺ : زيد الخير .

(١٧٨) فى الأصل : خذل ؛ تصحيف .

(١٧٩) فى الأصل : آذانه .

(١٨٠) فى ت : عن متخيو ومنمنماته .

(١٨١) الإيغار : ضمان الخراج ، والإيغار أيضاً : أن تُسَخِّن الحجارة وتحرقها ثم تلقيها فى الماء لسنخنه ، واستخدامها هنا على المجاز ، وفى (ت) : أنفاره .

(١٨٢) هو أبو يزيد أو أبو مروان عبد الملك ، والغريض لقبه ، وكان مولَّداً من مولدى البربر ، وهو مولى الثريا بنت على بن عبد الله الأموية وأخواتها المعروفات جميعاً باسم العبلات ، وهو تلميذ ابن سريج ، وكان له منزلة عظيمة فى مكة ، وكان الحجاج حين يسمعونه يظنونه من الجن لجمال صوته ، وتوفى فى خلافة سليمان بن عبد الملك (الأغانى ٢ : ٢٥٩ وما بعدها ــ الشعر والغناء فى المدينة ومكة للدكتور شوقى ضيف ص ٢٠١ - ٢٠٢)

(١٨٣) هو أبو يحيى عُبيد بن سُرَيج ، كان من أحذق الناس بالغناء فى صدر الإسلام ، واستدعاه الوليد بن عبد الملك إلى بلاطه فى دمشق ، وأجزل له فى جوائزه (الأغانى ١ : ٢٤٨) . وفى الأصل : ابن شريح ؛ تصحيف .

(١٨٤) هو إسماعيل بن جامع السهمىّ ، من أشهر المغنين والملحنين فى العصر العباسى

أبي نُواسٍ عِنان عِنانِه[187] ، وتُلهى أبا عمرو[188] عن الزَّوراءِ[189] ، وتقذِفُ بابنِ عادياءِ[190] عن عاديةِ الإقدام[191] بالعَرَاء ، وتطيبُ بها نَفْسُ إسحاقٍ عن سليمٍ ومضرَ الحمراء[192] !

وأُقسِمُ بالدَّجْنِ وتقصيرِه[193] ، والدَّنِ [٣٨/أ] وعصيرِهِ ، [والخدودِ وما نسقتْ والنُّهودِ إذا بسقتْ[194]] ، والألحاظ وما حرست والألفاظِ وما غرستْ[195] ، والغدائرِ وما أضلَّتْ[196] ، والبشائرِ إذا أطلَّتْ ، والنَّواسِمِ

---

(١٨٥) هو أبو دلف العجلي (القاسم بن عيسى) كان شاعراً جواداً فاضلاً ، شجاعاً ، قلّده الرشيد وهو حديث السن أعمال الجبل فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة ٢٢٥ هـ . (معجم الشعراء ٣٣٤) .

(١٨٦) جنان هي صاحبة أبي دلف ، وله فيها شعر كثير من مثل قوله : (معجم الشعراء : ٣٣٤)

أحبُّك ياجنان وأنت مِنّى مكان الروح من صدر الجبانِ
ولو أني أقولُ مكانَ روحي خشيتُ عليك بادرة الزمان

(١٨٧) هي عنان الناطفية ، كانت جارية في بغداد ، وتغزَّل فيها أبو نواس

(١٨٨) هو أحيحة بن الجُلاح الأوسي ، ولقبه أبو عمرو ، شاعر جاهلي ، من فرسان العرب وسادتهم .

(١٨٩) الزوراء : بستان كان يملكه أبو عمرو (أحيحة بن الجلاح) ، وقد ذكره في شعره ، فقال :

إني أُقيم على الزَّوراءِ أعمُرُها إنّ الكريم على الإخوانِ ذو المالِ

(١٩٠) هو السموأل بن عادياء ، صاحب حصن الأبلق ، اشتهر بالوفاء والحكمة ، وله في ذلك أخبار مشهورة .

(١٩١) في ت : عن عاديه الأقدم

(١٩٢) سليم : قبيلة من قيس عيلان ، وسليم أيضاً : قبيلة في جُذام من اليمن ولم أقف على شخصية إسحاق أو علاقته بها ، وقيل لمضر الحمراء ، لأن شعارهم في الحرب كان العمائم والرايات الحمر . (اللسان : مضر) .

(١٩٣) إشارة إلى قول طرفة في معلقته :

وتقصير يوم الدجن والدجنّ معجبٌ ببهكنةٍ تحت الطِّرافِ المُمدَّدِ

(١٩٤) ما بين القوسين سقط من (ت) .

(١٩٥) في الأصل : عرست

(١٩٦) إشارة إلى قول امرىء القيس في معلقته :

غدائرها مُستشزراتٌ إلى العُلا تضلُّ المدارى في مُثنّى ومُرْسَلِ

ومريضِ طروقِها ، والمباسِمِ ووميضِ بروقِها(١٩٧) ، وزُرْقِ نُطفِ الحياض(١٩٨) ، وحديثٍ كقطعِ الرِّياض(١٩٩) [على مثلها](٢٠٠) مِن خمائِلَ أُحملت(٢٠١) بالنَّوْر ، وغلائِلَ نُشِرَتْ فى النَّجد والغوْر ، ويومٍ غابَ عُذَّالُهُ عن الأفراح ، وليلٍ شَابَ قَذَالُه(٢٠٢) بنجومِ الرَّاح ، وعقيرٍ مجروح ، وعفيرٍ مطروح ، وروحين انتظَما ــ لُطْفاً ــ فى رُوح ، وأباريقَ تمجُّ الرَّحيق(٢٠٣) ، وتُشْجُ بالرِّيقِ ، مُدَّتْ بسوالِفِ الظِّباءِ فى هَبَّاتِها ، وشدَّتْ أزرارَ الحَبابِ على لبَّاتِها ، والقيانِ إذا عَمَدْنَ ، فأصْلَحْنَ وأفسَدْنَ ، وتناهبنَ الدُّرَّ ، وتجاذبنَ السِّحْر ، وحسابِ أوتارٍ ، تُلْقيه أيمانٍ على أيْسَار(٢٠٤) ، بكُلِّ خَفيفٍ ، ذى حَفيف ، صَؤُولٍ صَخُوبٍ(٢٠٥) ، ذى فؤادٍ كأفئدةِ السامعيهِ مَنْخوب(٢٠٦) :

عَطَوْنَ به حتَّى جرى فى أديمِهِ ... أصابيعُ مِن لَبَّاتهنَّ وطِيبُ

يمينُ برٍّ لا يمِيْنُ ، ولو ذهبتْ فيه الشِّمالُ واليمين ، وأليَّةٌ ، دون مثنويَّة ، غَمُوس(٢٠٧) يُعيى فَتْقَها الرَّاقِع ، وتَذَرُ الدِّيارَ بلاقِع(٢٠٨) ، بل أُقسِمُ

(ديوانه ١٧)

وفى ت : وما أظلّت .

(١٩٧) ينظر إلى قول عنترة :

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها ... لمعت كبارقِ ثغرِك المتبسِّم

(١٩٨) ينظر إلى قول زهير : (ديوانه : ٢٢)

فلما وردن الماءَ زرقاً جمامهُ ... وضعنَ عصىَّ الحاضرِ المتخيِّم

(١٩٩) ينظر إلى قول بشار :

وكأنَّ رجعَ حديثِها ... قِطَعُ الرِّياضِ كُسِينَ زهرا

(٢٠٠) زيادة من (ت) .

(٢٠١) فى الأصل : أخملت .

(٢٠٢) القذال : جماع مؤخر الرأس .

(٢٠٣) ينظر إلى قول أبى نواس (ديوانه : ٤٣)

لكنّما العيشُ فى اللذّات متكئاً ... وفى السَّماع وفى مجِّ الأباريقِ

(٢٠٤) فى ت : يمينٌ على يسار

(٢٠٥) فى الأصل : صخور ، تصحيف .

(٢٠٦) منخوب : منتزع ، من : نخب الشىء ، نزعه .

(٢٠٧) الغموس : الكاذبة ، والأليَّة : اليمين .

(٢٠٨) فى الحديث : « اليمين الكاذبة تدع الديار بلا قع » أى خالية .

بالأصادق ، والفجرِ الصَّادِق ، وارتماءِ البوارِق ، و ﴿ والسَّماءِ والطَّارِق ﴾[٢٠٩] ، بل بالمغاربِ والمشارق[٢١٠] ، قَسَماً لايكونُ حَنْثاً ولا مَنْدَماً ، إنَّ قَدَمكَ فى البلاغةِ والتحبيرِ ، لأرسى من ثَبير[٢١١] ، ومن كُلِّ جَبَلٍ أشمَّ كبير ، وإنَّك لأثبَتُ فى الإحسانِ من حَسَّان[٢١٢] [ومن آلِ جفْنَةَ فى غسَّان[٢١٣] ، ومن ربيعةَ فى كنانة ، وحارثةَ فى غُدانة[٢١٤] ، ومِن زيادٍ فى ذُبيانِ[٢١٥] ، وبِسطام[٢١٦] فى شيبان][٢١٧] ، ومِن شَهل فى زِمَّان[٢١٨] .

فما معنى الانتفاء[٢١٩] والانتفال ، بعد الاحتفاءِ والاحتفال ؟ ولو قال الغمامُ الهاضِبُ : أنا جَهَام[٢٢٠] ، ونادى الحُسَامُ القاضِبُ : إنى كَهَام[٢٢١] ، لقيل : ياسَكُوبُ ! قد قامتْ بثنائِك السُّهولُ والأوعار ، ويارَسُوبُ[٢٢٢] ! قد شَهِدَتْ بمضائِك النُّدوبُ والآثار[٢٢٣] ، فإلى أين ياأسيرَ كمالِه وضيائه ، وقصيرَ جمالِه وبهائه ؟ أما علمت أنَّ الأقمارَ لا تبرحُ [٣٨/ ب] من هالاتِها ، ولا تنزَحُ عن حالاتِها ؟

---

(٢٠٩) سورة الطارق : (١)

(٢١٠) فى ت : لا بل برب المغارب والمشارق .

(٢١١) ثبير : جبل بمكة .

(٢١٢) هو حسَّان بن ثابت الأنصارى ، شاعر الرسول ﷺ

(٢١٣) آل جفنة : هم ملوك الغساسنة ، سموا بذلك نسبة إلى أول ملوكهم جفنة بن عمرو مزيقياء ، وفيهم يقول حسان بن ثابت : (ديوانه ٣٦٥)

أولاد جفنة حول قبر أبيهمُ قبر ابن مارية الكريم المفضلِ

(٢١٤) هو حارثة بن بدر الغُدَانىّ ، أحد التابعين ، وله شعر .

(٢١٥) زياد بن معاوية (النابغة الذبيانى)

(٢١٦) هو بسطام بن قيس الشيبانى ، سيّد شيبان فى الجاهلية ، وأحد فرسانها المبرَّزين

(٢١٧) ما بين القوسين زيادة من (ت)

(٢١٨) هو شهل بن شيبان ، وكنيته (الفِند الزِمَّانى) نسبة إلى زِمّان قبيلته ، وهو شاعر جاهلى . وفى الأصل : سهل وهو تصحيف .

(٢١٩) فى الأصل : الانتفاد

(٢٢٠) الجهام : السحاب الذى لا يمطر ، والهاضب : الذى يمطر

(٢٢١) الكهام : الذى لا يقطع

(٢٢٢) الرسوب : سيف حين يغيب فى الضريبة

(٢٢٣) فى الأصل : الأثار : تصحيف

وأمّا الظَنُّ المستبهِمُ الذّى رجْمهُ ، والغيبُ المستعجِمُ الذّى قد عَجَمه ، فلولا أنّها أنفاسٌ ، قد حَصَرتْها أنقاس[٢٢٤] وأوهامٌ ، صوّرتْها أقلام ، فتخالُ منها كُلَّ حَرْفٍ ، شَخْصاً ينطِقُ بلسانٍ وينظُرُ بطَرْفٍ [وسنان][٢٢٥] ، لقلتُ : حديثُ نَفْسٍ لَفّه التجاوز فى مُلاءَتِه ، وصرفَه الملكُ عن حِفْظِهِ وكَلاءَتِه ، وكيف يُظَنُّ بى احتقارُ الغَرْب[٢٢٦] ، وهو مطلعُ نجومِ العُرْب ، ولو لم أكن إليه مُنحازاً ، ومِن سواه مُمْتَازاً ، تشهَدُ بذلكِ الخدودُ السّاطِعة ، والخطوطُ المتقاطِعة ، وأنواءٌ من هنالِك تستَقل ، وتوافينا وقد كادتْ تكلّ ، وتُجاوِزنا فلا تَسْتهِلّ ، فبكم تُفتتح ، وبنا تُخْتَم ، وعندَكم تسرحُ[٢٢٧] وعندنا تُخيّم ، وأقَلُّ حقوقِها أنّا ــ جميعاً ــ بها نرتضِعُ من خِلْف[٢٢٨] ، ونَرْجعُ إلى أُخوّةٍ أو حِلْف ، لما حطَّ ــ إلاّ فى تلك الدِّمَنِ ــ رَحْلٌ[٢٢٩] ، وإلاّ فهو دَيْنٌ على الزّمان بل ذَحْلٌ[٢٣٠] ، وما يُلائِمنى من الأوطانِ ، حيثُ يطْلعُ قَرْنُ الشّيطان[٢٣١] ، ولو لم يتعرّف الغَرْبُ إلاّ بأنظاره الرّحيبة ، وأمطارِه المُصيبة ، وأطرارِهِ[٢٣٢] الخَصيبة ، ولم ينزلْه مَنْ نَزَلَهُ مِن الصُّدورِ الأعاظِم ، والبحورِ الخضارِمِ[٢٣٣] ، والسُّيـــــوفِ الصّوارِمِ ، واللّيـــــوثِ الضّراغِم ؛ لكفاهُ شَرَفاً ممدودَ رواقِ السَّناء ، أخْذاً بآفاقِ السّماء ، إنّه به لعُطاردُ فَلك ، وأنْ ليسَ وراءَه فى اتّقادِ النُّبل ، واعتقادِ الفَضْلِ مَسْلك ،

---

(٢٢٤) أنقاس (جمع نقس) وهو المِداد ، وفى الأصل : أنفاس ؛ تصحيف

(٢٢٥) سقطت من (ت)

(٢٢٦) الغرب هنا : غرب الأندلس الذى ينتمى إليه ابن عبدون ، فهو من يابرة إحدى كور باجـة .

(٢٢٧) فى ت : وعنكم تنزح

(٢٢٨) الخِلْف : الضرع ، و فى الأصل : من خلق ؛ تصحيف .

(٢٢٩) فى الأصل : رجل ؛ تصحيف

(٢٣٠) الذحل : الثأر ، وفى الأصل : دحل ؛ تصحيف

(٢٣١) فى الأثر : « الشمس تطلع بين قرنى شيطان .... »

(٢٣٢) الأطرار : جمع (طرة) وهى طرف الوادى أو النهر

(٢٣٣) الخضارم : الواسعة .

فليهيء العنقاء أنَّ عدمها حقن دمَها ، وإذا صِيدَ الفرا — وكُلُّ الصَّيْدِ فى جوفِه[٢٣٤] — فما يُؤَمِّنُها من خوفهِ ؟

كلَّفنى — أيده اللّهُ — شأو استطاعتِه ولولا حقّ طاعته الذى لا أدينُ بإضاعتهِ[٢٣٥] ، لما ألممتُ ببضاعته[٢٣٦] ، ولآثرتُ السُّكوت رِقبةً ، ولم أنطق حِقْبَةً . وكم حطَطْتُها عن المراقى ، وَرَدَدْتُها وراء التَّراقى ، وصرفتُها إلى غيرِ التَّلاقى ، ونَحالجتْنِها عَذارى أمورٍ ، وبناتُ صدور ، سكنَّ الجوانحَ بدلَ الخُدور ، وأنا أبرأُ إليهِ [٣٩/أ] مِن فؤادٍ مفؤود ، وضميرٍ مزؤود[٢٣٧] ، وبديهةٍ بكيَّة[٢٣٨] ، ورويّةٍ غيرِ رويّة :

وكلَّفنى خـوفُ ابنِ عبدونَ ردَّها فأرجائُها حَوْلاً كريتاً[٢٣٩] ومَرْبعا
وقد كان فى نفس ورأيى اطّراحُها فلم أرَ إلاَّ أن أُطيـعَ وأسمَعـا

وإذا مُتِّعتُ ببقائِه ، ولقيتُ الكمالَ بلقائِه ، وَوَقَعَ وَبْلُهُ يرتاد ، وارتفعَ بينى وبينَه الإسناد ، واستدركَ لى اليومُ فائِتَ الأمْس ، وأغنَتْ عن زُحَل طلعةُ الشَّمس[٢٤٠] ، فالزَّمانُ إلى هواى مُسَارِع ، ولِرضاى مُضارِع ، وبمُرادى [بدرٌ][٢٤١] تمَّ طالع ، وعلى الأعادى خَصْمٌ ضالِع .

متع اللّهُ المجدَ بسناه ، وأطلعَ العهدَ الذى أطلعه وأدناه ، وحرسَ رياستَه وعُلاه ، ونفسَ نفاستَه ، وشرَّفَ حُلاه ، فاعْلُ عُلُوَّ الشَّمْسِ ، وأصبِحْ فى السُّرورِ وأمْسِ ، تهمى عليكم النِّعَمُ والسُّعود ، ودُمْ حتَّى يعودَ أمسٍ لعلمى أنَّه لايعود !

---

(٢٣٤) من المثل : « كل الصَّيد فى جوف الفرا »
(٢٣٥) فى الأصل . بإصاعته ، تصحيف
(٢٣٦) ،، ،، : ببصاعته ؛ تصحيف
(٢٣٧) مزؤود : أصابه الفرع ، ورأده : أفزعه .
(٢٣٨) بكية : صعيفة ، كليلة
(٢٣٩) الكريت : التام
(٢٤٠) إشارة إلى قول المتنبى (ديوانه ٣ : ٢٠٥)

خـذ ماتراه ودعْ شيئاً سمعـت بـه فى طلعة الشَّمس مايغنيـك عن زُحـلِ

(٢٤١) زيادة يقتضيها السياق

وسلامُ الله يُهدى اتصالاً ، ويندى بكرةً وآصالاً ، ويتفاوحُ طيباً ، ويتناوحُ فى ذُراك خطيباً ، ويتراوحُ سُرىً وتأويباً ، على إمامى [الأسنى][242] الأسمى ، وغَمامى [الأهنى][243] الأهمى ، ورحمةُ اللّهِ وبركاته تتابَعُ وتحمى .

(٢٤٢) سقطت من (ت)

(٢٤٣) سقطت من (ت)

[٣٥]

وكتب أحدُ الكتَّابِ فى الترجيح بين الصّابى[١] والبديع[٢] ، وقد سُئِل فى ذلك ، وهو أبو محمَّد بن القاسِم[٣] :

البديعُ والصّابىُّ — أعزّكَ اللهُ — فيما يتجاذبانه[٤] من أهدابِ البيان فرسا رِهَان ، جَرَيا[٥] منه إلى مدى فأدركاه ، وتناولاه من عفوٍ فملكاه . هذا يَبْلُغُ شأوه عَفْواً ، وذاك يجَهدُ إليهِ عَدْواً ، وكِلاهُما يغرِفُ من بحرٍ ، ويقذِفُ فى نحرٍ[٦] ، فالبديعُ إذا رفعَ[٧] أبدَع ، والصَّابى إذا صابَ أصابَ ، بيدَ أنَّ البديعَ

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصّابى (٣١٣ – ٣٨٤) من أبرز كتاب الدولة العباسية ، وكان كاتب الإنشاء ببغداد لعز الدولة البويهى [يتيمة الدهر : ٢٣ – وفيات الأعيان ١ : ٣٤]

(٢) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين ، بديع الزمان الهمذانى (٣٥٨ – ٣٩٨ هـ) صاحب المقامات المشهورة ، نشأ فى همدان وانتقل منها إلى جرجان ونيسابور ، ثم ألقى عصاه بهراة وظل بها حتى وفاته .

[يتيمة الدهر ٤ : ١٦٧ ، وفيات الأعيان ١ : ١٠٩]

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن القاسم الفهرى ، كان أميراً على حصن البونت من أعمال بلنسية ، ولقب بـ « جناح الدولة » ، وقد بقى على إمارته حتى سنة ٤٨٥ هـ حين دخلت الإمارة فى حوزة المرابطين كبقية إمارات ملوك الطوائف فعاش بقية حياته فى (سلا) بالمغرب ، وكان كاتباً أديباً ، وترجم له الفتح فى القلائد (١٢٧) ولقبه بالوزير الكاتب ، وأورد له نماذج من رسائله ، كما ترجم له ابن سعيد فى المغرب (٢ : ٣٩٦) ووصفه بـ « الأمير » وأورد بعض أشعاره .

ويتضح من تقديم الرسالة أن صاحبها كتبها بناء على رغبة أحد الأدباء (لم يذكر اسمه) للترجيح والموازنة بين الصابى والبديع ، وقد رجّح أسلوب بديع الزمان كما سيتضح من الرسالة ، وهى تُعدُّ من الرسائل النقدية المهّمة .

(٤) فى الأصل : يتحاذبانه : تصحيف .

(٥) فى الأصل : حرى : تصحيف .

(٦) فى الأصل : بحر . ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٧) كذا فى الأصل . ولعلها وقع

إذا وَصَفَ رصَفَ ، والصَّابى إذا رام مَرَامَه دلَفَ فى خطوهِ إليه ورسَفَ ، وشتّان بين الكلامِ المطبوع [٣٩/ب] والمنَّمقِ المصنوع ، وإنَّ أحقهما عندى بالتقديم ، وأحذقَهما[٨] بِفَرْى الأديم ، مَنْ سلِمَتْ مبانى كلامِه من التكلُّف ، وكَرُمَتْ معانى نظامِه عن التعجرف ، والأعدلُ فى الحُكْمِ عن الإقرارِ بالفَضْلِ ، لأبى الفَضْلِ ، فى سماحةِ[٩] الطَّبع ، ورجاحـةِ الوضْع ، ولأبى إسحاق فى قوَّةِ أسر الكلام ، وشدَّةِ النَّزْع ، وإنَّهما ليرميانِ معاً إلى غرضِ الإحسان ، وكلاهما فى إصابةِ المرمى البعيدِ منه سيَّان ، غيرَ أنَّ البديعَ أعرقُ[١٠] نَزْعَاً وأفصح ، والصَّابىَّ أوسعُ باعاً فى ميدانِ الإسهابِ وأفسح .

لاجَرَمَ أنَّهما فارِسا الحَلْبَةِ بالإجماع ، وإماما القومِ فى حُسْنِ الاختراع ، فإليهما منتهى الحدّ ، وعليهما تُثْنى الخناصِرُ فى العدِّ ، إنْ شاءَ اللّه ، والآن قد أفضى بنا القولُ فى المفاضلة[١١] بين البديعِ والصَّابى إلى ما أثبتناه ، ووفَّينا كُلاًّ حقَّه من الوصف ، فلم نُنزِه[١٢]منه شيئاً ولا ألتناه[١٣] ، ولم أستدل فيما ذكرتُه بهوادة ، ولا تزيَّدتُ عليه بمزوّر شهادة ، والسَّلام .

(٨) فى الأصل : واحد فهما ؛ تصحيف .
(٩) فى الأصل : شجاحة ؛ تصحيف .
(١٠) فى الأصل : أغرق ؛ تصحيف .
(١١) فى الأصل : المفاصلة ؛ تصحيف .
(١٢) نزه : بعد ، تباعد
(١٣) ألتناه : أنقصناه وحططناه ، وهو من قوله تعالى : « وما ألتناهم من عملهم من شىء » أى ما أنقصناهم . [سورة الطور : ٢١]

[٣٦]

وكتب إليه فى ذلك* أبو عبد الله بن أبى الخِصال[١] بما نسختُه :[٢] :

ياسيِّدى[٣] الذى كَرُمَتْ عناصِرُه ، وقَدُمَتْ أواصِرُه ، وعَذُبَتْ محانيه ومكاسِرُه[٤] ، ويعزُّ علىَّ أن لا أُياسِرُه[٥] !

عَرَّفكَ اللّهُ الحقوق ، وكرَّه إليكَ العقوق ، وتخلَّصك من دواحِضِ الحُجَج ، ومدَاحِضِ الزَّلَج[٦] ، وحملَك على المَهْيَع والمَنهج ، ورماك بجهينةَ اليقين[٧] والثَّلَج .

الحكومة — أعزَّك اللّهُ — كما عَلِمت — صَعْبٌ مُرتَقَاهَا ، بعيدٌ مُلْتَقَاهَا ، وقديماً تجنَّبها الحُزَماءُ ، وحادَ عنها الحُكَماء ، وقد كان أهلُ الجاهليَّةِ — حيثُ لاقُرآن يَرْدَع ، ولا بُرْهانَ يَسْطَع ، وليس إلاَّ مُقْتَضى النَّظر ، ومُنتضى العقول

---

* هذه الرسالة ردٌّ كتبه أبو عبد الله بن أبى الخصال على رسالة ابن القاسم المتقدمة ، وهو — هنا — ينكر عليه حكمه فى تفضيل بديع الزمان ، ويحتج للصَّابى ويفضله على البديع .

(١) أبو عبد الله بن أبى الخصال ، رئيس كتاب الأندلس (٤٦٥ — ٥٤٠ هـ) وقد سبق التعريف به .

(٢) وردت هذه الرسالة فى (ترسل ابن أبى الخصال ٢٨/ب — ٣١/ب] وسأقابل عليها مشيراً لها برمز (ت) .

وقد صُدِّرت فى (ت) بهذه العبارة : « وكتب أبو عبد الله بن أبى الخصال إلى الوزير الكاتب أبى محمد بن القاسم يردُّ عليه فى رسالته التى فضَّل فيها بديع الزمان الهمذانى على أبى إسحاق الصَّابى]

(٣) فى ت : سيدى

(٤) المحانى : منعطفات الوادى (جمع محنية) ، والمكاسر : أصول الشجر (جمع : مكسر)

(٥) فى ت : أبى لا أياسره .

(٦) الزَّلج . السقوط

(٧) من المثل : « وعند جهينة الخبر اليقين » (الميدانى ١ : ٤٦٤)

والفِطر ، يهابون كُلَّ المهابةِ مَواطِنَها ، ويَكِلُون إلى التَّهادى والكتمانِ بواطنَها ، فلَّما غشيهم [٤٠/أ] الإسلامُ ، ووجبَ الإعلانُ والإعلام ، رُجِىَ أن تستفزَّ الأحلام ، وتُفْسَخ تلك الأحكام ، ويُؤْثَر بترجيحِها وتفضيلِها الكلام ، فاشتدَّتْ عند ذلك الضَّنانَة ، واستدَّتْ[٨] على ذاتِ أنفُسِها الصِّيانة ، وأمْرُ هَرِم بن قُطْبة[٩] فى ذلك مشهورٌ ، وخَبَرُهُ مع الفاروق عَلَمٌ فى رأسِهِ نُور ، حين استنزلَه فنفر ، وسأله من كان ينفِّرُ لو نَفَر ، فلم يجد لنفسِهِ فى التَّرجيح سَعَة ، وقال : لو قُلتُها [اليومَ][١٠] ياأميرَ المؤمنينَ لأعْدْتُها جَذَعة ، فأثنى عُمَرُ — رضى اللَّهُ عنه — على عَقْلِهِ وإدراكِه ، وأعجبَه ما كانَ من بُخْلِهِ وإمساكِه[١١] !

ولضيقِ هذا المسلكِ وَوَعْرِهِ قالوا : « أشعَرُ النَّاسِ من أنتَ فى شِعْرِهِ »[١٢] وإنْ كان لكُلٍّ مَذْهَبٌ ينتحيه ، ورأىٌ إلى أوليائِه يُزْجِيه .

فالحذرَ من النُّصوصِ ، والبَيان — مالم يخرجْ إلى العُمومِ عن الخصوص ،

---

(٨) استدَّ وسدَّ بمعنى واحد

(٩) هو هرم بن قطبة بن سيّار الفزارى ، حكم من حكام العرب ، كان يقضى بين السَّادات فيرضون بقضائه ، وتوفى بعد سنة ١٣ هـ ، وكان عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة قد تحاكما إليه — وكلاهما سيِّد فى قومه — فكره أن يفضِّل بينهما ، وهما ابنا عم ، فيوقع بذلك عداوة بين الحيَّين ، وقال لهما : « يابنى جعفر ، قد تحاكمتما عندى ، واللّهَ إنكما كركبتى البعير الأدرم (الذى تراكب لحمه وشحمه) أو كَفَرَسَى السَّيف ، وليس أحد منكما إلاَّ وفيه ماليس فى صاحبه ، وكلاكما سيِّد كريم » ، وعمد بنو هرم إلى الجُزُر فنحروها وفرَّقوا بين الناس ، وخرجا من عنده راضيين ، (سرح العيون : ١٦٥) وقد ضرب بهرم بن قطبة المثل فى حكمته فقيل : « أحكم من هرم بن قطبة » (الميدانى ١ : ٢٣٢)

(١٠) زيادة من ت .

(١١) تفصيل هذا الخبر أن عمر بن الخطاب — رضى اللّه عنه — كان يحبُّ هَرِم بن قُطبة المقدَّم ذكره بعد أن أسلم ، فقال له يوماً : يا أبا عمرو ، أيُّهما كنت تنفِّر ؟ — يعنى علقمة وعامراً — ، ومن كان الأفضلُ منهما ؟ فقال : لو قلتُ الآن فيهما كلمة لعادت جذعة — يعنى الحرب بين الحَيين — فأعجب بهذا القول منه ، وقال : بحقٍّ حكَّمتك العرب »
[سرح العيون : ١٦٩]

(١٢) ذكر ابن قتيبة هذه العبارة فى (الشعر والشعراء : ٩) فقال : « ولِلّه درُّ القائل : أشعرُ الناس من أنت فى شعره حتى تفرغ منه » .

ولم يثبتْ[١٣] فى الصُّحُفِ كالبُنيانِ المرصوص ، هَباءُ حَلبة[١٤] ، أو بهاءُ عُلْبَة[١٥] ، يعلو ويثور ، ولا يكونُ إلاَّ ريثَ مايحور ، فأمَّا ما يُدَوَّنُ ويُخَلَّدُ ، فقد أصبحَ مذهباً[١٦] يُتقلَّد ، وغَرَضاً[١٧] يتشعَّبُ فيه القولُ ويتولَّد .

ولا يخلو أُمَرَاءُ[١٨] الكلام من أتباعٍ يمشون على مَدْرَجِهم ، ويقدمون[١٩] بُحجَجِهم ، ويذبُّون عن منهجِهم ، ويحمُون حِماهُم ، ويَرْمُون مَنْ رماهم .

ووقفتُ لك منذ أيَّامٍ على نَفَثَاتٍ غُرٍّ ، وكلامٍ بين البديعِ والصَّابى حُرٍّ[٢٠] ، عالٍ تناولَه خاطِرُك من عُلوّ ، ووقعتْ طَيْرُ القلوبِ منه على ثَمَرٍ حُلو . لكنَّك ــ واللَّهُ يغفِرُ لك ــ جَرَّعْتَ الصَّابى منه صابا[٢١] ، وملأتَ صدورَ شِيَعِهِ أوصابا ؛ فهم بين جموعٍ منفضَّة ، ودموعٍ مُرْفضَّة[٢٢] ، ونواظِرَ كَليلة ، وخواطِرَ فَلِيلَة ، ﴿ ينظرونَ مِن طَرفٍ خَفىٍّ ﴾[٢٣] ، ويتظلَّمون منكَ مِن بَرٍّ خَفِىّ ، لا يستقلُّ لهم لواء ، و ﴿ لا يرتدُّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتُهم هواء ﴾[٢٤] !

---

(١٣) فى الأصل : ينبت ؛ تصحيف .

(١٤) ،، ،، : حلية ؛ تصحيف .

(١٥) ،، ،، : عليه ؛ تصحيف ، والعلبة : القدح الذى يحلب فيه
وهو هنا يشبه البيان ــ الذى لم يثبت فى الصحف ــ بغبار حلبة السباق ، وبرغوة اللبن .

(١٦) فى الأصل : مدهبا ؛ تصحيف .

(١٧) ،، ،، : عرضا ؛ ،،

(١٨) فى ت : البلغاء .

(١٩) فى ت : ويقولون .

(٢٠) أى أنه وقف على رسالة ابن القاسم المتقدمة.
وفى ت : بين الصابى والبديع .

(٢١) أى أن ابن القاسم جار فى حكمه على أبى هلال الصَّابى .

(٢٢) ارفضَّ الدمع ارفضاضاً سال وتفرّق وتتابع سيلانُه وقَطَرانُه .

(٢٣) الشورى : بعض آية ٤٥ ، والآية بتمامها : « وتراهم يُعْرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ، وقال الذين آمنوا إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيام ألا إنَّ الظالمين فى عذاب مقيم »

(٢٤) إبراهيم : بعض آية ٤٣

مهلاً ! فداكَ الأقوامُ ، ولا عَدَاكَ القَصْدُ والقَوامُ[٢٥] فالقضاءُ جِدُّ عسير ، والخَطْبُ ـــ وإن اجتهدتَ ـــ غيرُ يسير .

وإذا استقادَكَ هواك فلا تَهِمْ ، وإذا نظرتَ بعينِ رضاكَ [٤٠/ب] فاتَّهِمْ ، فالموازنَةُ كالمبارزة ، إنَّما تكونُ بالوفاء ، ومُقارَعةِ الأكفاءِ بالأكفاء[٢٦] ، ولذلك أبَتْ قُريشٌ إلاَّ أقتَالَها[٢٧] ، وسمَتْ من الأنصارِ ـــ رضوانُ اللّهِ عليهم ـــ عمَّن سَما لها ، فاتَّقاهُم رسولُ اللّهِ ـــ صلَّى اللّهُ عليه وسلّم ، بأندادِهم ، ورماهُم مِن صميمِ عِترتِهِ بأعدادِهم[٢٨] ، فعضُّوا على النَّواجذِ عَضَّاً ، وقرعَ النَّبعُ[٢٩] بعضُهُ بَعْضاً ، وقد قال مُهَلْهِل ما قال فى بُجَيْر[٣٠] ، وآمِنَ من القَوَدِ قَاتِلُ الزُّبير[٣١] ـــ وطال على القِصَرِ ـــ عُمر عُمَيْر[٣٢] ، ويُنْشَدُ فى مِثْلِهِ :

---

(٢٥) القوام : العدل

(٢٦) الأكْفَاء (جمع كفء) وهو النِدُّ والنَّظير .

(٢٧) الأقتال : النظراء والأنداد ، جمع (قِتْل) .

(٢٨) تفصيل هذا الخبر فى السيرة النبوية (١ : ٦٢٥) ، ففى غزوة بدر خرج عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة للمبارزة ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة وهم : عوف ، و معوِّذ ، ابنا الحارث ورجل آخر ، يقال : هو عبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا : مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم : يامحمد ، أخرجْ إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ « قم ياعبيدة بن الحارث ، وقم ياحمزة ، وقم ياعليّ) ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : نعم ، أكفاء كرام » ، وقيل إن عتبة بن ربيعة قال للفتية من الأنصار ـــ حين انتسبوا ـــ أكفاء كرام ، إنما نريد قومنا » .

(٢٩) النَّبع : شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القِسِىّ .

(٣٠) تفصيل هذا الخبر أنَّ الحارث بن عبَّاد بن مالك أرسل ابنه بجيراً ـــ وقيل ابن أخته ـــ إلى مهلهل بن ربيعة (الشاعر التغلبى) ـــ وهو أخو كليب الذى قتله جسَّاس وقامت بسببه حرب البسوس ـــ وقال الحارث لابنه : قل لمهلهل : أبو بجير يقرئك السلام ، ويقول لك : قد علمت أنى قد اعتزلت قومى ، لأنهم ظلموك ، وخلَّيتك وإيَّاهم ، وقد أدركت وترك ، ولكنَّ مهلهلاً قتله وقال فيه : « بؤ بشسع نعل كليب » : (سرح العيون ٩٨)

(٣١) قاتل الزبير بن العوام هو عمير بن جرموز ، وكان ذلك عقب أحداث الجمل ، والقَوَد : القصاص ، ويروى أنَّ علياً بشَّر ابن جرموز بالنار لحديث سمعه عن الرسول ﷺ [تاريخ الطبرى ٤ : ٤٩٩]

(٣٢) هو عمير بن جرموز قاتل الزبير .

* فغضِّ الطَّرْفَ إنّكَ مِن نُميرٍ[٣٣] *

وبدونِ هذا صعقَ جذيمةُ من النّدم[٣٤] ، وضَرَّجَ[٣٥] ما أنف الخاطِب بدَم ![٣٦] وأبو الفضْلِ[٣٧] — وإن كان كما سُمِّى بديعاً ، ولأخلافِ البلاغةِ رضيعاً ، لا يُقَاسُ بأبى إسحاقَ رَأْساً ، ولا يجعَلُ له سلماً ولا بأساً ، لأنَّهما وإنْ جمعَهما أصلُ اللّسان ، ومُزَاولةُ الإحسان ، كالثُّريا وسُهَيل لا يلتقيان[٣٨] ، ولا يشتبِهان فيما يَنْتَقيان[٣٩]

أبو إسحاق[٤٠] معينُ القولِ ، مُقْدِمٌ على الهَوْلِ ، يصولُ صَوْلَةَ[٤١] القَرْمِ فى الشَّوْلِ[٤٢] ، إنْ غضبَ حسبتَ النَّاسَ غِضَابا[٤٣] ، ورأيتَ السهولَ وعوراً وهِضَابا ، أو رَضِىَ أعادَ المشيبَ شبابا ، وفتِّحت السَّماءُ أبوابا[٤٤] ، وضَربت

(٣٣) هذا صدر بيت لجرير ، وعجزه : (ديوانه ١٨٢)

* فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا *

(٣٤) جذيمة : هو حذيمة الأبرش أول من قاد العرب وملك على قضاعة ، وكانت منازله الحيرة والأنبار ، « وكان لجذيمة أخت تسمى رَقاش ، وهى بكر ، فأحبَّتْ عدىَّ بن نصر وأحبَّها ، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكر ، ففعل ذلك وزوَّجه بها (وهو سكران) ، وأشهد عليه من حضر ، فلما أفاق وعلم ندم ، وأكبَّ على الأرض مفكراً ، وهرب عدىّ لم يعرف له أثر ولا خبر » [سرح العيون : ٧٨]

(٣٥) فى الأصل : وصرّح ؛ تصحيف .

(٣٦) ينظر إلى قول مهلهل (اللسان : ضرج) .

لو بأبانين جاء يخطبها ضرّج ما أنف خاطب بدم

وضرج أنفه بدم : أدماه ، وفى الأصل : وضرج ما أنفث الخاطب .

(٣٧) أبو الفضل أحمد بن الحسين ، بديع الزمان الهمذانى ، وقد سبق التعريف به .

(٣٨) ينظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة : (ديوانه ٢٢٩ ق ٤٣٠)

أيها المنكح الثريا سُهيلاً عمرك الله كيف يلتقيانِ

(٣٩) فى الأصل : فيما يلتقيان ، وما أثبتناه عن (ت) .

(٤٠) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابى ، وقد سبق التعريف به .

(٤١) فى الأصل : صول .

(٤٢) الشول : الإبل التى نقص لبنها وفصل عنها أولادها ، فلا تزال شولاً حتى يرسل فيها الفحل (اللسان : شول) ، والقرم : الفحل يودع للضراب .

(٤٣) ينظر إلى قول جرير (ديوانه ٨٢٣)

إذا غضبتْ عليك بنو تميم حسبتَ النّاس كُلّهم غِضابا

(٤٤) يقتبس من قوله تعالى : « وفتِّحت السماءُ فكانت أبوابا » النبأ ١٩

النّجومُ قِبابا ، ولبست الأرضُ مِن وشى النَّوْرِ ثِيابا !

كُتُبُه تُغنى عن الكتائِب ، وتُقيمُ المجرمَ مقامَ العائذِ التَّائِب . كم جُيوش فلَّت ، وعزائمَ نقضتْ وحَلَّتْ ، ورقابٍ كرقابِ الأُسْدِ أذلَّتْ .

وكيفَ تُجَارى أقلامٌ رضعت[٤٥] الخلافةُ الهاشميَّةُ بلِبَانِها ، وأوت إلى ربوةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعينٍ[٤٦] من بيانِها ، ونطقتْ فأفحمت النَّاطقينَ بلسانِها ، وأخذتْ على الأيَّامِ بطَرَفَىْ شمائِلها وأيمانِها ؟

إنْ عَزَّى سَلَّى ، أو عاتبَ سَرَّى وجَلَّى ، وأمرَّ وأحْلى ؛ أو مَدَحَ توَّجَ وحَلَّى ، أو قَدَحَ أخْلَقَ وأبلى ، أو عزَّ سَوَّلَ وأملى . لا جَرَمَ إنَّ له القلمَ الأعلى[٤٧] ، والذُّروةَ الباسقةَ لا تُظْهَرُ ولا تُعْلى .

فأمَّا نَظْمُهُ [٤١/أ] فالأرىُ المَشُور ، والفُستُقِ المقشور ، والخسروانىُّ المنشورِ ، ووجهُ الحبيبِ يملأُ عينَ مُحبِّه ويصور[٤٨] ، يزيدُ فى السَّبْكِ أضعافاً وينصَع[٤٩] ، وتودُّ الثغورُ أنَّها بكلماتِهِ الغُرِّ تُصَرَّعُ أو تُرَصَّع[٥٠] ، وهو — بَعْدُ — على مَهْيَعِ العَرب ، وأسلوبها الأبعدِ الأقرب ، لا يُخْرَمُ توفيقَها ، ولا يعدمُ[٥١] على حالٍ طريقَها ، ولذلك ترى[٥٢] أبا الفضلِ قد تحاماه على اعتراضِه ، وأخذَ فى غير أغراضِه ، ولشيءٍ حادَ عن تَقَيُّلِهِ ، فأصابَ ما شاءَ فى

---

(٤٥) فى ت : أرضعت .

(٤٦) يقتبس من قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمّه آيةً وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » المؤمنون : ٥٠

(٤٧) ينظر إلى قول أبى تمام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات : (ديوانه ٣ : ١٢٤)

لك القلمُ الأعلى الذى بشَبَاتِهِ تُصَاب من الأمرِ الكُلى والمفاصِلُ

(٤٨) صور يصور صَوَراً : مال ، ومنه قول القائل : (اللسان — صور)

اللّهُ يعلمُ أنّا فى تلفُّتنا يوم الفِراقِ إلى أحبابنا صُورُ

(٤٩) ينصع : يخلص ويتضح

(٥٠) يورى بالتصريع والترصيع ، وهما لونان من ألوان البديع .

(٥١) فى ت : ولا يُخرَم

(٥٢) فى ت : نرى

تخيُّلِه[٥٣] ، وأجادَ فى تخلُّصِهِ وتحيُّلِهِ ، وآثرَ معَه الدَّعةَ والقَرار ، وخلَّى الطَّرِيقَ لمن يُبنى به المَنَار .

فمالَكَ ــ أعزَّكَ اللَّهُ ــ تُقرنُه بالصَّعْب ، وتُحارِبُ به وقد رأى[٥٤] السَّليمَ ظَفَراً عالى الكعب ، وتُعارِضُ جابيةَ الشَّيخِ العراقِىّ بالقعْب[٥٥] ؟

هيهات ! جلَّ الفراتُ عن المَتْح ، ولا هجرةَ بعد الفتح[٥٦] ، وأنَّى وقد مضت الهجرةُ لأهلِها ، وفازَ السَّابقون الأوَّلون بفضلِها ، وخُتِمت النبَّوةُ فلا دَرَكَ لمثلِها ؟

والجوُّ لأبى الفَضْلِ ــ مالم يلزَّ فى قَرَنِه[٥٧] ــ خالٍ ، وثمُنُهُ ــ مالم يُحْمَلْ على ثَمنهِ ــ عال ، وحُسنُه ــ مالم يُضَفْ إلى حُسْنِهِ ــ فائِتُ القدْرِ عال ، وإلاَّ فلا رأىَ للوعْلِ فى مُناطحةِ الصَّلْد ، ولا لهمَّام فى مُساجلةِ الأخضَرِ الجِلْد[٥٨] . أمَّا هَمَّامُ فَنَجا وفرَّ وأمَّا الوَعِلُ فأوهى قَرْنه[٥٩] ومرَّ !

---

(٥٣) فى ت : من تخيُّله

(٥٤) فى ت : أبَى

(٥٥) ينظر إلى قول الأعشى (ديوانه ٢٥٥)

تـروح على آل المحـلَّق جفنـةٌ　　　كجـابيـةِ الشَّيخ العـراق تفهـقُ

والجابية : الحوض الكبير ، والقعب : القدح الضحم .

(٥٦) فى الحديث : « لاهجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيّة » (البخارى ٣ : ٣٥٠)

(٥٧) فى ت : مالم يُلزز فى قرن ، والزَّ الشىء يَلُزُّه : ألزمه إياه ، والقَرَن (بالتحريك) : الحبل يُقرن به البعيران ، والجمع أقران

(٥٨) الأخضر الجلد : هو (الفضل بن العبَّاس) أحد شعراء بنى هاشم ، وهمَّام هو الفرزدق (همَّام بن غالب) ، والكاتب يشير إلى خبر ذكره أبو الفرج فى الأغانى (١٦ : ١٢١) حين دخل الفرزدق إلى المدينة فنظر إلى الفضل وهو يُنشد :

مَنْ يُساجلْنى يُساجِلْ ماجـداً　　　يمـلأُ الدَّلـوَ إلى عقـد الكـرب

فانصرف الفرزدق ولم يجرؤ على مساجلته .

وأنظر كذلك : (سرح العيون ٣٤٣)

(٥٩) ينظر إلى قول الأعشى (ديوانه : ٦١)

كناطـح صخـرةً يـوماً ليوهنـها　　　فلم يضـرْها وأوهـى قرنـه الوَعِـلُ

ولعلّ أبا الفضْلِ لو التقتْ حَلقتا البِطان[٦٠] ، وغشيتْهُ مهابةُ السُّلطان ، وأُسِر فى تلك المحافِلِ أسْرَ القِدِّ والحلق ، ورمتْهُ الملوكُ ذوو التّيجان بالحَدَق ، وفُجِىء على غِرَّةٍ بإحدى الكُبَر[٦١] ، ومُنِىَ[٦٢] بأمرِ الملك وإنَّما هىَ واحِدةٌ كلمْحٍ بالبَصر[٦٣] ، أسلمتْهُ خواطِرُه إلى الحَصَر[٦٤] ، وذَهِلَ عن تلك المُلَحِ واللُّعَب ، وكسفَ رونقُ تلك النُّتفِ والشُّعَب .

أما إنَّ لأبى الفَضْلِ فضلاً يُرْعى ، وهو ـــ بعد أبى إسحاق ـــ مَرْعى[٦٥] ، ويُدْعى إثره أوَّل مَنْ يُدْعى ، مِن رَجُلٍ لطيفِ الحيلة ، مشخِّصٍ للأوهامِ المستحيلة ، إنْ أصابَ فُرْصةً قَتَل ، وإن أخطأ[٦٦] خَتَل ؛ ومسحَ بالذُّروةِ والغاربِ وفَتَل[٦٧] ، ضيَّقَ مِن الكلامِ ماتوسَّع ، ورفعَ الكُوى بالمحاجِر ورصَّع ، وشعَّبَ [٤١/ب] وفرَّع ، واخترعَ من تلكَ الأخاليق[٦٨] مااخترَع ، فأحسنَ وتمَّم ، وأدرك من تلك الغايةِ ما يمَّم .

وأبو إسحاق إذا تأمَّلت مدارَه ، وعاينتَ اقتدارَه ، ولم تَبخَسْهُ مقدارَه ، عاينتَ رضوى وثبيراً[٦٩] ، ورأيتَ نعيماً ومُلْكاً كبيراً[٧٠] ، وجنَّةً بربوة ، وملِكاً

---

(٦٠) البطان : الحزام الذى يلى البطن ، وهو حزام الرحل والقتب ، وقيل : هو للبعير كالحزام للدّابة ، ويُقال : التقتْ حَلَقتا البطان للأمر اذا اشتدَّ : (اللسان ـــ بطن) وفى الأصل : التفَتْ

(٦١) يقتبس من قوله تعالى : « إنَّها لأحدى الكُبَرِ » المدَّثر : ٣٥

(٦٢) فى ت : ورُمى

(٦٣) يقتبس من قوله تعالى : « وما أمرُنا إلاَّ واحدةٌ كلمحٍ بالبَصَر » القمر : ٥٠

(٦٤) الحصر : ضرب من العىّ ، وهو من عيوب البيان .

(٦٥) فى المثل : مرعى ولا كالسَّعْدان » يضرب مثلاً للشىء يفضل على أقرانه وأشكاله والسعدان : أخثر العشب لبناً ، وإذا خثر لبن الراعية كان أفضل ما يكون وأطيب وأدسم ، ومنابت السعدان السهول ، وهو من أنجع المراعى فى المال ، ولا تحس على نبتٍ حسنها عليه . (الميدانى ٢ : ٢٣٠)

(٦٦) فى ت : وإن أخطأها

(٦٧) كناية عن التأنّس وإزالة النفور .

(٦٨) فى الأصل : الأحاليق ؛ تصحيف .

(٦٩) رضوى وثبير : جبلان

(٧٠) يقبس من قوله تعالى : « وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً ومُلْكاً كبيراً » الإنسان : ٢٠

فى حَبْوَة ، وجياداً نصلتْ سابقةً مِن هَبْوة[٧١] ، وشمساً يجلوها السَّعْدُ ، وبوارق يحدوها الرَّعْدُ ، وبحراً يقذِفُ بالغِنى ، ويجودُ بما فوقَ المُنى ، وكُلّ شيءٍ تهواه مخيَّراً وتتمنَّى . سؤدَدُهُ رَهْوٌ[٧٢] ، ومَحلُّهُ دَسْتٌ[٧٣] أو بَهْو ، ولأيَّامِه [به][٧٤] على سالِفِ الأيَّامِ زهو . لو أُنْشِرَ عبد الحميد[٧٥] فَنَشِر ، وحشدَ عليه بدائعَهُ وحَشَر ، لطوى معه ما نَشَر ، وسترَ ما شَهَر ، وقال : ماذا نزلَ بَعْدى مِن البَديعِ وَظَهَر ؟

وأنا لا أعْدِلُ الهَزْلَ بالفَصْلِ[٧٦] ، ولا الخَيْزُرانةَ بالنَّصْلِ ، ولا أرغَبُ عن الهُدى ، ولا أضَعُ السَّيْفَ موضعَ النَّدى[٧٧] ، ولاسمعتُ ـــ ولا إخالُنى أسأتُ سَمْعَاً ـــ بينهما لأحَدٍ من المُتقدِّمينَ جَمْعاً . وقد ذكَرَ الثعالبىُّ أبو منصور[٧٨] ـــ وكتابُه على هذا الشَّأنِ مقصور ـــ أنَّ المماثلةَ على المَسْلَكِ اللاَّحِب ، إنَّما وقعتْ بينه وبينَ الصَّاحِب ، وأنَّ الجهابذةَ فى ذلك أفاضوا ، وجالوا بينهما وخاضوا[٧٩] ، فهنالِكَ رُمِىَ طَوْدٌ بطوْد ، وزوحِمَ عَوْدٌ بِعَوْد ، وصُكَّ صَلْدٌ بصَلْد ، وَوضِعَ جَلْدٌ بإزاءِ جَلْد ، وقُوِّمَ نفيسٌ بنفيس ، وقُووِمَ[٨٠]

---

(٧١) الهبوة : الغبار ، ونصلت : ظهرت .

(٧٢) رهو : ساكن .

(٧٣) دست (معرب) : صدر المجلس .

(٧٤) سقطت من ت .

(٧٥) هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب (١٣٢ هـ) وقد سبق التعريف به .

(٧٦) يقتبس من قوله تعالى : « إنه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهزل » الطارق : ١٣ ـ ١٤

(٧٧) يشير إلى قول المتنبى (ديوانه ٢ : ١١)

ووضعُ النَدى فى موضع السَيف بالعُلا مُضِرٌّ كوضع السَّيف فى موضع النَدى

(٧٨) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسابورى ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ صاحب كتاب يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر .

(٧٩) قال الثعالبى فى ذلك : « وأمّا الترجيح بين هذين الصَّدرين ـ أعنى الصَّاحب والصَّابى ـ فى الكتابة ، فقد خاض فيه الخائضون ، وأحبَّ فيه المحبُّون ، ومن أشفى ما سمعته فى ذلك أنّ الصَّاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو إسحاق كان يكتب كما يُؤمر ، وبين الحالين بونٌ بعيد ، وكفى حجى لأمر فهمه عنه ، وقد وقف فلك البلاغة عندهما » [يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٥ ـ ٢٤٦]

(٨٠) فى الأصل : وقومه ، تصحيف .

رئيسٌ برئيس لأنَّ كلامَهما[٨١] جرى فى البحر والبرّ ، وانتظمَ حاشيتىْ النَّفع والضُّر ، وقامَ بالنَّهى والأمر ، وحلَّ من النفوس محلَّ العَذْبِ الغَمْر ، وباشتراكِهما فيما يَحْزُب[٨٢] ، ومزاولتهما لكُلّ مايقربُ من الأغراضِ ويَعْزُب ، يَقَعُ التمثيلُ والتعديل ، ويميلُ النَّاظرُ حيث يميل .

وهذه موازنةُ الآمدىّ[٨٣] بين حبيبٍ[٨٤] والبُحترىّ[٨٥] ، إنَّما استنبطَها مِن أثناءِ مااشتركا فيه مِن يأسٍ ورجاء ، ومدحٍ ورثاء ، وتشبيهٍ وتشبيب ، وترغيبٍ وتَرْهيب[٨٦] ، ولولا ذلك لما اعتدلت الأوزان ، ولا وُضِع الميزان ، ولاتبيَّنت الخِفَّةُ ولا الرُّجحان .

فإنْ تعاطى الحكومة [٤٢/أ] مُتعاطٍ ، أو خطا إلى الفصل[٨٧] بينهما خاطٍ ، فليؤَصِّلْ للماثلةِ أَصْلاً ، وليُثبِتْ لهذا فصْلاً[٨٨] ولهذا فَصْلاً ، فَمَنْ وضعَ الهناءَ موضعَ الهناء[٨٩] ، ولم يعدلْ عن جادَّة أهلِ الدَّهْنَاء[٩٠] ، وارتقى إلى البلاغةِ فى أسبابِها ، وأتى بيوتَ الفصاحةِ مِن أبوابِها ، فذلك الذَّهَبُ الإبريز ، والسَّابقُ الذَّى له التبريز ، وهذه الصِّفةُ لن تعدو أبا إسحاق ، فقد أُعطِى التّمام وجُنِّبَ المحَاق ، وحاقَ النَّقصُ بمن حاق . وهل تُقاس ثِمادُ

---

(٨١) فى ت : لكن كلاهما ، وهو خطا .

(٨٢) فى ت : يخرب

(٨٣) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، ولد بالبصرة ، واشتغل بالكتابة فيها وفى بغداد ، وكان شاعراً أيضاً ، ومن أشهر مؤلفاته : الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وتوفى الآمدى بالبصرة سنة ٣٧١ هـ .

(٨٤) هو حبيب بن أوس (أبو تمام ت ٢٣١ هـ على الأرجح)

(٨٥) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى (البحترى ٢٠٦ – ٢٨٤ هـ)

(٨٦) قال الآمدى فى ذلك : « ... ولكنّى أقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى ثم أقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة وفى ذلك المعنى ... [الموازنة ١ – ٧]

(٨٧) فى الأصل : الفضل ؛ تصحيف .

(٨٨) فى الأصل : فضلاً وما أثبتناه عن (ت)

(٨٩) الهِنَاء (بالكسر) : ضرب من القطران ، وقد هنأ الإبل يهنؤها هَنَاءً : طلاها بالهناء

(٩٠) الدَّهناء هنا : كناية عن العرب .

الضّحضاحُ[91] ، والسُّحيبة[92] نتبعُ أذناب أعاصير الرِّياح ، بهطلٍ كأفواه الجراح ، وبمسدله الرّواق ، مُسحلة النّطاق ، تبيتُ ذاتُ شآبيبها تنطف[93] حتّى الصبّاح ؟ وكيف يُقال ـــ وإنّها لوهْيةٌ لا تُرْقع وعثْرة لاتُقال ـــ إنّ هذا الماضى الخَذِم[94] ، و البحر المُغتلم[95] يستنصِرُ كهاماً ، ويستمطِرُ جهاماً ؟ هذا ـــ أعزَّك اللّهُ ـــ خَرْقُ الإجماع ، وشيءٌ لايَلِجُ فى الأسماع ، (حتّى يلج الجملُ فى سمِّ الخِياط)[96] ، وتثبت فى الذئب دعوى الأسباط[97] ، وكيف يتعسّف أو يتكلّف ، منْ يدعو الحكم فلا تتخلف ، وتنقادُ له البلاغةُ طوْعاً وتتألّف ، وتتصدّى إليه البدعُ فيأخذُ منها مايشاءُ ويدَع ، وهل نفْسُ التكلُّفِ إلاّ مادفع البديعُ إليه ، وتبعْناه ـــ معشر الضُّعفاء ـــ عليه ، حين عدلْنا عن المنهج ، ودخلْنا تحت الحرج ، ولو شاء اللّهُ بنا يُسْراً ، لوضع عنّا مِن هذه المشقّةِ إصْراً .

فالصّابىّ يُنسِّقُ أعلاقاً ، ونحن نُلفِّقُ أخلاقاً ، ونُكابِدُ ـــ ومفاتِحُ عناه[98] تنوء بالعُصْبَةِ أُولى القوَّةِ[99] ـــ إملاقاً . وعُمْدَةُ إحسانِنا حين تعزمُ إنّما هى لزومُ مالا يلزم[100] ، ومُقابلاتٌ يبدأُ بها الكلامُ ويُخْتَم ، يعْثُرُ فيها القلمُ ، ولا يكادُ يُقيمُها اللِّسانُ والفم ، فكأنّنا نُضارِعُ الدُّر بضريع[101] ، ونُحاسِنُ بالهشيمِ خُضْرَةَ[102] الرَّبيع ، ونُضْرة الرَّوضِ المُريع ، ونُباهى رصف

(٩١) الضحضاح : القليل ، والثماد : الحفر يكون فيها الماء القليل
(٩٢) السحيبة : الماء القليل ، وفى الأصل « السُّحيبة » تصحيف
(٩٣) تنطف : تقطر
(٩٤) الخذم : القاطع ، والتخذيم ، التقطيع
(٩٥) المغتلم : المهتاج ، اغتلم البحر : هاج وفى الأصل « المغيلم » تصحيف
(٩٦) من سورة الأعراف بعض آية ٤٠
(٩٧) الأسباط : أخوة يوسف
(٩٨) فى الأصل « عناه » تصحيف
(٩٩) يقتبس من قوله تعالى « وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعُصبة أولى القوّة » القصص بعض آية ٧٦
(١٠٠) أحد ضروب البديع
(١٠١) الضريع : نبت منتن يرمى به البحر ، وقيل : هو العوسج الرطب ، وفى القرآن الكريم « ليس لهم طعامٌ إلاّ من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع » الغاشية ٥ ، ٦
(١٠٢) فى الأصل « خضره » تصحيف

الخَوَرْنَقِ بنسْجِ الخَدَرْنق[١٠٣] ، مِن كل هلهلٍ أسمال ، عَرِيٌّ من الحصافةِ والجمال فبعيشك أين نحن فى تُرَّهاتَ الأمانى ، مِن سَحْقِ[١٠٤] اليَمَانى ، يُحدِّثُ عن ذى رُعَيْن[١٠٥] ، ورفعته ما شئتَ فى اليَدِ والعَيْن .

أجلْ ! لو وُقِّتَ للبُلَغاءِ يومٌ [٤٢/ب] لايعدونه ، ونُصِب[١٠٦] لهم حَوْضٌ على قَدْرِ الإحسانِ يَرِدُونه ، لوردَ أبو إسحاقَ أوَّلَ واردِ ، وأخذَتْنا مع البديعِ عِصِىُّ الذَّوائِد[١٠٧] ، وضربَ صاحبُ الحوضِ بيننا وبينَه سُوراً ، وقال : ﴿ ارجعوا وراءَكم فالتمِسوا نُوراً ﴾[١٠٨] ؛ ليسَ بكلامِكم مِن البلاغةِ طرق ، ولاتَبَضَ لكم فى الإعرابِ عِرْق ، هذه جَعَاجِعُ رِئْمان[١٠٩] ، وقعاقِعُ شَنَان[١١٠] ، وهذا ابنُ لحيِّكُم[١١١] ، وآفَةُ مَيتكم وحَيِّكم ، غيَّر[١١٢] العربيةَ السَّهلة ، وجهلَ عليكم هذه الجَهْلَة ، وبدَّل دينَه[١١٣] فاقتلوه ، وخذوهُ فاعتلوه ، وألحقوا به من استبصرَ فيما شَرَع ، وتجاوزوا عمَّن أقصرَ ونَزَع !

وأمَّا فخرُك له باللَّقبِ[١١٤] الذّى لا يُسَوِّغُه الشَّرْع ، ولا يحملُهُ الأصلُ والفَرْع ، فهو إلى أن يكونَ غِلَّ إسار ، أقربُ منه إلى أن يكونَ طوقَ نُضَار ،

---

(١٠٣) الخورنق : اسم قصر قديم بالعراق بناه النعمان بن المنذر ، والخدرنق : ذكر العنكبوت ، وفى الأصل : وصف الخورنق ، وما أثبتناه عن (ت) وهو أصوب .

(١٠٤) السَّحق : الثوب الخلق البالى .

(١٠٥) ذو رعين : جدّ من اليمن .

(١٠٦) فى الأصل : ونضب ؛ تصحيف .

(١٠٧) فى الأصل : الزائد ؛ تصحيف .

(١٠٨) الحديد : بعض آية ١٣

(١٠٩) الرئمان : النوق تعطف على أولادها .

(١١٠) القعقعه : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن وهو القربة البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حثّ الأبل على السير لتفزع فتسرع ، وفى المثل : « مايقعقع له بالشّنان » يضرب لمن لايخشى أو يرتاع (الميدانى ٢/٢١٥)

(١١١) لحىّ : من لحاه إذا عذله وقبّحه

(١١٢) فى الأصل : عيّر ، تصحيف .

(١١٣) بدَّل دينه : أىّ حاد عن الأسلوب العربى فى الكتابة ؛ إشارة الى تعمده السجع وغلبة الصنعة على أسلوبه ، وهو مما لم يألفه العرب فى كتابتهم .

(١١٤) أى بلقب « بديع الزمان »

وقد نهانا خاتمُ الأنبياء — صلّى اللّه عليه وسلّم — عن أشنع[١١٥] الأسماء ، وقال اللّهُ فى مُحْكَمِ الكتاب : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾[١١٦] وما قصَّر الحدُّ لابنِ هلال[١١٧] ، ولقد وسم أباه بميسم جمال[١١٨] ، سيَّره وأشاعه ، وألقى عليه رداءَهُ وشعاعَه .

وللّهِ درُّ أبى منصور[١١٩] ، لقد نَصَرَهُ[١٢٠] فى مواطنَ كثيرة ، وأفردَه بالمنزلةِ الأثيرة[١٢١] ، لأنه قال : إنَّ اللّه هداهُ لمحاسِنِ الكلام ، ولم يهدِهِ إلى الإسلام[١٢٢] ، وقال فيه وفى الصَّاحبِ[١٢٣] : « وكيفَ جرى الأمْرُ فهمَا هُما ، ولقد وقَفَ فَلَكُ البلاغةِ بعدهَما » ، ورأيا[١٢٤] من مناقِب أبى الطيّب [المتنبى][١٢٥] وفخرِه ، مانثراه فى رسائلهِما وتمثَّلا به من شِعْرِه ، وهذا على تقديمِهِ نصٌّ ، وأنَّهُ بالفضيلةِ مُختصٌّ ، وليس على أبى الفَضْلِ فى كمالِه نَقْص ، لأنَّه إلاَّ يكنْ صاحبَ رِضوان ، فهو تابعٌ بإحسان[١٢٦] .

وإنِّى — أعزَّكَ اللّهُ — وإنْ أو مأتُ إلى خِلافِك ، لَمِنْ أصفيائِك وأحلافِك ، لكن يُسْتدعى الرِفقُ ، فيُسْمَحُ بما فوقَ القَدْر ، ويُستوعَى الحقُّ ،

---

(١١٥) فى ت : أشنع

(١١٦) الحجرات : ١١

(١١٧) ابن هلال الصابى

(١١٨) إشارة إلى اسم أبيه « هلال » .

(١١٩) هو أبو منصور الثعالبى ، صاحب يتيمة الدّهر .

(١٢٠) فى الأصل : نصره ؛ تصحيف .

(١٢١) أنظر يتيمة الدهر ، ترجمة أبى إسحاق الصابى ٢٤١/٢ وما بعدها

(١٢٢) يتيمة الدهر ٢٤١/٢ ونص عبارة الثعالبى : « ويحكى أنّ الخلفاء والملوك والوزراء أرادوه كثيراً على الإسلام ، وأداروه بكل حيلة ، وتميمة جليلة ، حتى إن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة إن أسلم ، فلم يهده الله تعالى للإسلام ، كما هداه لمحاسن الكلام » .

(١٢٣) يتيمة الدهر ٢٤٦/٢

(١٢٣) فى ت ورأى

(١٢٤) سقطت من ت (١٢٥) سقطت من ت

(١٢٦) وضع ابن حصن يرجح الحسن على البديع ، ويجعل مرتبتهما فى الكتابة كالمنزلة بين صحابى وتابعى

فيرِدُ الماءُ إلى الجَذْر(١٢٧) [والسَّلام](١٢٨) .

آخـــرُهُ (١٢٩)

صلى الله على سـيدنا محمـد وعلى آلـــه

وحسـبُنا اللـــه منعـــم الوكيـــل

(١٢٧) الجَذْر : أصل الجدار ، والجمع (جُذُور) ، وفي حديث الزُبير حين اختصم هو والأنصاريُّ إلى النبيّ ﷺ في سيول شِراج الحرَّة : « اسقِ أرضَك حتى يبلُغَ الماءُ الجَذْر » أراد ما رُفع من أعضاد المزرعة تمسك الماءَ كالجدار (اللسان — جذر)

(١٢٨) سقطت من (ت)

(١٢٩) هذه إشارة من صاحب المجموع إلى ان رسالة ابن ابى الخصال هى آخر رسالة وبها ينتهى مجموعه

مُلحـــــق

فصلٌ فى الرَّسائِل*

[١]

[٤٣/أ]

وصلَ — أطالَ اللَّهُ بقاءَ فلان ، وأدام علاه ، ومدَّ عليه سرادقَ طَوْلِه ، بكرمِه وفَضْلِه — كتابُه الشَّريف ، وخطابُه(١) اللطيف ، الذى هو أحسَنُ مِن الرَّوضِ غبَّ المزن(٢) ، وأطيب من الفَرَح بعد الحُزْن ، وأحلى من جنى النَّخل بلُعابِ النَّحل ، وأشهى للسَّمْعِ من الغِناء ، وسطَ الرَّوضةِ الغنَّاء ، وألذ من عهد الشَّباب فى مؤانسةِ الأحباب ، بل من المُدَامِ ، صبيحةَ الغَمَام ، بل من نَيْلِ المنى ، ومن نَوْمَةِ الضُّحى ، ومن قُبْلَةٍ على عَجَل ، ومِن أمنٍ بعد وَجَل ، بل من مواصلةِ الحبيبِ ، مع غيبةِ الرَّقيبِ ، فلمَّا حللتُ عقدَه ، ونثرتُ عِقْدَه ، وذُقْتُ شهدَه ، وقَنْدَه(٤) ، وشممتُ عرارَه ورندَه(٥) ، نسيتُ الرُّطب الجنىَّ عندَه ، وسلوتُ من همومى وغُمومى ، وهبَّتْ نسيماً حَرورى ، وسَمومى(٦) ، وعادَ ماذَبُلَ مِن غُصنى(٧) نضيراً ، وما تكدَّر مِن عيشى نميرا ، فحمدتُ اللَّهَ — تعالى — على ذلك كثيرا .

---

* ورد هذا العنوان فى الأصل بعد رسالة ابن أبى الخصال المتقدّمة (رقم ٣٦) ، والتى انتهت بعبارة تؤذن بنهاية المجموع ، ولا نظفر بأيَّة إشارة نستدلُّ بها على صاحب هذه الرسالة الإخوانية التى كُتبت جواباً عن رسالة أخرى كما يفهم من سياقها .

(١) فى الأصل : حطابه .

(٢) ،، ،، : المرن .

(٣) ،، ،، : مؤاسة ، تحريف .

(٤) القَنْد : عسل قصب السكر وعصارته .

(٥) الرند : شجر من أشجار البادية طيب الرائحة ، وكذلك العَرار .

(٦) السَّموم : الريح الحارة ، وتكون غالباً بالنهار ، والحرور : الريح الحارة تكون بالليل والنهار ، وفى التنزيل : « ولا الظِلُّ ولا الحرور » ، ومنه قول جرير : (اللسان : حرر)

ظللنا بُمستنِّ الحرورِ كأنَّنا لدى فرسٍ مستقبلِ الريحِ صائم

(٧) فى الأصل : عضى ؛ تحريف .

وأمَّا حالى ، فلو خُضْتُ فى وصفِ مالى من الحنينِ إليه والاشتياق ، وما أُعانى مِن الحُرق منذ يومِ الفِراق ، لطال الكتاب ، وامتدَّ الخِطاب ، لكنِّى آثرتُ الإيجازَ فى المقال ، لِما دلَّ عليه شاهِدُ الحال ، والسَّلام .

[٢]

لأبى العلاء المعرّى[١] مطلع رسالة[٢]

ماحمامةٌ ذاتُ طوْقٍ ، يُضْرَبُ بها المثَلُ فى الشّوقِ ، تألفُ مِن أبناءِ جنسِها ريدا[٣] ، ويتراسلون تغريداً ، أخرجت إلى الكعبةِ المحرَّمة ، وهى جدُّ مُغْرَمة ، صادها وليدٌ فى الحلِّ ، مارعى مِن إل[٣] ، وأسكنَها مسكناً للطّير ، ومنعها فيهِ مِن كُلِّ خير . كُلّما مرَّتْ عليه بواكِرُ الحَمَام ، كادتْ تجرَعُ غُصص الحِمام ، وسألتْ[٤] بطرفِها أخاها ، ماصنعَ بعدَها فرخاها ، فقال : أصبحا ضائعيْن ، قد سترهما الوُرْق من كُلِّ عين :

فُرَيْخانِ ينضاعان بالفجرِ كُلّما أحسّا دوىَّ الرِّيحِ مِن كُلِّ جانبِ[٥]

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، أبو العلاء المعرى ، الشاعر المشهور(٣٦٣ - ٤٤٩هـ)

(٢) وردت فى رسائل المعرى (٢ : ٣٣٣) ط. عمان ، كما ورد هذا الجزء فى إحكام صنعة الكلام الكلاعى ص ٦٨ .

(٣) الرِّيد : التِرب ، رئد الرجل مساويه فى السن ، وأكثر ما يرد فى الإناث

(٣) الإل : العهد

(٤) فى الأصل : سالت

(٥) وردت بعد ذلك فى الأصل عبارة « ياسوق منى إلى فلان » وبعدها بياض

[٣]

فصــــلٌ*

[٤٣ب]

كتبتُ عن سلامه واكفة القَطْر[١] ، ضاحكةَ الثَّغر ، والحمدُ للَّهِ ، أهلِ الحمد والشُّكر ، بعدما وصلَ كتابهُ ، ففتحتُه عن دُرٍّ منظوم ، وروضٍ مَرْهوم[٢] ، وفهمتُ ماتضمنَّه وتحمَّله ، مِن خيرِ السَّلامة ، أباحَهُ اللَّهُ حماها ، وأطابَ له جَنَاها ، فحمدتُ اللَّه ـ تعالى ـ على ذلك ، وسألتُه أن يؤتيَه مِن النِّعمِ أصفاها ، ويُسبغ عليه من المواهبِ أضفاها ، ويعطيه مِن المنحِ أعلاها ، ومن سهامِ نفائس القسم مُعَلاَّها ، وحسبنُا اللَّهُ ونعم الوكيل[٣] .

---

* كذا فى الأصل دون أية إشارة يُستدلُّ بها على صاحب هذه الرسالة .

(١) وكف : سال وهطل

(٢) الرِّهمة : المطر الضعيف الدائم ، وروض مرهوم ، محصب ، ومنه قول ذى الرُّمة : [اللسان ـ رهم]

أو نفحــةٍ من أعالى حنوةٍ معجــتْ فيها الصَّــبا موهــنا والرَّوضُ مرْهــومُ

(٣) بعد دىث : بياض فى الأصل

[٤]

كتبَ* الشَّيخُ الفقيه المفتى أبو محمد عبد الحميد بى أبى الدُّنيا إلى الفقيه الإمام العلاَّمة الشَّيخ عز الدِّين أبى محمَّد عبد العزيز بن عبد السَّلام[1] — رضى اللَّه عنهما :

سَدَّدَكم اللَّهُ فى المقالِ والفعال ، وبلَّغكم بصالح الأعمال إلى علوِّ الدَّرجاتِ فى الحال والمال .

حالُ معنى هذا العصرِ معلومٌ لديكم ، وما تقرَّر عندى مِن ذلك أُورده عليكم ، وذلك أنَّ من نظرَ مذهباً من هذه المذاهبِ الأربعة ، ولايحيطُ بكلِّها ، واطَّلعَ على أقوالِ الشَّارحين لها ، وتعليلِهم وتفريعهم بين ماظاهِرُه التَّساوى فى تفاريعهِم ، واستنبأه تَصدِّى للفُتْيا ولا ينظرُ مذهباً سوى ذلك المذهب ، ولا قولَ من خالفَ فى بعضِ تلك الفروع ولامُستَند ، ذلك الَّذى

* هذه الرسالة — فى تقديرى — خارجة عن رسائل المجموع لأسباب ، منها أنها كُتبت بخط مخالف ، ومنها أنها كُتبت فى تاريخ متأخر نسبياً عن التاريخ الذى تدور فيه الرسائل الأخرى والذى لايتجاوز القرن السادس بينما نجد أن وفاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام — الذى كُتبت إليه هذه الرسالة وأجاب عنها — كانت بعد منتصف القرن السابع (٦٦٠ هـ) ، فضلاً عن أنَّ هذه الرسالة لاتتصل اتصالاً مباشراً ببقية رسائل المجموع بل فصل بينهما كلام للبيضاوى وبياض فى الأصل ، وأغلب الظن أنها كانت خاتمة لكتاب آخر أو مجموعة أخرى من الرسائل ولكنها تداخلت مع نسخة الأصل ، ومع ذلك فقد رأينا أن نثبتها فى هذا الملحق إتماماً للفائدة .

(١) هو الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السُّلمى الدمشقى ، شيخ الإسلام فى عصره ، ولد سنة ٥٨٧ هـ ، وقرأ الأصول العربية ، ودرَّس وأفتى وصنَّف ، وبرع فى المذهب ، وله الفتاوى السديدة ، وكان ناسكاً ورعاً ، أمَّاراً بالمعروف ، نهَّاء عن المنكر ، لايخاف فى الله لومة لائم ، ولى خطابة دمشق ثم نزح إلى مصر وتولى القضاء بها والخطابة ، وتوفى سنة ٦٦٠ هـ . [فوات الوفيات ٢ : ٣٥٠ - ٣٥٢]

يُفتى به ماهو وربَّما صحَّ فى بعضِ النَّوازلِ يكونُ فيها الحديثُ الصحيحُ المحكم وصاحبُ مذهبِهِ يرويه ولايقولُ به لُمعارضٍ قام له ، لابتحقُّقِه ذلك المقلد فيدع المفتى الحديثَ الصحيحَ المحكمَ ويأخذ بقولِ صاحبِ المذهبِ ، وربَّما ذلك القولُ الذى أخذ به لايرويه هذا المفتى عن صاحبِ مذهِبه ، وإنَّما حَفظه من كُتبِ المذهبِ ، وهى غيرُ مرويّةٍ ولا مُسْنَدةٍ إلى مؤلِفها ، فهل يسوغُ لمن حالُه هذا : الفُتْيا أم لا ؟

فإن قِيلَ : لا يسوغُ ، وليسَ فى الإقليمِ إلاَّ مَنْ هو على هذه الصِّفة ، فبمَ يكونُ عملُهم ؟ وإنِ قيل : يسوغُ ، ولصاحبِ المذهبِ أقوالٌ فهل يسوغُ له أن يُفتى بأى الأقوال شيئاً من غيرِ ترجيح ، بل لقصْدِ التوسُّعِ على النَّاس ، مع أنَّ أصحابَ صاحبِ المذهبِ اختارَ كُلُّ واحدٍ منهم قولاً مِن تلك الأقوال ، أم لا يسوغُ ، فما المانِعُ من ذلك ؟ مع القولِ بأنَّ كُلَّ مجتَهِدٍ مُصيب ؟ ومع القولِ بأنَّه لا يجب تقليدُ الأعلمِ على ما اختاره القاضى أبو بكرٍ ، وعلى ما نقلَه العلماءُ فى كُتبِ الأصولِ ، مع أنَّ الصَّحابةَ ـــ رضى اللَّهُ عنهم ـــ ماكانوا يحجرونَ على غيرِ أبى بكرٍ وعُمر ـــ رضى اللَّهُ عنهما ـــ للفُتيا ، بل كان يُفتى مَنْ دونَهم فى العِلم مع وجودِهم ، وهذا دليلٌ واضِحٌ ، وربَّما يقرُبُ مِن القَطْع ، وقولُ أبى حامِدٍ[3] لا ينبغى أن يخالِفَ الظنُّ بالتشَّهى فإنَّه قال : « الأصحُّ عندَنا والأليَقُ بالمعنى الكلِّى ضبطُ الخلقِ بلجِامِ التَّقوى والتكليف » ، فهذا الذَّى قاله أبو حامِد ـــ رضى اللَّهُ عنه ـــ لايقوى قُوَّةً يكونُ بها مُعَارِضا للدَّليلِ الذَّى هو عدمُ الحُجَّة على مستفتى العالِم مع وجودِ الأعلمِ ، لأنَّ هذا الدَّليلَ نوعُ إجماعٍ مِن الصَّحابةِ ـــ رضوانُ اللَّهِ عليهم ـــ وإذا ثبتَ أنَّهم كانوا يسوِّغونَ ذلكَ فهو مِن أقوى الأدلَّةِ ، ولا يُعارِضُه مَاذكر من المعنَّى ، لاسيما قوله : لا ينبغى أن يخالفَ الظنّ التشَّهى والأخذ بقول مجتهدٍ على القَوْلِ بأنَّ كُلَّ مجتهدٍ مصيبٌ ماهو بأحد ذكراً مِن التشَّهى بل بالظنِّ القوىّ ، وهذا عرض لى الآن فى أثناء هذا السؤال وقصدت [١ /ب]

(٣) هو أبو حامد الغزالي . حجة الإسلام

عرضه على معارفكم السَّنية لتبيِّنوا — رضىَ اللّهُ عنكم — وجهَ الصَّوابِ فى ذلك بحجَّةٍ تثلجُ لها الصُّدورُ — إن شاءَ اللَّهُ تعالى — وإذا تحقَّق مثلاً هذا المعنى قولاً لأبى حنيفة — رضى اللَّهُ عنه — هل الأَخذُ به فى نفسِه بناءً على ماتقرَّر ويكون سائغاً له فيما بينه وبين اللَّهِ تعالى ، أو لما اعُتقِدَ أوَّلاً صاحبَ مذهب لايسوغُ له تقليدُ غيرِه ، أو يكون ممنوعاً مِن ذلك لكونِه لم يُمارِسْ ذلكَ المذهبَ ولا عرفَ أصولَه التى تُبنى عليها أقوالُه ؟

الغَرَضُ — أنارَ اللَّهُ بأنوارِ معارفكم ظُلَمَ الإشكال ، وبلَّغكم فى الدَّارين سنَّى الآمال ، بحولِه وقوَّتِه — تبيِّنُ ذلك وإيضاحُه ، إنْ شاء اللَّهُ — تعالى — والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه .

---

(٤) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، صاحب المذهب الفقهى المعروف باسمه ، وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ . [تاريخ بغداد ١٣ : ٣٢٣ وما بعدها]

الجـــــواب*

هذا الناقِلُ المذكورُ حامِلُ فِقْهٍ ليس بفقيهٍ ولا مُفْتٍ ، بل هو كَمَنْ ينقِلُ فتوى عن إمامٍ مِن الأئمة لا يُشْتَرطُ فيه إلاَّ العَدَالَة ، وفهمُ ما ينقله ، فإنْ خالفتْ فتوى إمامِهِ حديثاً صحيحاً ، فإنْ خالفَ مذهبَه مخالفة ينقضُ بمثلِها حكمه أن لو حكم به لم يجز تقليدُه فيما ذهبَ إليه سواءً نقلَه عنه أو شافهه به ، لأنَّه مخطىء ، وليس فى الخطأ قدوة ، ولا فى الباطِلِ أسوة ، وإن كان مِمَّا لا ينقضُ الحكمُ به جَازَ تقليدُه ، والأولى أن يقلِّدَ من كان مذهبُه على وَفْقِ ذلك الحديث ، ولا يجبُ على العَامىّ تقليدُ إمامٍ معيَّنٍ ، بل هو مُخَيَّرٌ فى تقليدِ من شاء فيما لاينقضُ الحكمُ بمثلِه . وإذا قلَّدَ واحداً فى بعضِ المسائل ، فلَهُ أن يُقلِّدَ غيرَه فى بعضِها ، لأنَّ العامةَ لم يزالوا فى زمنِ الصحابةِ ـــ رضىَ اللَّهُ عنهم ـــ والتَّابعين ، يُقلِّدون مَن اتفقَ من أهلِ الفتوى ، ولايتقيَّدونَ بمذهبٍ مُعيَّن ، ولم يُنكِر أحدٌ من العُلماءِ على أحَدٍ من العامَّةِ شيئاً مِن ذلك ، ولم يقُلْ أحدٌ منهم : إذا قلَّدتنى فلا تُقلِّد غيرى ، ولم يمتنِع المفضولُ من الفُتْيا مع وجودِ الأفْضلِ ، وقد قال أبو العسيف : لرسولِ اللَّهِ ـــ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم : إنِّى سألتُ أهلَ العلمِ فأخبرونى أنَّ ابنى عليه الجلْد ، فقال رسولُ اللَّه ـــ صلّى اللّه عليه وسلّم ـــ والّذى نفسى بيدهِ لأقضينَّ بينكُما بكتابِ اللّه : « الوليدةُ والغُرمُ ردٌّ عليك »[1] ، ولم ينكر عليه كونَه سأَل أهلَ العِلْم مع وجودِ رسول اللَّه ـــ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـــ ، ومَنْ كان لإمامِه فى المسألةِ قولان ، فله أن يقلِّده فى أيهما أحبَّ [إليه] [٢/أ] وله أن يُقلِّدَ إماماً آخرَ

---

* الجواب للشيخ عز الدين بن عبد السلام

(١) يروى هذا الحديث فى باب (الجمع بين الجلد والتغريب فى الحدود) ، فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة وزيد بن خالد أن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، أنشدك الله ، ألا قضيت لى بكتاب الله ... وقال الخصمُ الآخر ـــ وهو أفقه منه ـــ نعم ، فاقض بيننا بكتاب الله ، وائذن لى . فقال رسول الله ﷺ ـــ قُل ! فقال : إن ابنى

لايقولُ بقولِهِ ، وله أن ينقِلَ مِن صوابٍ إلى صواب ، وإن قُلْنا : إنَّ المصيبَ واحِدٌ فهو غيرُ مُعيَّن ، ولا معنى لقولِ القائل : أنا شافعيٌّ أو مالكيّ إلاَّ كونُه عزمَ على تقليدِ الشافعيِّ فى جميعِ أقوالِه ، ولا يتعيَّنُ بعزمِه ما كان مخيَّراً فيه من تقليدِ مَنَ شاءَ من أهلِ المذاهبِ ، بل لو نذر أن يُقلِّد مُعَّيناً لم يلزمْه ذلك فيما لاقُرْبَة فيه . وأمَّا الاعتمادُ على كُتُبِ الفقهِ الصحيحةِ الموثوقِ بها ، فقد اتفقَ العلماءُ فى هذا العصرِ على جوازِ الاعتمادِ عليها ، والاستنادِ إليها ، لأنَّ الثقةَ قد حصلت بها كما تحصلُ بالرّواية ، ولذلك فقد اعتمدَ النَّاسُ على الكُتُبِ المشهورةِ فى النَّحوِ واللُّغةِ والطِّبِ وسائرِ العلوم لحصولِ الثقة بها ، وبُعْدِ التدليس . ومَن اعتقدَ أنَّ النَّاسَ قد اتفقوا على الخطأ فى ذلك ، فهو أولى بالخطأ منهم ، ولولا جوازُ الاعتمادِ على تلك الكُتُبِ لتعطَّلت كثيرٌ مِن المصالح المتعلِّقة بالطبِّ والنحو اللُّغة . وقد رجعَ الشارِعُ إلى أقوالِ الأطبَّاء فى صورٍ ، وليستْ كتُبُهم مأخوذَةً فى الأصلِ إلاَّ عن قومٍ كُفَّار ولكن لمَّا بَعُدَ التَّدليسُ فيها اعتُمِدَ عليها كما اعْتُمِد فى اللُّغَةِ على أشعارِ العَرَب وهم كُفَّار ، لبُعْد التَّدليسِ ، ويجوزُ للعاميِّ أن يعملَ بِرُخَصِ المذاهبِ لِما ذكرتُه ، وإنكارُ ذلك جَهْلٌ مِمَّن أنكره ، لأنَّ الأخذَ بالرُّخَصِ محبوبٌ ، ودينُ اللّهَ يُسْرٌ[1] ، وما جعلَ علينا فى الدِّينِ مِن حَرَجٍ[2] ، فإنْ قُلْنا بتصويبِ المجتهدين ، فكُلُّ الرُّخَصِ صوابٌ ، ولا يجوزُ إنكارُ الصَّواب . وإنْ لم نقُل بذلك ، فالصوابُ غيرُ مُنْحَصِرٍ فى العزيمة ، وإن كان الأفضَلُ الأخذُ بالعزيمة ، تورُّعاً واجتناباً لمظانِّ الرِّيبِ ، واللّهُ — تعالى — أعْلَم .

كان عسيفاً (أجيراً) على هذا فزنى بامرأته ، وإنى أُخبرتُ أنَّ على ابن الرَّجم ، فافتديتُ منه بمائة شاة ووليدة ، فسألتُ أهل العلم فأخبرونى أنَّ على ابنى جلد مائةٍ وتغريبَ عام ، وأنَّ على امرأة هذا الرَّجم ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله — الوليدةُ والغنم ردٌّ عليك ، وعلى ابنك جلدُ مائة وتغريب عام ، واغدُ ياأنيس — صحابى — إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » قال : فعدا عليها ، فاعترفت ، فأمر بها رسول الله ﷺ فرُجمت .

(١) من الحديث الشريف : « الدينُ يسرٌ لا عسرَ فيه ، ولن يشادَّ الدين احدٌ إلا غلبه »

(٢) يقتبس من قوله تعالى : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حَرَج » [الحج : ٧٨]

الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس الشعر
- فهرس الأمثال
- فهرس الأعلام
- فهرس القبائل والأقوام
- فهرس البلدان والأماكن
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الكتاب

فهرس الآيات القرآنية

الآيـة	الصفحة
سورة آل عمران : (٣)	
﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ [الآية ١٤٤]	١١٦
﴿ ربنا اغفرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا فى أمرنا وثبِّتْ أقدامَنا وانصرْنا على القومِ الكافرين ﴾ [الآية ١٤٧]	١١٥
﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ [الآية ١٤٨]	١١٥ — ١١٦
النِّســاء : (٤)	
﴿ للذكِر مثلُ حظِّ الأنثيين ﴾ [الآية ١١]	١١٦
﴿ الرجال قَوَّامون على النِّساء بما فضَّلَ الله بعضَهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ [الآية ٣٤]	١١٥
﴿ كذلك كنتم من قبلُ فمنَّ الله عليكم ﴾ [الآية ٩٤]	١٤٣
﴿ ولا تجادلْ عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحبُ من كان خوَّاناً أثيماً ﴾ [الآية ١٠٧]	٩٥
المائدة : (٥)	
﴿ ومن يُردِ الله فتنته فلن تملكَ له من الله شيئاً أولئك الذين لم يردِ الله أن يُطهرَ قلوبَهم لهم فى الدُّنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرةِ عذابٌ عظيم ﴾ [الآية ٤١]	١٢٠

الأعـراف : (٧)	**الصفحة**
﴿ حتّى يلجَ الجَمَلُ فى سَمِّ الخياط ﴾ [الآية ٤٠]	٢٠٨
الأنفـال : (٨)	
﴿ ياأيُّها الذين آمنوا إذا لقيتُم الذين كفروا زَحْفَاً فلا تولوهم الأدبارَ ومن يولهم يومئذٍ دُبُرَه إلَّا متحرِّفاً لقتالٍ أو متحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ من الله ومأواه جهنَّم وبئس المصير ﴾ [الآيتان ١٥ ــ ١٦]	١١٥
الآيـة	
﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ [الآية ٢٣]	١٤٤
﴿ الآنَ خفَّفَ الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفاً . فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين وإنْ يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذنِ الله والله مع الصّابرين ﴾ [الآية ٦٦]	١١٤
التوبـة : (٩)	
﴿ فلَّما تبيَّن له أنَّهُ عدوٌّ الله تبَّرأ منه ﴾ [الآية ١١٤]	١٢٣
﴿ حتَّى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبتْ وظنُّوا ألَّا ملجأً من الله إلَّا إليه ﴾ [الآية ١١٨]	١١٧
هـود : (١١)	
﴿ يانوحُ إنَّه ليس من أهلِك إنَّه عملٌ غيرُ صالح ﴾ [الآية ٤٦]	١٢٢

الصفحة

يوسف : (١٢)

﴿ إنِّى لأجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تفندون ﴾ [الآية ٩٤] ١١٠

الرعد : (١٣)

﴿ وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له ومالهم من دونِهِ مِن وال ﴾ [الآية ١١] ١٦١

إبراهيم : (١٤)

﴿ ولا يرتدُّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتُهم هَوَاء ﴾ [الآية ٤٣] ٢٠٠

النحل : (١٦)

﴿ وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مسوداً وهو كظيم ﴾ [الآية ٥٨] ٥٤
﴿ ولا تكونوا كالتى نقضتْ غَزْلها من بعد قوةٍ أنكاثاً ﴾ [الآية ٩٢] ١١٥

الأنبياء : (٢١)

﴿ لو أردنا أن نتخِذَ لهواً ﴾ [الآية ١٧] ٥٦
الآية

القَصص : (٢٨)

﴿ لا نسقى حتَّى يُصْدِرَ الرِّعاء ﴾ [الآية ٢٣] ٥٦
﴿ إنِّى أُريد أن أنكحك إحدى ابنتيَّ هاتين ﴾ [الآية ٢٧] ٥٦

الأحــزاب : (٢٣)

﴿ وقرنَ فى بيوتكنَّ ولا تبرجنَّ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى ﴾
[الآية ٣٣] ١١٥

الشــورى : (٤٢)

﴿ ينظرون من طرف خفىٍّ ﴾ [الآية ٤٥] ٢٠٠

محمَّـد : (٤٧)

﴿ وإِنْ تتولوا يستبدِلْ قوماً غيرَكم ثمَّ لا يكونوا
مثلكم ﴾ [الآية ٣٨] ١١٨

الحجـرات : (٤٩)

﴿ ولا تنابزوا بالألقـاب ﴾ [الآية ١١]. ٢١٠

النجـم : (٥٣)

﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ [الآية ٩] ١١٠

الحـديد : (٥٧)

﴿ ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً ﴾ [الآية ١٣] ٢٠٩
﴿ ماأصابَ من مصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسكم إلَّا فى
كتابٍ من قبل أن نبرأها إنَّ ذلك على الله يسير لكيلا
تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبُّ كُلَّ
مختالٍ فخور ﴾ [الآيتان ٢٢ ــ ٢٣] ٩٤

الآيـة | الصفحـة

المجادلة : (٥٨)

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليومِ الآخر يوادّونَ مَنْ حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه ﴾ [الآية ٢٢] ١٢٢

المنافقون : (٦٣)

﴿ ياأيُّها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم ولا أولادُكُم عن ذكرِ الله ﴾ [الآية ٩] ٥٣

المدثر : (٧٤)

﴿ فرَّتْ مِن قَسْـورة ﴾ [الآية ٥١] ١١٤

الطارق : (٨٦)

﴿ والسّـماءِ والطَّـارق ﴾ [الآية (١)] ١٩٢

فهرس الأحاديث

(أ)	الصفحة
« استوصوا بالنِّساء خيراً فإنهنَّ خلقن من ضلع »	٥٥
« إنَّما فاطمةُ بضعةٌ مِنِّى »	٥٦
« إنَّما النِّساءُ عندكم عَوَان »	٥٥

(ش)

« شراركم من يبغض الناس ويبغضونه »	١٥٩

(ل)

« لا هجرة بعد الفتح »	٢٠٤

(م)

« من ابتلى من البنات بشىءٍ فصبر كنَّ له جُنَّةً من النَّار »	٥٤
« من سعادة المرءِ خِفَّةُ عارضيْه »	١٦٦

(و)

« الوليدة والغرم رد عليك »	٢٢٢

(ى)

« يدُ الله مع الجماعة »	٩٦
« يسلبن الحليمَ لبَّه ، ويزدن فى الحياة حُبَّه »	٥٦

فهرس الشعر

القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
الألف المقصورة			
سعى	الطويل		٨٠
الهمزة			
نساءُ	الوافر	زهير بن أبى سلمى	١٥١
جدبا	السريع	الراعى النميرى	١١٠
مذاهبُهْ	الطويل	أبو النشناش	١٥٥
كتَّابُ	البسيط		١٤٢
النوائبُ	الطويل		١٦٦
وتشربُ	الطويل	أبو الطيب المتنبى	٧٧
أديبُ	الطويل	العلاء بن حذيفة الغنوى	١٦٥
طيبُ	الطويل	ابن أبى الخصال	١٩١
ربيب	الطويل		١١٠
الكلابِ	الوافر	—	١٦٦
التاء			
يسكتا	المتقارب		١٦٦
جلَّتِ	الطويل	عمرو بن كميل	٧١

القافيـة	البحـر	الشـاعر	الصفحـة
		الحـاء	
المزاح	الخفيف		٧٢
		الـدال	
عنادا	الوافر	أبو العلاء المعرى	١٧٥
عمودا	الكامل		١٤٨
جراده	الوافر		١٤٧
خدَّيها	الكامل		٥٤
يصيـدُ	الوافر		١٠٣
أعبـدِ	الطويل	طرفة بن العبد	١١١
بالسـؤددِ	الكامل	حارثة بن بدر	١٤٣
أسـدِ	البسيط	الطرماح بن حكيم	
أرشـدِ	الطويل	دريد بن الصمة	١٤٢
خلـدى	السريع		١٠٩
		الميـم	
همَّـا	الطويل	أبو مروان بن أبى الخصال	١٢٩
عممْ	المتقارب	العمـانى	١٥٠
أحـزمُ	الكامل	أبو تمَّام	١٤٣
السـلامُ	الخفيف	الجويرية العبدى	١٦٧
القائـمِ	الكامل		١٥١
الكـلامِ	الخفيف		١٦٨
الديـمِ	السريع	أبو مروان بن أبى الخصال	١٣٠
بذميمِ	الطويل		٧٠

القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
النون			
بلسانِ	الطويل	أعرابى من باهلة	١٦٣
يأكلونى	الوافر		١٦٣
الياء			
ناجيا	الطويل	الأسود بن قريع	١٦٢
اللياليا	الطويل	أبو حية النميرى	١٥٠
مواليا	الطويل	الفرزدق	١٥٣

أشـطار الأبيات

	البحر	الشاعر	الصفحة
والشرُّ أخبثُ ماأوعيتَ من زادِ	البسيط	عبيد بن الأبرص	١٤٠
شيم الزمان عداوة الأحـــرارِ	الكامل		١٦١
فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبـرِ	البسيط		١٦٩
وموقد النار لا ينجو من الشّـررِ	البسيط		١٦٣
فغضَّ الطـرفَ إنك من نميـر	الوافر	جرير	٢٠٢
وإنّما نأخذُ ما أُعطينـــا	الرجـز	زوجة حمزة الضبّى	٥٥
كذاك من لا يسـوس الملك يخلعه	البسيط		١٦٧
وعلى الغانياتِ جرُّ الذيـولِ	الخفيف	عمر بن أبى ربيعة	١٤٩
لولا أميمة لم أجزع من العـدم	البسيط	محمد بن يسير أو إسحاق بن خلف	٥٥
رأى السـلامة منها ترك مافيهـا	البسيط		١٤٤
وما المـرء إلا حيث يجعل نفسـه			١٦٤

فهرس الأمثال

« أ »

أقصر من أظفور الحبارى ١٨٣

أم الصقر مقلاة نزور ٨٤

إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصارا ١١٦

أنا ابن بجدتها ١٤٠

أنا منه فالج بن خلاوة ١٨٤

أهدى من قطاة ١٨١

« ب »

بلغ السَّيل الزُّبى ٧٥

« ت »

تفرقوا أيادى سبأ ١٦٩

« ح »

حن قدح ليس منها ١٥٣ ، ١٦٨

« ذ »

ـ ذهبتْ هيف لأديانها ١١٧

ـ ذهبوا شذر مذر ٦٢

« ر »

رُبَّ عجلةٍ تهب ريثا ١٨٦
رضيت من الغنيمة بالإياب ٦٣

« س »

سقط العشاء به على سرحان ١٧٩

« ش »

شنشنة أعرفها من أخزم ١٢١

« ص »

الصيف ضيَّعت اللبن ١٠٥

« ع »

عاطٍ بغير أنواط ١٤٦
عند جهينة الخبر اليقين ١٩٨

« ق »

قد أنصف القارّة من راماها ١٧٤

« ك »

كلا جانبي هرشى طريق ١٨٠
كل الصيد في جوف الفرا ١٩٤

كمستبضع التمر إلى هجر ١٠٠

« ل »

لا فى العير ولا فى النّفير ١٦٤
لابد للمصدور أن ينفث ١٤٥
لحم على وضم ٥٥
لله دره ١٧٩
لو ذات سوار لطمتنى ١١٦

« م »

ما يقعقع له بالشنان ٢٠٩
مرعى ولا كالسعدان ٢٠٥
مكره أخاك لا بطل ١٨٢
ملكت فأسجح ١٣٨
من استرعى الذئب فما ظلم ١٧٠

فهرس الأعلام

ــ أ ــ

إبراهيم (عليه السلام)
أحمد بن حسين ــ المتنبى ١٨٣
الأخضر الجلد ــ الفضل بن عباس ٢٠٤
أسامة بن زيد ١٢٢
أصبغ بن محمد ١٤٢
أبو الأصبغ بن حزمون ١٤٤
إقبال الدولة ــ على بن مجاهد ١٠٣
إقليدس ٦٨
الآمدى ــ الحسن بن بشر ٢٠٧
أنجشه (مولى النبى صلعم) ٥٦
إياس بن معاوية ١٨١

ــ ب ــ

بجير ٢٠١
البحترى ٢٠٧
بديع الزمان الهمذانى ١٩٦
بسطام بن قيس ١٩٢
بشار بن برد ١٨٨
أبو بصير ــ الأعشى ١٨٧
أبو بكر الخولانى ١٦٤
أبو بكر بن سعيد ١٦٤
أبو بكر بن سكرون ١٥٣
أبو بكر بن صاحب الصلاة ٥٩
أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) ٥٧
أبو بكر بن عبد العزيز ٧٧
أبو بكر بن المرعزى ١٤٨

ــ ت ــ

تاشفين بن على ١١٩
تميم بن مقبل ١٨٩
توبة بن الحمير ١٨٨

ــ ث ــ

الثعالبى ــ أبو منصور ٢٠٦

ــ ج ــ

ابن جامع السهمى ١٨٩
جرير ١٨٧
أبو جعفر بن أُبيّ ١٤٧
أبو جعفر بن أحمد ١٥٧
أبو جعفر بن سفير ١٤٣
أبو جهم العدوى ٦٩

ــ ح ــ

الحارث بن حلزة ١٨٨
حارثة بن بدر
حبيب بن أوس ــ أبو تمام ٢٠٧
حسان بن ثابت ٧٢ ، ١٧٣
أبو الحسن بن حبيب ١٦٦
أبو الحسن بن سراج ١٤٥
أبو الحسن بن شبطيل ١٦٦
أبو الحسن بن الصَّفار ١٤٥

أبو الحسن بن عبد الصمد ١٤٩
أبو الحسن علي بن أبي بكر بن إبراهيم ١٢٣
أبو الحسن علي — ابن سيدة ١٠٢
أبو الحسن اللبلي ١٦٨
أبو الحسن المصحفي ١٤٥
أبو الحسن بن نهيك ١٦٨
حفصة ابنة عمر (رضي الله عنه) ٥٧
أبو الحكم بن حسون ٧٩
أبو الحكم بن المطرف ١٥٢

— خ —

الخضر (عليه السلام) ١٨٥

— د —

دريد بن الصمّة ١٧٥
دعبل الخزاعي ١٨٧
أبو دلف العجلي ١٨٩
أبو دواد الإيادي ١٨٨

— ذ —

أبو ذؤيب الهذلي ١٨٧

— ز —

الزبير بن العوّام ٢٠١
أبو زكريا يحيى بن إسحاق
أبو زكريا يحيى بن علي ١٢٣ ، ١٢٩
زياد بن أبي سفيان ١٨٨
زياد بن معاوية ١٩٢
زيد بن مهلهل الطائي ١٨٩

— س —

سحبان بن وائل ٧١ ، ١٨١
ابن أبي السداد ١٤١
ابن سريج ١٨٩
سليمان بن عبد الملك ٧٢
ابن سوار (صاحب الأحكام) ١٦٧
سويد بن أبي كاهل ١٨٩

— ش —

شعيب (عليه السلام) ٥٦
ابن شمّاخ ١٥١
شهل بن شيبان ١٩٢
أبو الشيص ١٨٦

— ص —

الصابي — أبو هلال ١٨١ ، ١٩٦ ، ١٩٧
الصاحب بن عبّاد ١٨١
أبو صخر — كثير عزة ١٨٣
صوحان ٧١

— ط —

طرفة بن العبد ١١١
الطرماح ١٨٩
أبو الطيب المتنبي ٢١٠

— ع —

ابن عادياء — السموأل ١٩٠
أبو عامر بن شهيد ١٥٣
أبو عامر بن فلفل ١٤٦

أبو العباس بن جرج ١٤٨
العباس بن الأحنف ١٨٧
أبو العباس بن عبدوس ١٥٠
أبو العباس البياس ١٥٠
عبد الحميد الكاتب ١٨١
أبو عبد الله بن الحاج ١٤٣
أبو عبد الله الحضرمي ١٤٨
أبو عبد الله بن أبي الخصال ١١٢، ١٣٩، ١٩٨
عبد الله بن عائشة ١٦٩
أبو عبد الله القرشي ١٥٢
أبو عبد الله المزوري ١٤٨
أبو عبد الله بن مكي ١٤٥
أبو عبد الله بن الهرة ١٧٠
أبو عبد الملك بن الملاح ١٦٥
ابن عتاب ١٤٣
أبو العتاهية ١٧٣
عتبة بن أبي سفيان ١٨٨
عدى بن حاتم ٧٣
عروة بن أذينة ١٤٤
أبو العلاء المعرى ١٧٥ ، ٢١٧
على بن أبي طالب (رضى الله عنه) ٩٢
أبو على بن كامل ١٤٨
على بن يوسف ــ ابن تاشفين ١١٢ ، ١٣١
ابن عمار ١٦٩
عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ٥٧
أبو عمرو ــ أحيحة بن الجلاح ١٩٠
أبو عمران بن أخطل ١٤٧
عمرو بن شأس ١٨٨
عمرو بن كلثوم ١٨٧
ابن العميد ١٨١
عمير بن ضابيء ٦٩

ــ غ ــ

الغريض ١٨٩
الغزالي ــ أبو حامد ١٥٤

ــ ف ــ

أبو فراس ــ الحمداني ١٨٨
ابن فرج ١٥١

ــ ق ــ

أبو القاسم بن بقى ١٤٦
أبو القاسم بن جساس ١٦٤
أبو القاسم بن درامة ١٦٩
أبو القاسم بن زكريا ١٦٧
أبو القاسم بن الطلاع ١٦٣
أبو القاسم بن الملح ١٦٥
أبو القاسم بن النخاس ١٤٩
ابن قزمان ٨٥ ، ٨٧
قس بن ساعدة ١٨٨

ــ ك ــ

أبو كبير الهذلي ١٨٧
كثير ١٨٧

ــ ل ــ

لبيد بن ربيعة ١٧٤

— م —

ابن المالقى ٧٧

أبو المجد بن نعيم ٧٧

أبو محمد بن أخطل

أبو محمد بن بدرون ١٦٨

محمد بن تميم ١١٩

أبو محمد بن حيى ١٦٣

أبو محمد بن عبد القوى ٥٣

أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ١٧٢ ، ١٩٤

أبو محمد بن عطية ٨٥

أبو محمد بن القاسم ١٩٦

مخارق ١٧٣

أبو مروان بن أبى الخصال ١١٩

أبو مروان بن زكريا ٧٤ ، ١٢٤

أبو مروان بن عبد الملك ١٣٧

المشرف بن قسى ١٧٠

معن بن أوس ١٨٨

أبو مهدى بن الشرشالة ١٦٦

مهلهل بن ربيعة ٥٤ ، ٢٠١

موسى (عليه السلام) ٥٦ ، ١٨٥

— ن —

النعمان بن المنذر ٧٢

أبو نواس ١٨٧

— هـ —

هاجر ١٨٥

هرم بن قطبة ١٩٩

ابن هلال — الصابى ١٨١

همّام بن غالب — الفرزدق ١٨٧

— و —

أبو الوليد بن سيد أمير على ١٦٠

أبو الوليد بن طريف ١٤١

أبو الوليد بن عامر ١٥٠

أبو الوليد بن عواد ١٤٤

— ى —

يحيى بن إسحاق — أبو زكريا ١٣١

يحيى بن على — أبو زكريا ١١٨

أبو يعقوب ينتان بن على ١٢٧

فهرس القبائل والأقوام

ـ أ ـ

أسـد ١٨٨
إيـاد ١٨٨

ـ ت ـ

تغلب ١٨٧
تميم ١٨٧

ـ ج ـ

آل جفنة ١٩٢

ـ ح ـ

حـرب ١٨٨
حكـم ١٨٧
حنيفـة ١٨٧

ـ خ ـ

خـزاعة ١٨٤

ـ ذ ـ

ذبيـان ١٩٢

ـ ر ـ

ربيعة ١٨٧ ، ١٩٢

ـ ز ـ

زمّـان ١٩٢

ـ س ـ

سـليم ١٩٠

ـ ش ـ

شـيبان ١٩٢

ـ ط ـ

طـيء ١٨٩

ـ ع ـ

عقيـل ١٨٨

ـ غ ـ

غدانـة ١٩٣
غسـان ٧٢ ، ١٩٢

— ف —

بنو فندلة ١٦٣

— ق —

قريش ٢٠١

— ك —

كنانة ١٩٢

— م —

مزينة ١٨٨
مضر ١٩٠

— هـ —

هذيل ١٨٧
هوزان ١٨٩

— ى —

يشكر ١٨٨

فهرس البلدان والأماكن

ـ أ ـ

إستجة ٩٠
إشبيلية ٩١
الأنبار ٩٢

ـ ب ـ

باجة ١٦٤
بارق ٧٠
بلخ ١٦١
بلنسية ١٣١ ، ١٣٣

ـ ت ـ

تبوك ١١٧
تلمسان ٧٧
تهامة ١٦٤

ـ ث ـ

ثبير ١٩٣

ـ ش ـ

شاطبة ١٣٢
شلب ١٦٠
شنفيرة ١٢٥

ـ ز ـ

الزوراء

ـ ع ـ

العذيب ٧٠

ـ ف ـ

فاران ١٧٢
فرنجولش ٩٠

ـ ق ـ

قرطبة ٦٦ ، ٨٨
قلعة رباح ٨٩

ـ ك ـ

كركى ٩٠

ـ ل ـ

لورة ٩١

ـ م ـ

مالقة ١٠٠
مراكش ٩٤ ، ١١٩

مرسية ١٢٧
مــرو ١٦١
معرة النعمــان ١٧٥
ميورقة ١٢٣ ، ١٣٢

— ن —

نجـد ١٧٣

— و —

الوادى الكبيـر ٩٠
ودّان ٧٢
وهــران ١٢٣

— ى —

يلمّــة ٩٠

المصـــادر والمراجـــع

أولاً : المصـــادر

١ ــ الإحاطة فى أخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، (نصوص جديدة لم تُنشر) تحقيق عبد السلام شقور ، تطوان ، المغرب ، ١٩٨٨

٢ ــ إحكام صنعة الكلام فى فنون النثر ومذاهبه فى الشرق والأندلس ، محمد بن عبد الغفور الكلاعى ، تحقيق د. محمد رضوان الداية ، ط. عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ ــ ١٩٨٥ .

٣ ــ الأصمعيات (اختيار الأصمعى) ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط. دار المعارف ، الطبعة الخامسة .

٤ ــ الأغانى ، أبو الفراج الأصفهانى ، دار الثقافة ، بيروت .

٥ ــ الأمالى ، أبو على القالى ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٣ ــ ١٩٥٣ .

٦ ــ أمالى السيد المرتضى ، أبو القاسم على بن الطاهر ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٥ هـ ــ ١٩٠٧ .

٧ ــ الإيضاح فى علوم البلاغة ، القزوينى ، مكتبة المثنّى ، بغداد .

٨ ــ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، الضبىّ ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٩ ــ بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس ، ابن عبد البر ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، دار الكاتب العربى ، مصر ، ١٩٦٩ .

١٠ــ البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة .

١١ـ تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر .

١٢ـ ترسل الفقيه الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم ٤١٨ أدب عن نسخة الأسكوريال رقم ٥١٩ .

١٣ـ جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة فى أدوات ذوى البراعة) ، ابن الأثير الحلبى ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

١٤ـ الحلة السيراء ، ابن الأبار ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٥ـ الحماسة ، أبو تمام ، مطبعة السعادة ، ١٣٣١ هـ .

١٦ـ ديوان الأعشى ، تحقيق د. محمد محمد حسين ، القاهرة .

١٧ـ ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

١٨ـ ديوان البحترى ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، دار المعارف .

١٩ـ ديوان أبى تمام ، تحقيق محمد عبده عزام ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٢٠ـ ديوان جرير ، دار صادر ، بيروت ، دار المعارف ، القاهرة .

٢١ـ ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقى ، ط. دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ .

٢٢ـ ديوان ابن الرومى ، تحقيق د. حسين نصار ، القاهرة ١٩٨١/٧٣ .

٢٣ــ ديوان زهير بن أبى سلمى ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى . ١٩٦٨

٢٤ــ ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى ، تحقيق صلاح الدين الهادى ، دار المعارف

٢٥ــ ديوان طرفة بن العبد ، دار الكتب ، ١٩٧٥ .

٢٦ــ ديوان عمر بن أبى ربيعة ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٢٧ــ ديوان المتنبى ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ، ط. دار الكتاب العربى ، ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ .

٢٨ــ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ ــ ١٩٧٩ .

٢٩ــ الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، ابن عبد الملك المراكشى ، تحقيق د. إحسان عباس ، د. محمد بن شريفة ، بيروت .

٣٠ــ رسائل أندلسية ، تحقيق د. فوزى سعد عيسى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

٣١ــ الروض المعطار فى خبر الأقطار ، الحميرى ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٣٢ــ سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، ابن نباتة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. مصر

٣٣ ــ سيرة سيبويه ، ابن هشام ، نشر البابى الحلبى ، القاهرة

٣٤ـ الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ط. عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٤ .

٣٥ـ صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب الروض المعطار) تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٣٦ـ الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، ابن بشكوال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٣٧ـ صلة الصلة ، ابن الزبير ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٨ .

٣٨ـ طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط. دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

٣٩ـ العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

٤٠ـ عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، دار الكتب ، ١٣٤٣ .

٤١ـ عيار الشعر ، ابن طباطبا ، تحقيق د. محمد طه الحاجرى ود. محمد زغلول سلام ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٤٢ـ فهرسة ابن خير ، منشورات مكتبة المثنى ببغداد والخانجى بالقاهرة ، والمكتب التجارى ببيروت ، عن الأصل المطبوع فى مطبعة قومش بسرقسطة سنة ١٨٩٣ .

٤٣ـ فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتبى ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

٤٤ـ قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب ، ابن رشيق ، تحقيق الشاذلى بو يحيى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٢ .

٤٥ـ قلائد العقيان ، الفتح بن خاقان ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ

٤٦ـ لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف .

٤٧ـ مجمع الأمثال ، الميدانى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. عيسى البابى الحلبى ، مصر .

٤٨ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، الفتح بن خاقان . القسطنطينية ١٣٠٢ هـ .

٤٩ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشى ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٥٠ـ معجم البلدان ، ياقوت ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٥١ـ معجم الصدفى ، ابن الأبار ، دار الكتاب العربى ، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ .

٥٢ـ المغرب فى حُلى المغرب ، ابن سعيد ، تحقيق د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة .

٥٣ـ المفضليات ، المفضّل الضبّى ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، الطبعة السابعة .

٥٤ـ الموازنة ، الآمدى ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

٥٥ـ نفح الطيب ، المقرى ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٥٦ـ وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

٥٧ـ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، الثعالبى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . ط. دار الفكر ، بيروت .

ثانياً : المراجـع

٥٨ــ تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) . د. إحسان عباس ، ط. دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٧ .

٥٩ــ تاريخ الأدب العربى ، بروكلمان ، ترجمة النجار وآخرين ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ . .

٦٠ــ الحركة اللغوية فى الأندلس ، ألبير حبيب مطلق ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٦١ــ الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ، د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

٦٢ــ عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٣ ــ ١٩٦٤ .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة التحقيق	٥
وصف المخطوطة	٦
منهج التحقيق	٨
أهمية الكتاب وقيمته الأدبية	٩
الرسائل الديوانية	١١
الرسائل الإخوانية	٢٠
الرسائل الوصفية	٢٤
الرسائل الاجتماعية	٢٨
موضوعات أخرى	٢٩
مقامتان مجهولتان	٣٣
منهج صاحب المجموع فى اختياراته	٣٥

الرسائل

رقم الرسالة	الموضوع	
[١]	رسالة الفقيه المشاور أبى محمد عبد القوى فى نكاح ابنته إلى أحد الفقهاء	٥٣
[٢]	رسالة أخرى له فى الإعذار لبنيه	٥٨
[٣]	رسالة لابن صاحب الصلاة إلى بعض إخوانه يوصيه بالتحفظ بكتبه من الفأر	٥٩

رقم الرسالة	الموضوع	الصفحة
[٤]	رسالة أخرى له فى وصف جامع قرطبة	٦٦
[٥]	رسالة إخوانية ...	٧٠
[٦]	رسالة أخرى إخوانية ...	٧١
[٧]	رسالة للوزير الكاتب أبى مروان بن زكرياء	٧٤
[٨]	رسالة لذى الوزارتين أبى بكر بن عبد العزيز إلى ابن المالقى مشرف تلمسان ...	٧٧
[٩]	رسالة لأبى بكر بن عبد العزيز إلى الفقيه أبى الحكم بن حسون يعزيه بأبيه ويهنيه بالولاية بعده ...	٧٩
[١٠]	رسالة كتبها أبو بكر بن عبد العزيز إلى أخى أبى الحكم بن حسون يعزيه فى أبيه ويهنيه بالشورى ...	٨٢
[١١]	رسالة كتبها أبو بكر بن عبد العزيز إلى القاضى أبى محمد بن عطية فى جانب الزرزور ...	٨٤
[١٢]	زرزورية أخرى لأبى بكر بن عبد العزيز ...	٨٦
[١٣]	رسالة كتبها أبو بكر بن عبد العزيز عن أهل قرطبة إلى على بن يوسف بن تاشفين ...	٨٨
[١٤]	مراجعة على بن يوسف لأهل قرطبة	٩٤
[١٥]	رسالة كتبها أبو بكر بن عبد العزيز يصف غيثاً	٩٨

رقم الرسالة	الموضوع	الصفحة
[١٦]	رسالة كتبها أبو بكر بن عبد العزيز إلى صاحب مدينة مالقة	١٠٠
[١٧]	رسالة كتبها أبو الحسن على بن سيدة إلى أستاذه	١٠٢
[١٨]	رسالة أخرى لابن سيدة	١٠٥
[١٩]	رسالة ثالثة لابن سيدة	١٠٦
[٢٠]	رسالة رابعة لابن سيدة	١٠٨
[٢١]	رسالة لذى الوزارتين أبى عبد الله بن أبى الخصال إلى عسكر انهزم موبّخا لهم	١١٢
[٢٢]	رسالة كتبها ذو الوزارتين أبو مروان بن أبى الخصال عن تاشفين بن على فى أمر محمد بن تميم حين استراب منه	١١٩
[٢٣]	رسالة كتبها أبو مروان بن أبى الخصال مراجعاً للوزير الكاتب أبى مروان بن زكريا جواباً عن رسالة خاطبة بها	١٢٤
[٢٤]	رسالة كتبها أبو مروان بن أبى الخصال عن أبى يعقوب ينتان بن على	١٢٧
[٢٥]	رسالة كتبها أبو مروان بن أبى الخصال إلى أبى زكريا يحيى بن على معزياً	١٢٩
[٢٦]	رسالة كتبها أبو مروان بن أبى الخصال عن	

رقم الرسالة	الموضوع	الصفحة
	علي بن يوسف إلى يحيى بن علي بولاية بلنسية	١٣١
[٢٧]	رسالة كتبها أبو مروان بن أبي الخصال إلى أهل بلنسية	١٣٣
[٢٨]	رسالة كتبها أبو مروان بن أبي الخصال إلى العسكرية ببلنسية	١٣٥
[٢٩]	رسالة كتبها أبو مروان بن أبي الخصال إلى القاضي أبي مروان بن عبد الملك	١٣٧
[٣٠]	المقامة القرطبية	١٣٩
[٣١]	رسالة الانتصار في الردّ على صاحب المقامة القرطبية	١٥٧
[٣٢]	المقامة الشلبية	١٦٠
[٣٣]	رسالة الوزير الكاتب عبد المجيد بن عبدون إلى الوزير الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال	١٧٢
[٣٤]	جواب أبي عبد الله بن أبي الخصال على رسالة ابن عبدون	١٧٦
[٣٥]	رسالة أبي محمد بن القاسم في الترجيح بين الصابي والبديع	١٩٦
[٣٦]	جواب أبي عبد الله بن أبي الخصال عن رسالة ابن القاسم	١٩٨
ملحق		٢١٥

أمر الإيداع ٨٩/٣٨٤٨
الترقيم الدولى ٥ ــ ٤٨٥ ــ ١٠٣ ــ ٩٧٧

طباعة تكنوتكس فن الجرافيك
٧٥ ش الفتح فلمنج الإسكندرية
ت:٥٨٧٢٤٠٩ـــ٥٨٧٤٧٤٩